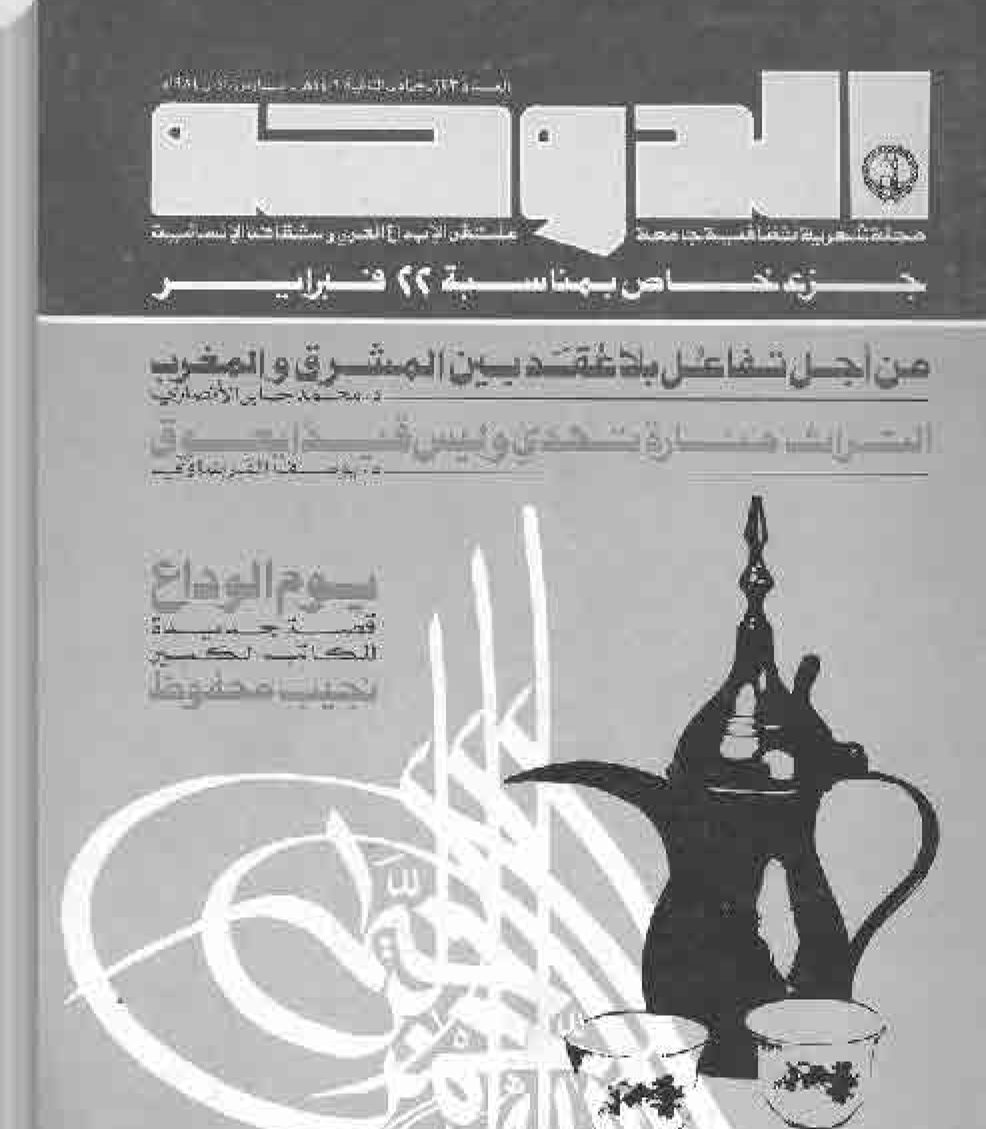


الطغراء..
قمة الجمال في الخط العربي

المشــكلة من وجــهة نظــر خــليجيــة

من أجل تفاعُل بلاعقد بين المشْرق والمغْرب

مراكز الثقافة.. أهملت أريافها في مشــرق ومغــرب!

بقلم: الدكتور محمد جابر الأنصاري

عانت الجزيرة واليمن والخليج من الإهمال أكثر من المغرب وهي مشرق المشرق!
عقدة تفوق مشرقية تجاه الثقافة المغربية ؟!
لنبدأ ـ إذن ـ في تفكيك هذه العقدة.. سواء كانت عند المشارقة.. حقيقة واقعة.. أو كانت عند المغاربة تصوراً ذهنياً ونفسياً.. أو كانت خيوطها متشابكة متداخلة هنا وهناك.

وفي تصوري، أنّ الانطلاق في مقاربة الموضوع وملامسته من وجهة نظر كاتب في الجزيرة العربية والخليج، يخرج المسألة ـ بعض الشيء ربما ـ من طابع المواجهة الحدية.. ذلك أن الأخوة في المغرب العربي ينصب عتبهم، أكثر ماينصب، على لامبالاة أشقائهم في المشرق المركزي الأوسط، أي في مصر وبلاد الشام ـ بمعناها التاريخي ـ وربما العراق..

ونحن هنا في منطقة الجزيرة والخليج العربي، لنا عتبنا أيضاً على أشقائنا مثقفي المشرق الأوسط، خاصة في بيروت والقاهرة.. فنحن هنا أيضاً ـ في مشرق المشرق! بقيت ثقافتنا وأدبنا وأدباؤنا وأمور بلادنا عموماً في حكم الإغفال، أو عدم الإلمام على الأقل لدى أكثر الأوساط الثقافية البيروتية والقاهرية المنشغلة بنفسها وبأضوائها وبنجومها وبتوجهاتها الأوربية وسفراتها الغربية.. وبتأنقها العصري، ومسلكها المتفرنج شبه الأرستقراطي.. وذلك منذ بدايات هذا القرن حتى الستينات عندما أصبح بترول الجزيرة والخليج له رائحة تحرك قرائح أهل الأدب والصحافة والاعلام.. الخ!

وهذ لايقلل طبعاً من جهد الأشقاء العرب في لبنان ومصر ـ أو على وجه التحديد في بيروت والقاهرة، فالحديث ينصب هنا على عواصم التأليف والنشر وليس على تلك البلاد كلها لأن أطرافها الريفية وجهاتها القروية ظلت تشكو الاهمال هي ذاتها كما نشكو نحن ويشكو أهل المغرب ـ نقول هذا لايقلل من جهد الرواد من أدباء بيروت والقاهرة الذين اهتموا بمناطقنا العربية في مشرق ومغرب، بدافع عروبتهم وإسلامهم وحبهم لحقيقة البحث والعلم، عندما كانت الأهمية الوحيدة لمناطقنا كونها جزءاً من وطن العرب الكبير، لا أكثر.. وأمثال هؤلاء الأشقاء الرواد مازال لهم نظراء الى اليوم ممن يهتمون بمنطقة الخليج العربي والجزيرة العربية بدافع الالتزام العربي، قبل كل شيء.. وبدافع الرغبة في التواصل الثقافي والفكري والشعوري؛ لكن الظاهرة العامة تبقى كما أشرنا من حيث الاغفال العام لشئون المشرق في الجزيرة

والخليج ، وشئون المغرب في الوقت ذاته ، من جانب الأوساط الأدبية والصحفية بعامة في العواصم الكبرى ببلاد المشرق الأوسط ، أو المشرق المتوسطي ، أي المطل على شرق البحر الأبيض المتوسط ، كبيروت والقاهرة ، والى حدّ ما دمشق وبغداد .. هكذا ليرى الأخوة في المغرب أن « عقدة التفوق المشرقية » ــ إذا صح التعبير ــ يعاني منها مشرق المشرق وأصل المشرق التاريخي ! ، مثلما عانوا منها هم .

وهذا يستدعي في واقع الأمر إعادة صياغة مصطلح المشكلة بتعبير آخر ، غير (عقدة التفوق المشرقية ضد الثقافة المغربية) الذي يبدو لي أنه مجرد تبسيط مكاني وجغرافي ، ومن وجهة واحدة فقط ، لمشكلة أكبر ومن نوع آخر وطبيعة مغايرة .

فما رأى أخوتنا المغاربة ، أن نقوم نحن (أي مشارقة الجزيرة والخليج في مشرق المشرق) ، وهم في المغرب العربي ــ معاً ــ « بتصفية حساب » ثقافي تاريخي مع أولئك « الإخوة » « الأفندية » من المثقفين البيارتة والقاهريين ، والى حدّما وبمسئولية أقل ، الدمشقيين والبغداديين ، الذين انشغلوا بأضواء مدنهم في العشرينات والثلاثينات والأربعينات من هذا القرن ، وكان همهم « ليالي الأنس في فينا » ، قبل ليالي البؤس .. والمعاناة والعزلة في أطرافنا البعيدة عن أضواء المراكز والعواصم السباقة للتمدين اللماع ؟ ! !

ريف ثقافي

وحتى أضع المشكلة في إطارها المباشر والكلي والصريح فاني أتصور أن العالم العربي في تلك الحقبة من السنين كان بمثابة ريف ثقافي واسع قاحل يتوجه نحو « سوقين » من أسواق تصريف الانتاج الثقافي وتوصيله ونشره والتعريف بشأنه .. وهما بيروت والقاهرة ــ كمركزي تأليف وطباعة ونشر .. وحرية فكرية أيضاً ــ فمن استطاع الوصول الى أحد المركزين من أدباء الريف المغربي أو المشرقي ، أو من أدباء الريف المصري والريف اللبناني الشامي



ابراهيم العريض

● في العشرينات والثلاثينات ماكان ممكناً للصحف القاهرة أن تصل إلى موانئ الخليج إلا عن طريق حكومة الهند الشرقية البريطانية في بومبي !

ذاتهما ، تمكن من التعريف بنفسه ، ونشر انتاجه ، وتطوير مستواه الثقافي أيضاً .. ومن لم يستطع ــ لظروف العزلة أو الاستعمار أو التخلف أو الفقر أو القمع ــ فإنه يبقى في الظل والعتمة ، أو في دائرة ضيقة جداً من الضوء في بلده ــ إلى أن يصاب بالاعياء ، فيلجأ الى الصمت ، أو ينتهي بما هو أسوأ من الصمت .

وفي جانب آخر ، يكفي أن نشير الى أن صحف القاهرة ماكان ممكناً أن تصل الى موانىء الخليج في العشرينات والثلاثينات ، إلا إذا مرت عن طريق حكومة الهند الشرقية البريطانية في ميناء بومبي الهندي ، ونالت الموافقة ــ (حتى مجلة العروة الوثقى للأفغاني ومحمد عبده كان يجب أن تسافر براً وبحراً من باريس الى بومبي قبل أن تصل البحرين والكويت ودبي والشارقة) ــ كما أشار الى ذلك المؤرخ الأدبي البحريني مبارك الخاطر في تأريخه للثقافة في الخليج مطلع القرن .. وعلى الجانب الآخر يشير د . عبد الملك مرتاض في كتابة « الجدل الثقافي بين المغرب والمشرق » ، إلى الجدار الحديدي الفولاذي الذي أقامه الاستعمار حول الجزائر ، والى الكيفية التي كانت السلطات الفرنسية تعامل بها الصحف العربية المشرقية المرسلة للجزائر وجاراتها المغربيات .

حصار من استعمار وتخلف

وهذه حقيقة لا بد أن نأخذها بعين الاعتبار لدى معاتبتنا لاخوتنا مثقفي العواصم العربية المشرقية الكبرى ، لأنهم بقدر ماكانوا مبتعدين عنا ومنجذبين لأضوائهم وأضواء الغرب ، كان الاستعمار والتخلف ، من ناحية أخرى ، يشدان الحصار حول أطرافنا العربية في المغرب والمشرق القصي ، وكان يستحيل على أي أديب أو صحفي عربي زيارة أي بلد في المشرق أو المغرب بلا مباركة المعتمد البريطاني ، أو المفوض الفرنسي هنا أو هناك .. وإن كان هذا الاعتبار ــ بطبيعة الحال ــ لايلغي عنهم المسئولية كلها ، ولا يرفع العتب كله ، فكم من

من أجل تفاعل بلا عقد بين المشرق والمغرب

أديب وصحفي ورحالة من أوربا وأمريكا دخلوا أقطاراً شرقية ومغربية وجاسوا خلالها، وتوغلوا في عمقها الاستراتيجي، ومروا بممراتها الضيقة الخطرة، ووصلوا الى أحصن قلاعها ومراكزها ومؤسساتها.. وكتبوا بعد ذلك كله باسهاب وتدقيق، دون أن تكون لديهم أية (فيزا) من معتمد أو مفوض أو قنصل..

بل ان المفوضين والقناصل كانوا يعتمدون على تقاريرهم فيما بعد، ويعدونهم عيوناً لصالح دولهم في تلك البلدان. وربما كان مجيء أمين الريحاني الى الجزيرة والخليج في الثلاثينات استثناء عربياً لذلك، غير أن هذه الرحلة والمعلومات التي نتجت عنها، ماكانت ممكنة، لولا أن استعان الريحاني بأصدقاء أمريكيين وبريطانيين كثيرين. وكان يحمل جواز سفر أمريكياً. لاتستطيع السلطات البريطانية رفضه، وإن كان القناصل البريطانيون لم يقصّروا في «نصح» الريحاني بعدم الايغال في الجزيرة واليمن، حيث ان القبائل في الداخل ـ حسب زعمهم ـ كانت «ستذبحه» لو اكتشفت أنه (نصراني).. حسبما كشف لنا الريحاني نفسه في كتابه القيم (ملوك العرب).. بلهجة تهكم قارصة لأولئك القناصل!

وأياً كان الأمر، فإن العالم العربي ـ مشرقاً ومغرباً ـ قد عاش لحقبة من الزمن بمثابة ريف ثقافي لاتوجد به إلا عاصمتان ثقافيتان هما بيروت والقاهرة، تتبعهما مدينتان أخريان هما دمشق وبغداد. وحتى أدباء هاتين المدينتين ماكان متيسراً لهم نيل الشهرة الكاملة في العالم العربي والحصول على «التعميد» أو الاعتراف الثقافي الأكيد إلا بعد وصولهم واستقرارهم في القاهرة أو بيروت.

القاهرة وبيروت

فأنا أعتقد على سبيل المثال لو أن الشاعرين العراقيين الزهاوي والرصافي قد عاشا في ذلك الوقت بصفة دائمة في القاهرة أو بيروت لكانت لهما شهرة أعظم مما تيسر لهما. فالاثنان لايقلان شاعرية عن حافظ ابراهيم ان لم يتجاوزاه عمقاً وقوة. لكن حافظاً وجد في أضواء القاهرة معيناً كبيراً لشاعريته على امتداد العالم العربي، ودخلت أشعاره حتى في الكتب المدرسية المقررة للمرحلة الابتدائية ووصلتنا إلى هنا في البحرين والدوحة والكويت والشارقة، في حين لم نسمع بعد بالزهاوي أو الرصافي، الأقرب مسافة جغرافية إلينا، لأن الصحف المصرية، والكتب المدرسية المصرية هي التي كانت تقرأ وتدرس لا في الخليج فحسب، وإنما في بغداد والعراق أيضاً. وهذا ما استفاد منه جبران وميخائيل نعيمه والريحاني عن طريق المجلات والصحف اللبنانية والكتب الدراسية والكتب العامة القادمة من بيروت الى بلاد عربية عدة، فدخل أدبهم، قبل أدب زملائهم العرب الآخرين، في وعي الأجيال العربية الجديدة، وأصبحوا تراثاً أدبياً مؤسساً وثابتاً بسبب هذا السبق في الايصال. وإن كان ذلك لايقلل بطبيعة الحال من القيمة الذاتية لأدبهم، لكنها قيمة ماكانت ستظهر وتعرف لو لم تكن بيروت قادرة على النشر والتأثير، والدليل على ذلك أن إخوانهم الشعراء المهجريين السوريين، من الداخل السوري، لم تتيسر لهم الشهرة ذاتها رغم مشاركتهم لهم في حركة أدبية واحدة، هي الحركة الرومانسية السورية اللبنانية من مقيمة ومهاجرة.

ولا أظننا مبالغين إذا افترضنا أن الشاعر الشهير نزار قباني ماكانت ستحقق له هذه الشهرة الذائعة الواسعة في العالم العربي من مشرق ومغرب، لو لم يغادر حيه الدمشقي العتيق، ويأت الى بيروت، ويقم بها ويفتتح دار نشر تحمل اسمه فيها، ويتواصل من خلالها، ومن خلال صحفها ودورها وجسورها، مع مشرق ومغرب. ومرة أخرى هذا لايقلل على الاطلاق من شاعرية نزار في حد ذاتها. لكن شعر نزار مع أجواء بيروت ونكهتها المتميّزة، تحوّل إلى سحر كيميائي، وتفاعلات كيميائية شعورية، على امتداد المختبر العربي الجماهيري، بحيث لو استبعدنا بيروت من معادلة نزار الكيميائية، لكان الحاصل على الأرجح شيئاً مختلفاً ومغايراً تماماً!

أم ترانا نتصور أن الكاتب علي أحمد باكثير كان سيعرفه العالم العربي ويتنبه الى موهبته ومشاعره العربية الاسلامية، لو لم يستوطن القاهرة، ويطبع كتبه في دورها، كدار المعارف وغيرها؟ وهل كان من الممكن أن تصلنا كلمته من موطنه الحضرمي أو مهجره

● ثقافتنا العربية الحديثة لم تصل بعد إلى مستوى الثقافة العالمية التي تتّصف بالإحاطة والشمول في تغطية المساحات الجغرافية المختلفة

الأندونيسي ... قبل أن تطيب له الإقامة ويحلو له العيش في قاهرة المعز المتلألئة المشعة.

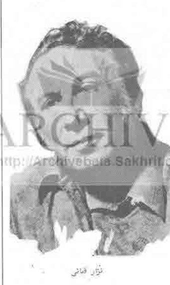
ثم ألا تعتقدون معي أن ابراهيم العريض، شاعر البحرين الكبير، لو كان شاعراً قاهرياً أو بيروتياً، مولداً أو إقامة، لنال من الشهرة العريضة والسريعة في عالمنا العربي ما ناله قبله حافظ ابراهيم أو خليل مطران أو محمود حسن اسماعيل؟ وهل كنتم ستعلمون أن في البحرين شاعراً كبيراً، اسمه ابراهيم العريض، لو لم يفتح عليكم نوافذ بيروتية أو قاهرية، كمجلة العروبة للحوماني ومجلة الأديب والآداب ببيروت، ومجلة الرسالة بالقاهرة؟!

هذا فقط للتذكير والتدليل ببعض الأمثلة، ودعونا لا نجركم إلى دواخل اليمن وعمان، وإلى ذخائر اليمن وعمان، وإبداعات اليمن وعمان التي ظلت مجهولة ومغمورة الى يومنا هذا لأنه لم تتوفر لها الوسيلة أو الحيلة التي توصلها إلى مسارح الأضواء ومنابر النشر والصيت الذائع في بيروت أو القاهرة، إلا مانذر أو توفرت له الصدفة المحض.

عتاب مشرقي مغربي

أتينا بكل هذه الأمثلة المشرقية.. لنبيّن ونوضّح للإخوة المغاربة الجانب الآخر من الصورة، والبعد الثاني لها.. فهاهنا نتاجات مشرقية.. في أصل المشرق.. في مشرق المشرق، ظلت بعيدة عن دائرة الضوء، مغمورة مهملة، أو محاطة بالغموض والعرض المخل المبتسر في أحسن الأحوال، لأنها تقع ــ مثلما وقعت ثقافاتكم ونتاجاتكم المغربية ــ في طرف من الصورة، في جانب قصي معزول عنها حينئذ، ولم يتح لها الاقتراب، باعتبارها جانباً من الريف الثقافي، من العاصمتين الثقافيتين العتيدتين.. اللتين نعاتبهما ــ مشرقاً ومغرباً ــ لكنا لن ننكر جهدهما وجهادهما في الأمس واليوم والغد المأمول المشترك إن شاء الله.. لكنها حقيقة نراها متعلقة بسسيولوجية الثقافة العربية

● هل كان نزار ليحقّق شهرته الذائعة الواسعة لو لم يتواصل من خلال صحف ودور نشر بيروت مع المشرق والمغرب؟


نزار قباني

الحديثة أردنا بسطها من جانبنا المشرقي القصي، أيضاً، هنا في الجزيرة والخليج واليمن وعمان، في مجال محاولتنا المتواضعة هذه، تفكيك (عقدة الاستعلاء المشرقي تجاه المغرب)، كما تنطرح لدى أشقائنا المغاربة، لنشير الى أن ماحدث من إغفال وإهمال مرجعه ذلك الوضع العربي العام بين مشرق ومغرب، وأنه ليس مقصوداً أو موجهاً تجاه المغرب بالذات كمغرب في حد ذاته. أضف إلى ذلك أن ثقافتنا العربية الحديثة، حتى في مراكزها المتقدمة المركزية الوسيطة، لم تصل بعد إلى مستوى الثقافة العالمية العلمية التي تتصف بالإحاطة والشمول والدقة في تغطية المساحات الجغرافية المختلفة من قصية نائية أو قريبة سهلة المتناول، إذ ماتزال تظهر كتب ودراسات في عاصمة القطر العربي المعني ذاته، ومع ذلك تجدها تفتقر الى المعلومية والدقة والنفاذ بالنسبة لشؤون ذلك القطر الصادرة به، فما بالك بأقطار عربية أخرى في مغرب أقصى أو مشرق أبعد؟!

هذه ــ إذن ــ حقيقة أرجو أن يأخذها إخواننا المثقفون والباحثون في المغرب الكبير، بعين الاعتبار، عندما يتناولون مشكلة الاغفال والاهمال لشؤونهم في منابر عواصم الوسط العربي المحسوبة في بوصلتهم الجغرافية مشرقاً..!

أما نحن، في الجزيرة والخليج وعمان واليمن، فهذه الأقطار العربية المركزية في الوسط تبدو في بوصلتنا مغرباً..! لوقوعها بطبيعة الحال الى الغرب منا.. وهكذا فنحن من حقنا ــ إذن ــ أن نتحدث عن «عقدة، استعلاء» مغربية تجاه مشرقنا القصي!.. وتعالوا حلّوها لنا..! وما ذلك.. كذلك، ونرجو أن نكون قد سللنا خيطاً واحداً متداخلاً في «العقدة».. وللحديث صلة لنتأمل في بقية الخيوط.

محمد جابر الأنصاري

البحرين

عريضة اتهام مغربية ضد المشارقة

الدعوة التي أطلقتها مجلة « الدوحة » في عدد أول يناير ٨٦ ، بعنوان « مطلوب من المشارقة إعادة اكتشاف المغرب ثقافياً » في مقال الدكتور محمد جابر الأنصاري ، جديرة بأن تؤخذ مأخذ الجد ، ليس فقط فيما يتعلق بالواقع الثقافي الراهن ، ولكن أيضاً بالنسبة للتاريخ الذي مضى وانقضى .

بقلم : فهمي هويدي

يبدو أن ثمة قدرا من المرارة لا نعرف مداه ، يستشعره أخواننا المغاربة تجاه المشارقة بشكل عام . وقد كنا نسمع « ملاحظات » في ذلك الاتجاه من جانب بعض المثقفين المغاربة ، الذين نلتقي بهم في مختلف المناسبات الثقافية . غير أنني واحد ممن لم يدركوا خلفيات تلك الملاحظات ، ومدى عمقها ، إلا بعد أن اطلعت على كتاب اقتنيته من الجزائر ، عنوانه « الجدل الثقافي بين المغرب والمشرق » ، للدكتور عبدالملك مرتاض ، الأستاذ بجامعة وهران .

وقد لا نبالغ كثيرا إذا قلنا ان هذا الكتاب الذي لا تزيد صفحاته على ١٤٠ هو بمثابة عريضة اتهام للمشارقة ، تدعونا بصوت عال ، لأن نراجع موقفنا ومعلوماتنا عن المغرب والمغاربة .

فنحن نقرأ في صدر الكتاب ، الذي صدر عن دار الحداثة في بيروت ، عام ١٩٨٢ ، قول مؤلفه : لقد طال عتاب المغاربة للمشارقة دون أن يجدي عتابهم هذا فتيلا ، فيلفت المشارقة إليهم لفتة حادة ، ويجعلهم يعنون بهم وبآثارهم على نحو ما هم أهل له . فبقدر ما كان المغاربة ينحون باللوائم على المشارقة ، ويضجون من مواقفهم منهم بمر الشكوى ، كان المشارقة لا يزدادون إلا عزوفا عنهم وتجاهلا لهم ، وزهوا في كتاباتهم ، ورغبة عما يجرى بين ظهرانيهم فكانت كتاباتهم حين يكتبون — وما أقل ذلك — مقتضبة خجولة ، تتسم بالأخطاء التاريخية والجغرافية ، في الوقت الذي كان المغاربة يعرفون فيه عن المشرق العربي كل شيء ، رجاله وتاريخه وأدبه وفنونه .

وهذا المعنى — ينبهنا المؤلف — أشار اليه الأديب الجزائري فرحات الدراجي في مقال شهير له ، نشر عام ١٩٣٧ ، بعنوان « كلمة عتاب إلى اخواننا الشرقيين » ، نعى عليهم فيه أنهم لا يعنون بالمغرب وشئونه ، أدباً وجغرافية وتاريخا ، مما كان يجعل كتاباتهم هذه محشوة بالأخطاء والزلات . ومما لاحظه الكاتب الجزائري في مقاله : أن إعراض اخواننا الشرقيين عنا ، أفضى بهم الى الجهل بنا ، وببلادنا جهلا مطبقا ، فإنك قلما تجد لهم كتاباً في الجغرافيا أو التاريخ ، وتجده سالما من الأخطاء الواضحة في الأسماء والبلدان » .

وذكر المؤلف أن أديبا جزائريا ، هو أبو يعلي الزواوي ، ذهب إلى المشرق أثناء الحرب الأولى ، وشارك في تحرير صحفه ، ثم عاد إلى الجزائر ونشر في مجلة « الشهاب » مقالا بعنوان : « اشتغالنا بالشرق أنسانا أنفسنا ! » ، هاجم فيه المغاربة عامة .

والجزائريين خاصة ، على تقصيرهم في حق أنفسهم ، وعدم التعريف بما لديهم ، بدل الانتظار من المشارقة أن يفعلوا ذلك ، وقرر أن


محمد البشير الابراهيمي

عبد الحميد بن باديس

● إن تأثير مالك بن نبي في المشرق يفوق بكثير تأثير أي كاتب أو مفكر جزائري أو مغربي ظهر في العصر الحديث

المشارقة أنفسهم لن يسرهم هذا الموقف «المتخاذل» الذى كان الأدباء الجزائريون يقفونه من أنفسهم، ومن أدبهم. ونقل عن الزواوي قوله.. «لقد أسرفنا أخيرا فى الاقبال على كل ما يرد علينا من طريق الشرق اسرافا أفقدنا الثقة بأنفسنا. فكل ما يلفظه بريد الشرقيات ينال لدينا كل الاعجاب والتقدير. وان كان لا يحمل الينا بعض الأحيان الا شرورا ومفاسدا وسموما. أما ما يظهر لدينا، وينبت فى حقلنا، فلا يستحق شيئا من ذلك. وما ذنبه إلا ظهوره في ربوعنا، لا في ربوع الشرق».

وقائع طواها النسيان

ويبدو أن الذاكرة المغربية مازالت تعى وقائع طواها النسيان عندنا فى المشرق، وهم يعززون بها مختلف اتهاماتهم للمشارقة، وقد سجل الكتاب جانبا من تلك الوقائع، التى من بينها:

● ما كتبه الشاعر أحمد شوقى عن الجزائر، بعد زيارة لها فى بداية القرن الحالى، حيث قصدها للاستشفاء ومكث بها أربعين يوما. وكان مما قاله «.. ولا عيب فيها (الجزائر) سوى أنها قد مسخت مسخا، فقد عهدت مساح الأحذية فيها يستنكف النطق بالعربية. وإذا خاطبته بها، لا يجيبك إلا بالفرنسوية».

فقد أثارت تلك الكلمات استياء الجزائريين، ومازالت، حتى أن الشيخ عبد الحميد بن باديس فقيه الجزائر الكبير، رد على مقولة شوقى فى خطبة ألقاها بمناسبة احياء ذكرى وفاته فى ٢٧ شوال ١٣٥١ هـ، وقال أمام حشد من الناس اجتمع بنادى الترقى فى العاصمة الجزائرية».. فاعجبوا للاستدلال على حال أمة بمساح الأحذية.. ألا ان فقيدنا العزيز لو رأى من عالم الغيب حفلنا هذا، لكان له فى الجزائر رأى آخر.. ولعلم أن الأمة التى أنجبتها العرب لا تستطيع، ولن تستطيع أن تمسخها الأيام، ونوائب الأيام».

● ما نشره الكاتب المصرى سلامة موسى فى عام ١٩٣٠، بعد زيارة قام بها للجزائر، عاد بعدها يقول: «اننا لا نجد فى الجزائر أية حركة وطنية، بينما نجد فى الهند حركة وطنية هى غاية فى القوة. وذلك لأن الفرنسيين قتلوا الروح الوطنية فى الجزائر بمقاومة اللغة!».. ومما قاله سلامة موسى فى مقاله أيضا إنه «ليس بالجزائر أية نهضة، ليس فيها نهضة للاستقلال، أو لاحياء القومية، أو أى نهضة أخرى ثقافية.. فالشباب المتعلم هناك واحد من اثنين، فهو إما فرنسى اللغة والثقافة لا يعرف من العربية غير الألفاظ التى يتكلم بها فى البيت.. وإما عربى اللغة والثقافة

قد تعلم في معهد يشبه المعاهد الدينية عندنا ، يقرأ الكتب القديمة ، ولا يتصل بالحضارة الحديثة بأي نسب .. وهو يعيش في انزواء عن العالم الحاضر ، يؤمن بحجاب المرأة ، ويقاطع كل شيء أوروبي ، فيبقى مهزوما طول حياته » .

ومؤلف الكتاب يعبر عن دهشته وبالغ سخطه وانكاره لكلام سلامه موسى . وهو يسوق عديدا من الشواهد التى يدلل بها عن فساد رأي الكاتب المصرى ، حتى يتهمه بسوء النية و التشفي « في الجزائر ومثقفيها » .

« يلتقط المؤلف أخطاء لبعض المشارقة في كتابة أسماء المدن الكبرى في الجزائر ، حتى يصف تلك الأخطاء بأنها « من مظاهر العجمة » فيذكر أن بعض الجغرافيين المشارقة كتبوا وهـران على أنـهـا أوران ، وقسنطينه ، قسنطين . مع أن الكلمتين ذكرتا في الموسوعات العربيـة القديـمة باسميـهمـا العربيين الحقيقيين ، كما فعل ياقوت الحموى صاحب معجم البلدان . حتى تساءل المؤلف دهشا : كيف يعنى المشارقة القدامى بنا ، أفضل مما يعنى أخواننا المعاصرون لنا ؟ !

« أخذ الأديب فرحات الدراجي على صحافة المشرق أنها لما أهديت سجل جمعية العلماء الجزائريين في سنة ١٩٣٥ وهو وثيقة لها قيمة ثقافية ونضالية كبيرة ـ فإن هذه الصحف لم تلتفت إليه » « ولم تتفضل عليه بكتابة كلمة ، اللهم إلا كلمة هزيلة جادت بها مجلة السياسة الأسبوعية » .

وفي مقاله « كلمة عتاب الى اخواننا الشرقيين » ، انتقد الدراجي موقف مجلة الرسالة وصاحبها الأستاذ أحمد حسن الزيات ، لأنها تجاهلت السجل .. ونعى عليه أنه كان يعنى « بالكتابة عن راقصات أوروبا ، ويفتح صدر رسالته الى الكتابة عن كلب العقاد ، وسنُّور المازني » !

ظاهـرة عدوانية ؟!

بعد سرد أمثال تلك الوقائع ، يقول المؤلف ان تجاهل المشارقة للمغرب ، استمر حتى بعد استقلال الجزائر في عام ١٩٦٢ ، واستدل على ذلك بشواهد أخرى منها :

« ما ذكرته « الموسوعة الميسرة » ، التى صدرت بالقاهرة سنة ١٩٦٥ ، وتعرضت فيه للصحافة الجزائرية ، فلم تكتب سوى ستة أسطر فقط ، « والأسوأ من ذلك والأقبح ـ يقول المؤلف ـ أن حضرة كاتب السطور الستة كان يجـهل في الحقيقة كل شيء في هذه الصحافة ، إذ أشار الى مجلتين احداها أصدرها الجيش الاستعماري الفرنسي ، والأخرى لم يسمع بها أحد من الجزائريين . في حين ذكر أن جريدة المجاهد الناطقة باسم الدولة والحزب ـ تطبع في تونس ـ وكان مجموع المطبوعات الصحفية التى تضمنتها « الفقرة » ، سبعا فقط ، بينما صدرت في الجزائر خلال الفترة ما بين ١٩١٣ و١٩٥٦ ، حوالي خمسين صحيفة ومجلة باللغة العربية وحدها ، وعلق مؤلف الكتاب على ذلك بقوله : « وإنا لا ندرى أهي حملة مقصودة ، أم هو جـهل على الحقيقـة ، وكلا الأمـرين مرفوض » ؟!

« مثل هذه الظاهرة العدوانية ـ يضيف المؤلف ـ تكررت تارة أخرى في « معجم المعارف » للويس معلوف وأصحابه . فقد خصص المعجم حيزا للحديث عن الصحافة العربية ، وأفاض في التفصيل عن صحافة المشرق ، بينما لم يذكر صحيفة واحدة من الجزائر ، وإن اشار الى صحف قليلة في بلدان المغرب العربي ، في حين أن الجزائر عرفت في القرن الأخير ٩٠ دورية .

« كذلك فعل الأستاذ أحمد أمين في مؤلفه « زعماء الأصلاح » ، فلم يذكر أحدا من الجزائريين ، بل إن كتاب الأغاني حين يشيرون الى الدول العربية ، فانهم يسقطون اسم الجزائر ، فضلا عن أن الكتاب المشارقة إذا ما تعرضوا للأدب العربي المعاصر ، فإنهم يعنون لبنان وسوريا ومصر ، دون أية اشارة الى المغرب .

« أما الدكتور طه حسين ، فإنه لم يشر الى الأدب الجزائرى إلا مرة واحدة ، عندما أهداه مولود معمري روايته « الوجوه المنسية » . وفي حين قال الدكتور طه حسين في تقديمه للرواية إن العناية باللغة العربية لا تكاد تذكر في الجزائر ، فإن أول رواية عربية جزائرية كانت قد صدرت (غادة أم القرى لأحمد رضا حوحو ، كما كانت محاولات قصصية ومسرحية كثيرة تروج في سوق الأدب الجزائرى . وفضلا عن ذلك فان طه حسين عندما تحدث عن الكاتب الفرنسي البير كامي ، فإنه قال كلاما يفهم منه أنه كان جزائريا « وغلبت عليه الفرنسية » .

يعقب مؤلف الكتاب على مجمل تلك الوقائع بقوله إنه « يمكن لهذا العتاب أن تطول أذياله وتتعدد أشكاله .. ولكن لا يفضى إلا الى شيء واحد ، لا ثاني له ، هو اهمال المشارقة لنا ولأدبنا ، من حيث يشعرون ، أو من حيث لا يشعرون » ، ثم أضاف إنه سئل في حديث صحفي : ما علة عزوف المشارقة عن أدب المغاربة ؟ .. فأجاب « ان ذلك يعود الى مركز العلو لدى المشارقة ، ومركب النقص لدى المغاربة ، من حيث يجب أن تزول هذه النظرة » .


طه حسين

من محمد عبده الى الشوا

لا يغفل المؤلف الزيارات التى تمت بين المشرق والمغرب ، على الصعيد الثقافي . فهو يذكر رحلة الامام محمد عبده الى الجزائر وقسطينة في سنة ١٩٠٣ ، والصدى الكبير الذى أحدثته زيارته ، اضافة الى كتاباته في المنار والعروة الوثقى ، التى كانت لها مكانتها بين مثقفي المغرب حتى أن الشيخ البشير الابراهيمي اعتبر أحاديث الأستاذ الامام من العوامل الكبرى التى أسهمت في قيام الحركة الاصلاحية بالجزائر .

وهو يتحدث عن الحماس والترحيب الذى قوبلت به زيارة فرقة جورج أبيض ـ المصرية ـ للجزائر في عام ١٩٢١ ، حيث قدمت مسرحيتين باللغة الفصحى (شهامة العرب ـ وصلاح الدين الأيوبى) . وتولى الأمير خالد ، حفيد الأمير عبدالقادر ، الدعاية بنفسه لعرض ثالث قدمته الفرقة بالعاصمة بعنوان مجنون ليلى ، حتى أنه قام ببيع ٧٠٠ تذكرة لصالح الفرقة . وأفضت تلك الزيارة الى تكوين أول فرقة تمثيل في تاريخ المسرح الجزائرى ، عرفت باسم (جمعية الآداب والتمثيل العربى) .

في العام ذاته ـ ١٩٢٢ ـ زارت الجزائر « فرقة عز الدين » المسرحية المصرية ، التى حققت نجاحا ، واستقبلت بحرارة بالغة ، خاصة وإن عروضها كانت مطعمة بالأغاني والمواويل الشرقية ، التى لقيت استحسانا وإقبالا من الجزائريين .

مر المؤلف سريعا على زيارة الشاعر أحمد شوقي التى قال عنها إنها لم تؤت أكلا طيبا .

ثم أشار إلى زيارة قامت بها الفنانة المصرية فاطمة رشدى سنة ١٩٣٢ ، كانت خلالها موضع حفاوة الجزائريين .

فى العام ذاته (١٩٣٢) زار الجزائر سامى الشوا ، الموسيقار المصرى المعروف ، الذى لقى بدوره استقبالا حافلا ، إذ اقام له الأدباء الجزائريون احتفالا كبيرا . وكان ممن تحدث فيه أحمد توفيق المدنى ــ المؤرخ المعروف ــ حيث دعاه إلى أن يتعرف بموضوعية على المجتمع الجزائرى . مؤكدا أن الجزائريين لا يزالون محافظين على قوميتهم وكرامتهم وعروبيتهم ، على نقيض ما كان يتهمهم به المشارقة (مشيرا إلى ما كتبه سلامة موسى) كما تحدث فى الحفل الكاتب العام لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، الأمين العمودى ، الذى قال إن تكريم الفن العربى ، إنما هو اسهام فى احياء الأمة العربية .

ويبدو أن الفنان المصرى يوسف وهبى قام بعدة زيارات للجزائر فى أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات غير أن المؤلف توفرت له مادة جيدة عن زيارة له فى سنة ١٩٥٠ ، على رأس فرقته التى ضمت حوالى ٤٠ شخصا ، وكان يساعده الفنان زكى طليمات . وقد وصف صدى تلك الزيارة بقوله إن استقبالات يوسف وهبى ، جاوزت الطور الذى يمكن أن تستقبل به فرقة مسرحية ضيف ، إلى إقامة الاحتفالات الضخمة التى تشبه احتفالات الاعياد .

وقد كان فريد الاطرش ، ابرز فنان عربى زار الجزائر بعد يوسف وهبى . غير أن أهم زيارة تمت للجزائر فى سنة ١٩٥٠ ، قام بها وفد صحفى مصرى مكون من ١١ شخصا ، كان فى مقدمتهم عزيز ميرزا رئيس تحرير الاهرام ، وحبيب جاماتى عن الهلال ، وانطون نجيب رئيس تحرير المقطم ، والدكتور عبد الحميد يونس الذى كان ممثلا لكلية الآداب جامعة القاهرة (فؤاد الأول وقتذاك) . وكان لتلك الرحلة أثرها البعيد ، فى أوساط الحركة الوطنية بقدر ما كان لها أثرها السلبى على صعيد السلطة الاستعمارية الحاكمة .

لماذا تجاهل بن نبي ؟

من ناحية أخرى ، فإن المؤلف رصد أهم رحلات قامت بها الشخصيات الجزائرية الى المشرق من بداية القرن ، وحتى الاستقلال ، وركز على طمس شخصيات هى :

- الشيخ حمدان الونيسى المعلم والفقيه ، وأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس ، الذى هاجر إلى الحجاز ، احتجاجا على السياسة الاستعمارية بالجزائر ، وبقى فيها إلى أن توفاه الله .
- الشيخ عبد الحميد بن باديس المجدد ورئيس جمعية العلماء الجزائريين ، الذى قام بجولة فى الحجاز والشام ومصر ، التقى خلالها بعلماء ومثقفى تلك الأقطار ، ثم عاد إلى بلاده .
- الشيخ محمد البشير الابراهيمى ، الفقيه والأديب الكبير ، الذى نزح إلى الحجاز والشام والخليج ومصر ، معلما ومحاضرا ، ومعرفا بالقضية الجزائرية ، وداعيا إلى استقلال بلاده .
- الفضيل الورتلانى ، من أبرز المثقفين الجزائريين ، وقد زار أكثر دول أوربا ، ثم ركز نشاطه فى المشرق ، وأقام فى القاهرة سنة ١٩٣٨ ، حيث أسهم فى انشاء العديد من المنظمات للدفاع عن حقوق شعوب المغرب العربى ضد الاستعمار الفرنسى .
- أحمد رضا حوحو وهو من أبرز الأدباء الجزائريين الذين نزحوا الى المدينة المنورة للدراسة ، وزار مصر فى طريقه ، ونشر فى مجلاتها وواصل كتابة القصة القصيرة فى مجلة المنهل المكية وكان لرحلته المشرقية تأثيرها على نتاجه الأدبى ، حتى أن قصته ، غادة أم القرى ، التى طبعها فى تونس سنة ١٩٤٧ ، كانت تتحدث أساسا عن المجتمع الحجازى ومن آثار زيارته لمصر ، كتابه « مع حمار الحكيم » ، الذى ألفه بعد قراءة كتاب الاستاذ توفيق الحكيم ، حمارى قال لى . . .

غير أن الصورة التى رسمها المؤلف لحركة الشخصيات الجزائرية ينقصها أمران : أولهما أنه لم يشر إلى الاسهام الذى قام به الفضيل الورتلانى فى ثورة اليمن عام ١٩٤٨ . وكان للرجل دوره الأساسى فى تجميع قوى الثورة وتحريكها . وثانيهما أنه تجاهل تماما رحلة مالك بن نبى المشرقية . واستقراره فى القاهرة عام ١٩٥٦ ، حيث أصدر منها بعضا من أهم كتبه ، التى أحدثت تأثيرا لا ينكر فى فكر الحركة الاسلامية منذ الخمسينيات وإلى الآن . وقد لا نبالغ كثيرا إذا ما قلنا ان تأثير مالك بن نبى فى المشرق يفوق بكثير تأثير أى كاتب أو مفكر جزائرى أو مغربى ــ آخر ظهر فى العصر الحديث .

محمد عبده

حتى نسد الثغرات

لا نريد أن نخوض فى تقييم الكتاب ، حتى لا يطول بنا الكلام . مكتفين بأهمية القضية التى يثيرها ، واللهجة التى يتحدث بها عن المشارقة ، التى لم تخل من شطط فى بعض المواضع ، بالأخص اشاراته إلى سوء النية الذى نسب إلى بعض المشارقة .

وإذ نتفق تماما فى أن تجاهل المغرب ثقافيا يظل خطأ فادحا وجسيما بكل المعايير ، فإننا لا نؤيد مقولة « الاستعلاء » المنسوبة إلى المشارقة . وبنفس القدر ، فإننا لا نؤيد ما يذهب إليه بعض المشارقة عندما يردون التهمة ذاتها إلى المغاربة ، الذين يحسب بعضهم أن اتصالهم بالثقافة الفرنسية أعطاهم رصيدا من التفوق لم يبلغه غيرهم من أهل المشرق .

وإذ نحمد الله أن جسور الاتصال الثقافى باتت الآن أقوى وأمتن ، فإننا نرجو أن يتحقق اليوم الذى نتجاوز فيه تصنيف « المغاربة » و« المشارقة » ، بحيث ننطلق من مفهوم الأمة الواحدة ، ليصب الجميع عطاءهم بغير حساسية ، فى المجرى الثقافى الواحد .

ولعلنا ونحن ننطلق فى هذا السعى ، نصحح خطأ آخر وقعنا فيه ونحن نقرأ التاريخ الاسلامى . ذلك اننا نكاد نقف فى قراءة التاريخ عند العصر العباسى الثانى ، بعد أن نبدأ بالعصر الراشدى ، وننتقل إلى الأموى . بحيث يبدو أن التاريخ الاسلامى هو تاريخ المشرق وحده . الأمر الذى غيب عن العقل العربى صفحات كثيرة من التاريخ ، سجلت فى المغرب ، وفى آسيا ، وفى أفريقيا . وقد لا نبالغ إذا قلنا إن أكثر خريجى جامعاتنا يقفون بمعارفهم عند الحدود التى ذكرناها ، وإنهم لا يعرفون شيئا ــ مثلا ــ عن الأدارسة أو الأغالبة ، أو المرابطين والموحدين ، فى منطقة المغرب .

ان جهدا كبيرا يجب أن يبذل لنقوّم مسارنا الثقافى بحيث نسد ما يعتوره من ثغرات ، ونعالج ما يتصل به من جراح وحساسيات .

فهمى هويدى

التراث

منارة تهدي.. وليس قيدًا يعوق!

بقلم: الدكتور يوسف القرضاوي

في ديارنا فئة تخلع على نفسها رداء (التقدمية) وهي بإسمها تريد أن تنسلخ من تراثها، وتبرأ من ماضيها، كأنما هي مبتوتة الجذور، ليس لها تاريخ. كل حديثها عن اليوم والغد كأن الزمن ليس فيه (أمس)! وكأن اللغة ليس فيها (فعل ماض)! وكأن الله لم يخلق الانسان مزودا بذاكرة تستوعب أحداث الماضي، كما خلق له مخيلة تستشف المستقبل!!

وعيب هؤلاء (التقدميين) فيما يزعمون أنهم يجهلون تراثهم ولا يعرفون عنه إلا قشوراً، أو أجزاء متناثرة مشوشة. كثيرا ما أخذوها عن مراجع استشراقية. أو عن مراجع غير موثقة، أو عن مراجع لا يفهمون لغتها، ولا يميزون بين المقبول فيها والمردود.

وكان الأولى بهؤلاء ــ وهم ينتمون الى فئة المثقفين ــ أن يبذلوا بعض الجهد في دراسة تراثهم، ومعرفة هذا الدين الذى ورثوه عن أهليهم، كما تورث العقارات! والذي أدخل هذه الأمة التاريخ من أوسع أبوابه. وصنع لها حضارة بزت الحضارات، ومن أوليات الثقافة أن يدرس المرء المكونات الأساسية لشخصية أمته، وأولها الدين المؤثر الأول في تفكيرها ووجدانها وسلوكها. على أن يعرف ذلك من منابعه الصافية. ومن مصادره الموثقة لا من مراجع خصومه أو المتحاملين عليه، أو الجاهلين به.

لقد جهل هؤلاء تراثهم ــ والدين جزء منه ــ فخافوه وعادوه. وقديما قالوا: من جهل شيئاً عاداه. وهذا ما ذكره القرآن عن موقف المشركين من الاسلام فقال: «بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله» (سورة يونس).

كما أنهم قرأوا عن الغربيين أنهم لم ينهضوا إلاّ بعد أن تحرروا من تراثهم، وفكوا عن رقابهم ربقة الماضى بما فيه من عوائق وأغلال. ومن ذلك تحررهم من ربقة الدين، وسيطرة رجاله الذين باركوا ظلم الملوك، وتسلط الاقطاع، وأقاموا محاكم التفتيش لتعذيب العلماء والمفكرين.

وحسب هؤلاء أن ماضينا كماضيهم. وتراثنا كتراثهم، وأن لدينا كنيسة مثل كنيستهم وكهنوتا مثل كهنوتهم، وأن عندنا من يصدر قرارات الحرمان، أو من يبيع صكوك الغفران!

وان من أظلم الظلم أن يؤخذ الاسلام فى الشرق، بجرائم الكنيسة فى الغرب، وأن يقاس تاريخنا على تاريخ القوم هناك، وأن يحكم بالاعدام على تراثنا من أجل جناية تراث آخر لقوم آخرين.

ثم إن هؤلاء يتوهمون أن الرجوع الى التراث يجعلنا سجناء الماضى، يضع قيدا على حركتنا وانطلاقنا إلى الامام.

والواقع أن تراثنا ليس ــ كما تصوره هؤلاء ــ قيدا فى الأرجل، أو غلا فى الأعناق، إنما هو منارة تهدى، ونور يضيء.

خصائص تراثنا

إن التراث الذي ندعو إليه ليس تراث أمة بدائية أو جماعة خرافية، وليس تراثا مغلقا ولا متعصبا، بل هو تراث رسالة خالدة، وحضارة ضخمة، وأمة كبرى.. تراث أمة عالمية، جمعت بين العلم والايمان، ووصلت الأرض بالسماء. تراث يتسم بهذه الخصائص، التى لا تخفى على دارس متعمق منصف، مسلما كان أم غير مسلم:

اولا ــ الانسانية: فهو ــ وان كتب

بالعربية . وانطلق من المفاهيم والقيم الاسلامية ــ تراث انسانى . يهدف الى تحرير الانسان . ويعمل على كرامة الانسان . كل انسان ، ويطالب له بالحقوق ، كما يطالبه بالواجبات . يحفظ له حريته المدنية ، كما يحفظ له حريته الدينية « لا إكراه فى الدين » : شعاره : « ولقد كرمنا بنى آدم » :

ثانيا ــ الاخلاقية : فهو تراث يؤمن بالقيم ، فى كل جوانبه . فقها كان أو أدباً أو علماً أو فناً . أو عمارة وحضارة ، ولا يؤمن بفصل الأخلاق عن العلم . ولا عن الفن ولا عن السياسة ، ولا عن الاقتصاد ، ولا عن الحرب . فهو تراث يعبر عن رسالة هدفها أن تتمم مكارم الاخلاق .

ثالثا ــ التكامل : فهو يجمع بين أحكام الوحى الإلهى ونتاج العقل البشرى ، وفى ظله التقى العلم والايمان ، وامتزجت الدنيا بالدين ، واتصلت الشريعة بالحكمة ، ولم ينفصم قلب عن فكر . ولا روح عن مادة ، ولا دين عن دولة ، ولا أدب عن علم ، ولا عقل عن نقل .

رابعا ــ التوازن : فهو تراث وسط لأمة وسط ، لا يقف فى طرف ضد طرف . فهو ليس تراث المثاليين ضد الواقعيين ، ولا الواقعيين ضد المثاليين . وليس تراث الروحيين وحدهم ، ولا الماديين وحدهم ــ إنه تراث التوازن بين المثالية والواقعية ، بين الروحية والمادية ، بين الفردية والجماعية . فهو فى أسسه وأصوله يمثل وسطية الاسلام .

خامسا ــ التنوع : فهو تراث دينى ودنيوى . فقهى وصوفى . علمى وأدبى . فلسفى وتطبيقى وفنى وعمرانى . نجد فيه فقه الشافعى ، ورواية البخارى ، وتفسير الطبرى ، وكلام الأشعرى ، ومعجم الخليل ، ونحو سيبويه ، وأدب الجاحظ ، وشعر المتنبى ، وفلسفة ابن رشد ، وتصوف الغزالى ، وطب ابن سينا ، وفيزياء ابن الهيثم ، وألحان الموصلى ، وخط ابن مقلة ، وتحليل ابن خلدون ، جنبا الى جنب .

سادسا ــ التسامح : فهو وإن كان تراثاً اسلامياً ــ أنتجته العقول الاسلامية بدوافع إسلامية ، على أرض إسلامية ــ يتسع لكل الأديان ، ويؤمن بكل الكتب التى أنزلها الله ، وبكل الرسل الذين بعثهم الله . كما يؤمن بأن اختلاف الناس واقع بإرادة الله . وسيحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ولا غرو أن شاركت فيه فئات من غير المسلمين . وسعتهم دار الاسلام ، وحضارة الاسلام .

سابعا : المرونة : فهو ــ برغم أصوله الدينية ، وجذوره الأخلاقية ــ قادر على مواجهة التطور ، وفيه من الثراء والخصوبة الداخلية ما يجعله صالحاً للنماء والتجدد الذاتى ــ جامعاً بين الثبات على الأصول والغايات ، والمرونة فى الفروع والوسائل .

وأحب أن أبين هنا أننا ــ نحن دعاة الحل الاسلامى ــ لا ندعو إلى تقديس التراث كله ، وأخذه بعُجَره وبُجَره ، وصوابه وخطئه . ولهذا كان لابد لنا من تحديد معنى « التراث » .

فكلمة « التراث » تشمل مجالين أو مستويين يختلف أحدهما عن الآخر اختلافا كليا وجذريا .

المستوى المعصوم من التراث

المستوى الأول : ما كان مصدره الوحى الإلهى متمثلا فى القرآن الكريم الذى « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » وفيما ثبتت صحته من سنة النبى ﷺ التى هى البيان النظرى والتطبيق العملى للقرآن .

ونعنى بهذا المجال ، ما كان قطعي الثبوت والدلالة من كتاب الله وسنة رسوله ، ولا مجال فيه لاجتهاد أو تفسير . ولذا يعتبر رفضه رفضا للدين نفسه وكان التمرد عليه تمردا على شرع الله جل شأنه .

فهذا لا يسعنا إلا أن نذعن له ، وننقاد إلى حكمه ، راضين مسلمين ، بمقتضى عقد الايمان ، وحكم الاسلام ، وليس لنا أمامه خيار ، إلا إذا راجعنا أصل الايمان ذاته .

وهذا ما يؤكده القرآن بصراحة وقوة فى الكثير من آياته . لنقرأ هذه الآيات : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخِيَرَة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » سورة الأحزاب .

« إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا : سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون » سورة النور .

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرَجاً مما قضيت ويسلِّموا تسليما » سورة النساء .

وهذا الجانب من التراث هو الذى يمثل فلسفة النظام ، وأساس مشروعيته العليا ويحدد اطاره وأسسه العامة ، واتجاهاته الأساسية فى مختلف جوانب الحياة .

وتسمية هذا الجانب (تراثا) من باب التساهل والاتساع فى التعبير . والا فإن الاسلام ليس تراثاً ولا ماضياً ، إنه الماضى والحاضر والمستقبل . وهو رسالة الله العامة الخالدة التى تخاطب الانسان وتهديه فى كل زمان ومكان .

المستوى البشرى من التراث

والمستوى الآخر من التراث هو المستوى البشرى ، وهو يمثل عمل العقل الانسانى فى فهم الجانب الإلهى المعصوم من التراث ، وفى شرحه وتفسيره ، والاستنباط منه ، وفى تطبيقه وتنفيذه ، وفى شتى جوانب الحياة العقلية والأدبية والحضارية . وهذا المستوى يضم كل علوم الدين من التفسير وعلوم القرآن وعلوم الحديث والفقه وأصوله . وعلم التوحيد . والتصوف .. فهذا الجانب من التراث له أهميته ومكانته الخاصة لاتصاله بعقيدة الأمة ، وسر وجودها ، ووحى الله إليها . كما يشمل علوم العربية وآدابها وهى خادمة لعلوم الدين ووسيلة لفهمها .

ويشمل أيضا العلوم العقلية وما يتعلق بها ، والعلوم الكونية من الطب والكيمياء والفيزياء والرياضيات ونحوها . والعلوم المتعلقة بالفن والجمال والتعبير عنه .

فهذه كلها ــ على تفاوت مراتبها ــ تراث إسلامى . وهى ــ على كل حال ــ إنتاج عقول لم تضمن لها العصمة من خالقها ، ففيها الصواب والخطأ ، وفيها الحق والباطل ، وفيها الجد والهزل ، وفيها الثمين والغث .

وموقفنا هنا هو موقف الانتقاء والاختيار . وهذا يعنى قبول التراث ــ وبخاصة ما يتعلق بالدين والعربية منه ــ فى جملته لا فى تفصيلاته ، فى مجموعه لا فى جميعه ، وبعد هذا القبول والتسليم العام تبدأ عملية الانتقاء والاختيار .

والانتقاء هنا ليس عملا عشوائيا تأتى به

التراث

منارة تهدي.. وليس قيداً يعوق!

المصادفات . والاختيار ليس اختيار تشهٍّ أو هوى ، تحكمه الانفعالات العاطفية أو المواقف الشخصية ، بل هو عمل عقلي يستند إلى موازين علمية وإلى أدلة من اصول الشرع ، ومصالح الأمة ، وحاجات العصر .

وليس من حق أحد ولا فئة ولا مدرسة أن تفرض علينا فكرة أو رأياً أو حكماً ـ معيناً ـ مما حفل به التراث الفنى ، وأن تضرب بغيره عرض الحائط .

فموقف كل عالم أو مفكر هنا هو موقف أبى حنيفه رضي الله عنه حين قال في شأن من سبقه ومن عاصره من علماء التابعين : هم رجال ونحن رجال !

وهو موقف ابن القيم رحمه الله حين شرح رسالة شيخ الاسلام اسماعيل الهروى الأنصارى في التصوف « منازل السائرين إلى مقامات « إياك نعبد وإياك نستعين » وكان الهروى حنبليا موافقا لابن القيم في مشربه السلفي في الأسماء والصفات . ولكنه خالفه وانتقده في جملة مواضع من كتابه « مدارج السالكين » ، فلما سئل في ذلك قال : شيخ الاسلام حبيب إلينا ، ولكن الحق أحب إلينا منه ! !

قد يكون هذا الرأى الذى نتبناه لإمام مشهور أو لعالم مغمور ، فلن تزيده شهرة الأول ، ولا ينقصه خمول الآخر ، وقد قال الامام على رضى الله عنه : لا تعرف الحق بالرجال ، إعرف الحق تعرف أهله .

وقد يكون هذا الرأى الذى ننتقي ونختار من الآراء المهجورة ، مما طوته بطون الكتب ، ومما اعتُبر في عصره شاذاً أو متروكاً . فلا جناح علينا أن ننشر المهجور ونحيي المقبور .

فرب ملابسات جدت ، ووقائع نزلت ، وأعراف تغيرت ، جعلت الضعيف يقوى والمتروك يظهر ، والشاذ يصبح هو الموافق والملائم .

وها هو شيخ الاسلام ابن تيمية وتلاميذه : ابن القيم وابن عبد الهادى وغيرهما يحيون آراء في فقه الشريعة ـ وخصوصاً في الطلاق وشئون الأسرة ـ كانت تعد قبلهم شاذة ، وقد هجرت حتى ماتت ، فما زالوا يجادلون عنها باللسان والقلم ، في دروسهم وفي كتبهم ورسائلهم ، وفتاويهم ، حتى حييت بعد موات ، واستعلنت بعد اختفاء .

وقد اتهم العلماء المقلدون والجامدون الشيخ في زمنه بأنه خرج عن المذاهب الأربعة ، وخرق الاجماع السابق ، وكادوا له عند ذوي السلطة حتى أدخل السجن أكثر من مرة من أجل رأيه ، ومات رضي الله عنه في سجنه .

وها نحن اليوم في كثير من أنحاء العالم الإسلامى نختار ما اختاره ، ونرجح ما رجحه في عدم وقوع طلاق الغضبان ، والطلاق الذى يراد به الحمل على شيء ، أو المنع منه ، وفي وقوع طلاق الثلاث بلفظ واحد أو في مجلس واحد طلقة واحدة ، وغير ذلك من الاجتهادات والاختيارات .

ومن ثم ينبغى أن نبحث عن أجود الآراء ، وأقوم الأفكار ، وأصح المعلومات وأجمل التعبيرات ، حيثما وجدناها في تراثنا العريض .

عبقريات في عصور التخلف

قد نجد الرأى الجيد ، والفكرة الصالحة ، والتعبير الجميل ، في خير قرون هذه الأمة ، في فجر الاسلام ، في عصر الصحابة والتابعين لهم بإحسان .. في العصر الأموى أو العباسى .. في العصور الذهبية للحضارة الاسلامية أو في عصور التخلف والركود ذاتها على ما بها من علل وأوصاب . فما من عصر من هذه العصور إلا طلعت في سمائه كواكب تضيء وتسطع وتبهر الأبصار .

ومن ذا الذى يجهل مثل أبى اسحاق الشاطبى (ت ٧٩٠ هـ) وتجديده في أصول الفقه ؟ وابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) وتجديده في فلسفة التاريخ والاجتماع ؟ ، وابن الوزير (ت ٨٤٠ هـ) وتجديده في علوم العقيدة والسنة ؟ وابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ) ، وخدمته لعلوم الحديث والرجال ، ووقوفه حكما بين المذاهب ؟ والسيوطى (ت ٩١١ هـ) وخدمته لعلوم الدين واللغة والتاريخ ودعوته للاجتهاد المطلق ؟ والدهلوى (ت ١١٧٦ هـ) وتجديده في الحديث والفقه وبيان اسرار الشريعة ؟ والصنعانى (ت ١١٨٢ هـ) صاحب « سبل السلام » واجتهاداته واستقلاله في الفقه واتباع الدليل والتفقه على القرآن والحديث ؟ والشوكانى (ت ١٢٨٥ هـ) وتجديده في الفقه والاصول وبناء فقه قائم على الدليل لا على التقليد ؟ وصديق حسن خان (ت ١٣٠٧ هـ) تلميذ كتب الشوكانى ، والسائر على دربه في الاجتهاد والترجيح ؟ .

بل أقول : قد تكون الفكرة أو الحكمة أو الكلمة من شعر أمرىء القيس ، أو زهير بن أبى سلمى ، أو عنترة العبسى ، فلا يمنعنا أن نتمثل بها أنهم من أهل الجاهلية فالجاهلى قد يوفق فينطق بالحكمة ، كما أن المسلم قد يزيغ فيتكلم بالباطل والنبى ﷺ قال : « أصدق كلمة قالها شاعر ، كلمة لبيد » :

« ألا كل شيء خلا الله باطل ! »

وقد قالها في جاهليته قبل أن يسلم .

ومن منا لا يتمثل بقول امرىء القيس :

وحسبك من غنى شبعٌ وريُّ !

أو بقول زهير :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة
وإن خالها تخفى على الناس تعلم

أو بقول السموءل ، وهو يهودي جاهلى :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه
فكل رداء يرتديه جميل

وأبو نواس على مجونه كم استشهد العلماء والمربون والمتصوفة بأبيات له مثل قوله :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت
له من عدو في ثياب صديق

وما الناس الا هالك وابن هالك
وذو نسب في الهالكين عريق

ومثل ذلك بشار بن بُرد ، على ما اتهم به من الزندقة ، من ذا الذى لا يروى قوله :

إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى
ظمئت ، وأى الناس تصفو مشاربه ؟

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها
كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه !

الاستفادة من كل المدارس الفكرية

كما أحب أن أوكد هنا : أن اختلاف المذاهب أو المدارس الفقهية أو الكلامية لا يمنع من الاستفادة مما عند الآخرين ، فالحق لا يشتمل عليه مذهب واحد ، ولا مدرسة واحدة .

وخطأ انسان فى ناحية لا يعنى إلغاء نواحيه الايجابية الأخرى .

وقد رأينا علماء أهل السنة جميعها يستفيدون من « تفسير الكشاف » للزمخشرى ، وينقلون عنه وهو معتزلى صريح فى اعتزاله . ولا يدع مناسبة يؤيد فيها مذهبه إلا فعل ومع هذا أخذ منه كل من بعده من المفسرين : الرازى والبيضاوى والنسفى وغيرهم .

ولم يمنعهم ذلك أن يردوا عليه أو يتعقبوه فى مؤلفاتهم « التفسيرية » أو غيرها أو فى مؤلف خاص كما فعل ابن المنير فى كتابه « الانتصاف من الكشاف » وهو مطبوع على هامش الكشاف .

وابن حجر خرّج أحاديثه وبيّن مقبولها من مردودها فى كتاب سماه « الكافى الشاف فى تخريج الكشاف » وقد سبقه إلى ذلك العلامة جمال الدين الزيلعى صاحب (نصب الراية لأحاديث الهداية) .

وابن تيمية وابن القيم استفادا من بعض ما كتبه المعتزلة فى الحسن والقبح وأفعال العباد ونحوها . وأخذا ببعضه . ولم يسلما بكل ما قاله الأشاعرة هنا . بل أخذوا منهم وردوا عليهم .

وفى هذا المعنى يقول ابن القيم :

« وأرباب هذه المذاهب مع كل طائفة منهم خطأ وصواب . وبعضهم أقرب إلى الصواب وبعضهم أقرب إلى الخطأ . وأدلة كل منهم وحججه . إنما تنهض على بطلان خطأ الطائفة الأخرى . لا على إبطال ما أصابوا فيه .. وأهل السنة وحزب الرسول ، لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء ، بل هم مع هؤلاء فيما أصابوا فيه ، وهم مع أولئك فيما أصابوا فيه . فكل حق مع طائفة . فهم يوافقونهم فيه ، وهم براء من باطلهم .. فمذهبهم جمع حق الطوائف بعضه على بعض . والقول به ونصره .. ونفى باطل كل طائفة وكسره ... الخ[1] . أ هـ .

وهذا يقتضى منا أن نعمل على إحياء التراث ، ونشر كنوزه نشرا علميا عصريا محققا يقرب الانتفاع به ، والاقتباس منه ، وألا ندعه مطموسا مبعثرا فى مكتبات الغرب والشرق ، على حين نفتش على فلسفات وآداب عند هؤلاء وأولئك مما نبت فى أرض غير أرضنا لقوم غير قومنا .

والأولى لمن يملك رصيداً فى مصرف أن ينفق منه أولاً قبل أن يمد يده إلى غيره يسأله صدقة أو هبة أو قرضا ! .

ولا يكفى أن نقف عند نشره وتحقيقه ثم التغني به والمباهاة بأصالته . بل لابد أن نحلله وندرسه دراسة الفاحص الناقد . حتى نكشف عن جواهره ، ونستخرج روائعه . ونستفيد من ايجابياته . ونتفادى سلبياته .

ولابد لنا أن نبني عليه . ونضيف اليه . ونضفى عليه من روحنا ، مما صنعته عقولنا ، ومما عملته أيدينا . حتى يعبر عنا ، ويلبس ثوب عصرنا . ويتجاوب مع حياتنا ومع زماننا ومكاننا وحالنا .

وبهذا نجمع بين الأصالة والمعاصرة حقا . فلا نبخس الماضى ولانجور على الحاضر . فهل ينقم علينا منصف هذا الموقف من تراثنا ؟ أم يراد منا ــ لكى نكون عصريين ــ أن نهيل التراب على الماضى بكل مافيه . ونبدأ من جديد ، من الصفر . بحجة أننا نعيش مع الأحياء لا مع الأموات ؟

فليت شعرى هل تموت الأفكار بموت أصحابها ؟ ان الأشخاص يموتون ، ولكن أفكارهم لاتموت ، ورب فكرة مضت عليها آلاف السنين يأتى من يحييها ويحيي بها أمة بأسرها . ولولا أن اللاحق يكمل مابدأه السابق ، ويبنى على ماأسسه ، ماتقدمت العلوم ، ولا ارتقى العمران . ولا علا صرح الحضارة .

والذين يقولون : دعونا من الأموات لايفتأون يتحدثون عن أموات آخرين مثل ماركس وانجلز ، أو فولتير وروسو ، أو ديكارت وكانت ، أو شكسبير وهوجو ، بل عن سقراط وأفلاطون وارسطو . ويعتبرون أنفسهم مع هذا معاصرين ومجددين !

بين القديم والجديد

ولابد لنا من كلمة هنا حول ماسمى « القديم » و « الجديد » وموقف الناس منهما .. ما القديم ؟ وما الجديد ؟ وما القدم ؟ وما الجدة ؟ ولماذا يرفض بعض الناس القديم لمجرد قدمه ؟ ولماذا يتعلق اخرون بالجديد ويدعون اليه لمجرد جدته ؟؟

والواقع ان قضية القديم والجديد والمفاضلة بينهما قضية شغلت الناس منذ زمن بعيد . فمن الناس من يستمسك بالقديم ويعتز به ولا يحيد عنه ، ولا يفرط فيه ، كأنه يرى فيه أصوله وجذوره الممتدة ، ومنهم من يعشق الجديد بأى جديد ــ ويباهى به ولا يرضى به بديلا ، كأنما يرى فيه فرعه وثماره .

تعظيم السابقين للقديم

ولقد كان الناس منذ عدة قرون يمجدون القديم ، ويباهون به ، فالقديم فى نظرهم يعني الأصالة والعراقة والمجد . والقدماء هم السابقون الى كل خير . المتفوقون فى كل فن ... والمتأخرون عالة عليهم . سواء فى العلم أو الادب أو الفن . وفى الشعر قرأنا قولهم :

ما أرانا نقول الا معاراً
أو معاداً من قولنا مكروراً !

أما الجديد فكان فى حاجة الى ان يثبت وجوده حتى يعترف له بمجاراة القديم وكان النوابغ والعباقرة يحاولون ــ بشتى الوسائل ــ بأن يبرروا نبوغهم ــ كما كان الأوائل قبلهم ، وان تأخر بهم الزمن عنهم . وخصوصا بعد ما شاع قول بعضهم : ماترك الأول للآخر شيئا ! وأنشد بعضهم :

أو ماترى أن النبى محمدا
فاق البرية وهو آخر مرسل ؟!

وأبو العلاء حينما قال فى « لاميته » بيته المشهور :

وانى ــ وان كنت الأخير زمانه
لآت بما لم تستطعه الأوائل !

كان ينفى وهما شائعا . بل اعتقاداً راسخا بأن الأواخر لايمكنهم أن يفوقوا الأوائل ، وأن الجديد عالة دائما على القديم . بل كلامه يدل بوضوح على أن الشاعر الفيلسوف نفسه يؤمن بأن هذا هو الأصل والقاعده . فهو يرى أن المتأخر فى الزمان لايستطيع أن يجارى الأوائل أو يتفوق عليهم ، الا اذا كان ذلك من باب الفلتات والخوارق . فهو نفسه جاء شاذا عن القواعد . خارقا للعوائد . وهذا ما توحى به

الجملة الاعتراضية فى البيت : « وان كنت الأخير زمانه » ولعل ذلك لارتباط القديم حينئذ بعصر النبوة وعهد الراشدين . وامتداد الاسلام . وازدهار حضارته ، وظهور الأئمة الكبار . ونبوغ العباقرة الأفذاذ فى كل علم وفن ، وتفرّد الأمة الاسلامية بالتربع على القمة لعدة قرون .

على حين كان المتأخرون الذين برز نبوغهم . وظهر تفوقهم . فى مجالاتهم العلمية والدينية والأدبية ينتسبون الى عصور التخلف والانحطاط . تلك العصور التى فقدت الاجتهاد فى الشريعة . والابداع فى العلم . والأصالة فى الأدب ، والابتكار فى شتى نواحى الحياة !

وهذا ما جعل نوابغ المتأخرين فى العصور الإسلامية يحاولون أن يقيموا الأدلة لقرائهم من معاصريهم ومن بعدهم ــ على أن تأخر زمانهم لايعنى حرمانهم من الفضل الذى أحرزه السابقون من قبلهم .

نقرأ فى خطبة (القاموس) للعلامة الفيروزابادى هذا المعنى فى قوله :

« ولكنى أقول كما قال أبو العباس المبرد فى (الكامل) وهو القائل المحق : ليس لقدم العهد يفضل القائل (أي المخطىء) ولا لحدثانه يهتضم المصيب . ولكن يعطى كل مايستحق » .

قال العلامة الزبيدى شارحه :

ومثل هذا الكلام فى خطبة (التسهيل) مانصه : واذا كانت العلوم منحاً إلهية ومواهب اختصاصية . فغير مستبعد أن يدخر لبعض المتأخرين ما عسر على كثير من المتقدمين . قال الزبيدى : والمعنى : أن تقدم الزمان وتأخره ليست له فضيلة فى نفسه لأن الأزمان كلها متساوية . وانما المعتبر الرجال الموجودون فى تلك الأزمان فالمصيب فى رأيه ونقله ونقده لايضره تأخر زمانه الذى أظهره الله فيه ، والمخطئ الفاسد الرأى ، الفاسد الفهم ، لاينفعه تقدم زمانه . وانما المعاصرة كما قيل حجاب . والتقليد المحض وبال على صاحبه وعذاب .

أنشدنا شيخنا الأديب : عبدالله بن عبدالله بن سلامة المؤذن :

قل لمن لايرى المعاصر شيئاً
ويرى للأوائل التقديما
ان ذاك القديم كان حديثا
وسيمسي هذا الحديث قديما !

وأنشدنى أيضا لابن رشيق :

أولع الناس بامتداح القديم
وبذم الجديد غير الذميم
ليس إلا لأنهم حسدوا الحى
ورقّوا على العظام الرميم !

وأنشدنى أيضا :

ترى الفتى ينكر فضل الفتى
خبثاً ولؤماً فاذا ما ذهب
لج به الحرص على نكتة
يكتبها عنه بماء الذهب !

والمراد من ذلك كله النظر بعين الانصاف من المعاصرين وغيرهم . فان الاخلاص والانصاف هو المقصود من العلم (٢) .

وهكذا كان (القديم) هو المنظور اليه بعين الاكبار والتعظيم وكان (الجديد) أو (المتأخر) أو (المعاصر) يجهد كل الجهد كى يقدم المبررات لاثبات وجوده

ظاهرة التعظيم للجديد

أما ظاهرة التعظيم للجديد والتشبث به ، واعتقاد صلاحه ونفعه . والنفور من القديم ، والدعوة الى الاعراض عنه ، فهى ظاهرة جديدة فى الأمة الإسلامية . وهي ثمرة من ثمرات الإستعمار والتأثر بالفكر الغربى ، وبالحضارة الغربية .

ومما أيد هذه النزعة الى تعظيم الجديد ، واحتقار القديم عدة أشياء :

ــان الحضارة الغربية الوافدة كانت فى أوج مجدها ، وقمة انتصاراتها ، عسكرياً وسياسياً وعلمياً ، وقد غلبت على العالم كله تقريبا ، ومنه العالم الاسلامى . وهى ترفع شعارات براقة جذابة مثل الحرية والاخاء والمساواة .

فكانت هى الجديد الذى فتن به من فتن من أبناء المسلمين ، وولعوا بمحاكاته . ولع المغلوب بتقليد الغالب . كما قال ابن خلدون .

ــان حضارتنا كانت فى عصر أفولها وإدبارها . وكان قديمنا ــ عند صدمة اللقاء بالحضارة الغربية المنتصرة ــ موسوما فى أذهان الكثيرين بالتخلف والجهل والضعف والتمزق ، وفقدان الابداع فى كل المجالات .

ــان كنوز القديم وجواهره النفيسه كانت مطمورة مجهولة لأهله أنفسهم . على حين كان الجديد ظاهراً ، بيّن المعالم ، واضح الحدود . وما عرض من هذا القديم فقد كان عرضهُ فى صورة منفرة ، وفى أوعية تنكرها الأنفس والعقول .

ــان نظم التعليم الجديدة بفلسفتها ، ومناهجها ، وكتبها ، كانت تغرس فى الأجيال المتعلمة حب الجديد ، وهو يعنى الحضارة الغربية ، والنفور من القديم ، وهو يعنى تراث الاسلام . هذا الى من يبعثون الى الغرب لينهوا دراستهم هناك . وبعبارة أخرى : ليصنعوا على أعين السادة المخططين والموجهين !

الخـلاصـة

والخلاصة أن المفاضلة بين القديم والحديث غير علمية ، ولامعنى لها .

أولا : لأن القدم والحدوث من الأمور الاعتبارية غير الحقيقية . فرب حديث عند قوم يعتبر قديماً عند غيرهم . والعكس كذلك .

ثانيا : لأن القدم والحدوث من الأمور غير الثابتة ، فقديم اليوم كان حديثاً وحديث اليوم سيغدو قديماً .

ثالثا : لأن القدم أو الحدوث لايحمل فى ذاته حقاً ولاباطلا . ولاخيراً ولاشراً . وولع بعض الناس بالحديث ، يقابله شغف آخرين بالقديم .

فليكن بحثنا عن الحق . قديماً كان أو حديثاً ، فلن ينفع الباطل أن يكون وليد اليوم ، ولن يضر الحق أن تمضى عليه ألوف السنين . والعكس صحيح أيضا .

يوسف القرضاوي

هـوامـش

(١) من كتاب ابن القيم (شفاء العليل)
(٢) من مقدمة (تاج العروس) فى شرح خطبة صاحب (القاموس)

شرقي حلم الألوان

شـــعر:
مبارك بن سـيف آل ثاني

سمعتُ الحبيب
فقالوا ظنون
وأيُّ الأحِبَّةِ ذاك الحنون ؟
يقول وقد كابرتْ مقلتاه
وهل مقلتاه علينا تهون ؟
سأبني لكِ زورقا ساحرا
تطوفين حيث تكون النجوم
سأبنيه من ألف لون ولون
وفي كل لون تَحارُ العيون
يسيره حلمٌ نحو أفق ...
نعطر أحلامنا بالغيوم
وعزفٌ يطوقنا حيث سرنا
يباهي الربابَ ورَجْعَ الصَّبا
وتغريدَ طيرٍ شجيٍّ الحنين
إلى حيث يمضي السحابُ ..
سنمضـــــي
هناك نعانق أبهى السنين

* * *

يقول الحبيب
سأبنيه من همسات الفؤادِ
ورَجْعِ السهادِ
سأبنيه حلماً لكِ ياحبيبه
يضيءُ على جنبه الياسمين
سأجعـل ...

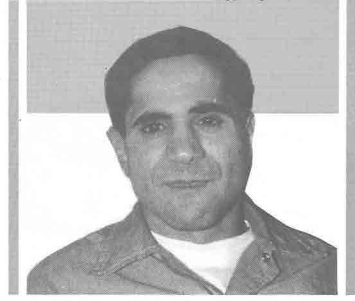
قلت ...
كفاني رؤاكَ .. وجودُك قربي
فقال يعاتب قلباً هواه
أبي تهزئين ؟!
فقلـــتُ :
وماذا يتوِّجُ أغلى النسـاء ؟
فـؤاد محبٍّ صبورٌ أمينْ
وإني أراك حبيبا بعيني
ومن نور عينيك إني أراك
عرفتُ هواك
وعشت رؤاك
ولم يزهر القلبُ حبًا سواك
فقـــال :
ـ بعينيَّ لو تدركين
جعلتك أنت الحياة
وفيها لحيظاتك ساكنات
لأجل اللحيظات تمضي السنين
فقالت :
ـ بقلبك أُمْضي الحياة
وبين يديك
رهينة قلب مُحبٍّ ضنين
فقال وقد كابرت مقلتاه
ـ وعينكِ .. إني المحبُّ الرهين .

سرحان بشارة سرحان هل طواه النسيان في الذاكرة العربية ؟!

بقلم :
عصـــام شريـــح

سرحان بشارة سرحان .. هل طوى النسيان قضيته في ذاكرة العرب ؟؟ فما عاد في العالم العربي من يحسّ بآلامه ، أو يتعاطف معه ، أو يسعى لردّ الأذى عنه ؟!

لقد أمضى سرحان بشارة سرحان ، المواطن الفلسطيني سبعة عشر عاما في السجن حتى الآن ، من أصل حكم بالسجن مدى الحياة ، بتهمة قتل السناتور روبرت كينيدي أثناء حملة انتخابية رئاسية في لوس أنجيلوس في عام ١٩٦٨ . وهذه المدة الطويلة من السجن ، كافية بحسب القانون الأمريكي لمنح صاحبها عفواً مشروطاً .

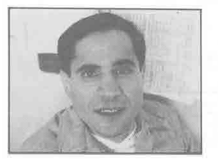


عفــوٌ .. ولكن ..

كان من المفروض أن يمنح سرحان عفواً مشروطاً ، بناء على التماس جديد قدمه محاميه إلى هيئة محلّفين عقدت جلسة لهذا الغرض في لوس أنجيلوس في حزيران (يونيو) الماضي ، لكن تلك الجلسة أسفرت عن فضيحة مُطَنْطَنة في القضاء الأمريكي ، لم تملك سلطات ولاية كاليفورنيا أمامها سوى الاعتراف بما حصل من مهازل خلال تلك الجلسة ، وإن كان هذا الاعتراف قد جاء متأخرا ستة أشهر ، في مطلع كانون الثاني (يناير) الماضي ، صرح رئيس مجلس العفو بولاية كاليفورنيا ، غلبرت سوسيدو ، بأن هيئة المحلّفين تلك ، التي رفضت طلب سرحان بالعفو المشروط ، لم تتبع أوامر المحكمة العليا في كاليفورنيا ، وقال إن هيئة محلّفين جديدة ، ستعقد جلسة خاصة خلال الشهر الجاري ، للنظر في منح سرحان بشارة سرحان عفواً مشروطاً ، وذلك بعد أن تبيّن أن هيئة المحلّفين السابقة كانت « تافهة ومتحيزة » .

وقد كشف محامي سرحان ، لوك ميساك ، بدوره النقاب عن تفاصيل هذه الفضيحة ، فقال إن مكبراً للصوت ، ترك يعمل عن طريق الخطأ ، خلال مناقشة هيئة المحلّفين السابقة للالتماس الذي تقدم به سرحان ، وقد سُمع أحد أعضاء الهيئة وهو يقول : « سنرسله الى السجن لأطول مدة ممكنة » . وأضاف ميساك « أن أعضاء هيئة المحلّفين سمعوا وهم يضحكون كالضباع وهي تأكل فريستها . بعد أن رفضوا سابع التماس قدمه سرحان لمنحه عفواً مشروطاً » .

وكان شقيق سرحان قد اتهم في تشرين



رئيس لجنة العفو بكاليفورنيا:
«هيئة المحلّفين السابقة التي نظرت في طلب سرحان لمنحه عفوًا مشروطًا.. كانت تافهة ومتحيّزة»!

الثاني (نوفمبر) من عام ١٩٨٢ النائب العام في لوس أنجيلوس «جون فان دو كمب»، باستغلال قضية سرحان لأغراضه السياسية الخاصة. سعياً وراء حصوله على منصب المدّعي العام في ولاية كاليفورنيا. حيث ساهم في الضغوط التي مارستها أوساط صهيونية وأخرى أمريكية عنصرية. على مجلس السجناء في الولاية، لاصدار قرار يقضي بإعادة النظر في التاريخ المحدّد للافراج عن سرحان: والذي كان مقرراً أن يتم في عام ١٩٨٤. وقد عقّب عادل بشارة سرحان على هذا القرار الجائر بقوله: «ان الأمر لم يعد يتعلق بقضية شقيقي سرحان، بل إن المسألة أصبحت تتعلق بالدستور الأمريكي، واللوائح القانونية لولاية كاليفورنيا. والتلاعب بها من قبل «فان دو كمب» وأتباعه».

وفي الواقع فإن قضية سرحان بشارة سرحان، قد أصبحت مادة انتخابية بين المتنافسين على المناصب العامة والرسمية في هذه الولاية. فكلما أراد طامع بالفوز بمنصب معيّن، أو الحصول على مكاسب سياسية، فما عليه إلا أن يستخدم اسم سرحان وعائلة كيندي، ليتصدّر اسمه نشرات الأخبار وأعمدة الصحف. والجدير بالذكر أن سرحان قضى حتى الآن، كما قلنا آنفاً، سبعة عشر عاما في السجن، وهي مدة أكثر بسبعة أعوام من أي شخص آخر حُكم عليه بالاعدام ثم السجن المؤبّد. وفق القوانين المعمول بها في ولاية كاليفورنيا.

عودٌ على بدء

ونعود الى قصة سرحان بشارة سرحان من بدايتها: في الخامس من حزيران (يونيو) من عام ١٩٦٨، أي بعد سنة واحدة، على ذكرى الهزيمة العربية المرّة في الخامس من حزيران (يونيو) من عام ١٩٦٧. أقدم سرحان ـ الشاب العربي الفلسطيني المهاجر الى الولايات المتحدة ـ على قتل المرشح لمنصب الرئاسة في الولايات المتحدة الامريكية روبرت كينيدي أمام جمع غفير من أنصاره، في فندق أمباسادور في مدينة لوس أنجيلوس، بأن أطلق عليه النار من مسدس كان يحمله. وعندما هوى كينيدي إلى الأرض: وأطبق الجميع على سرحان، صاح قائلا: «إنني أستطيع أن أوضح.. دعوني أوضح.. لقد فعلت ذلك في سبيل بلادي.. إنني أحب بلادي».

وكانت الفوضى قد دبّت في الفندق، وشاع الفزع بين الحاضرين. وبعد دقائق كان رجال الشرطة يقتادون سرحان بشارة سرحان إلى غرفة التحقيق. ونقل روبرت كينيدي في سيارة اسعاف إلى المستشفى، لكنه بعد ست وعشرين ساعة فارق الحياة.

وفي الحقيقة، فإن الاغتيال السياسي، كان على الدوام أمراً مكروهاً ومُداناً، لأنه يعبّر عن لغة اليأس في أغلب الأحيان، والتاريخ حافل بحوادث الاغتيال لأسباب سياسية. فقد قتل يوليوس قيصر طعناً بالخناجر بيد أقرب الناس إليه «بروتوس» وأنصاره، في مجلس الشيوخ الروماني، وأطلقت النيران على الرئيس الأمريكي ابراهام لنكولن داخل دار الأوبرا، وعلى الملك الكسندر عاهل يوغوسلافيا السابق، وعلى الرئيس الأمريكي الأسبق جون كينيدي (شقيق روبرت كينيدي)، وأقدمت مجموعة إرهابية صهيونية على قتل اللورد موين في مصر. كما اغتالت مجموعة صهيونية أخرى الكونت برنادوت. الوسيط الدولي في فلسطين. وقتل رئيس وزراء مصر النقراشي باشا بالرصاص بينما كان يدخل المصعد. وقتل المهاتما غاندي في إحدى الحدائق على يد أحد المتعصبين الهندوس، واغتيل الرئيس المصري السابق أنور السادات في السادس من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٢، خلال عرض عسكري للجيش المصري بهذه المناسبة.

ولقد كان لعمليات الاغتيال السياسي ـ التي نستنكرها شخصيا ـ مبررات لدى المنفّذين لها أو الواقفين وراءها. وفي هذا الاطار، فقد كان لدى سرحان بشارة سرحان، مبررات قوية، كانت كافية لاحداث إحباطات نفسية حادة لديه، دفعته بالتالي إلى اغتيال السناتور روبرت كنيدي، ومما يؤيد وجهة النظر هذه، أنه لم يحاول الهرب بعد ارتكاب عملية الاغتيال، ولم يحاول أبداً التنصل من المسؤولية بشكل كامل من هذا العمل. بدليل أنه صاح في وجه الجمهور الذي أطبق عليه، أنه فعل فعلته هذه «لأنه يحب بلاده فلسطين».

سرحان والقضية الفلسطينية

ولد سرحان بشارة سرحان في القدس في عام ١٩٤٤. لكن والده بشارة سرحان كان من أهالي قرية الطيبة القريبة من المدينة المقدسة، وقد فتح سرحان عينيه على الحياة. في الفترة التى كان الخطر الصهيوني يتعاظم فيها على فلسطين، ويتزايد تواطؤ حكومة الانتداب البريطانية مع الصهاينة، لتهويد البلاد وتشريد شعبها عنها، وكان والد سرحان آنذاك موظفاً في دائرة الاشغال العامة وهو مثال لذلك النوع من الرجال الذين يخافون الله، ويلتزمون بالقانون والنظام والأخلاق، ولا شك أن هناك مفارقة صارخة بين الأب الذي كان يحب الحياة البسيطة الوديعة في المنزل الحجري الذي بناه في «الطيبة»، قبيل حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧، وبين الابن الذي دفعته المعاناة القاسية والاحباطات المتلاحقة بسبب فلسطينيته لأن يصبح قاتلاً.

سرحان بشارة سرحان
هل طواه النسيان في الذاكرة العربية؟!

لقد تعرض سرحان لاحباطات نفسية عديدة منذ نعومة أظفاره، وكان لما يبلغ الرابعة من عمره، عندما بدأت لغة العنف والقتل، تُجلْجل في كل مكان من حوله، ففي كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٧، وقعت حوادث عنف في تل أبيب وحيفا واللد، وعددت صحيفة «بالستاين بوست» اليهودية الحوادث التالية: في الأول من هذا الشهر، أُلقيت حجارة على بيوت يهودية قرب بوابة يافا، وفي الثاني منه، أحرق الفلسطينيون المركز التجاري اليهودي، وفي الثالث منه جرح ثلاثة من اليهود عندما أطلق الفلسطينيون النار على الحي اليهودي في القدس، وفي العاشر من الشهر نفسه، أطلقت النار على سيارة يهودية قرب بوابة يافا، وكانت حصيلة هذه الحوادث، مقتل يهوديين وجرح ثلاثة آخرين.

وفي ثلاثة حوادث أُلقيت فيها قنابل كردّ انتقامي من اليهود في ١٣ من كانون الأول (ديسمبر) و٢٩ من الشهر نفسه، والسابع من كانون الثاني (يناير) ١٩٤٨، قتل اليهود ٣٥ فلسطينياً، وجرحوا ١٢٣ آخرين طبقاً للأرقام الرسمية.

وقد نجا سرحان ووالده بشارة من الموت بأعجوبة، في حادث إلقاء القنبلة في ٢٩ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٧، وقد حملت صحيفة «نيويورك تايمز» الأمريكية في اليوم التالي (٣٠ كانون الأول ـ ديسمبر) العنوان: «قنبلة الارغون تقتل ١١ عربياً وبريطانيين». أما الوصف اليهودي في صحيفة «بالستاين بوست» في نفس اليوم، فقد جاء على الشكل التالي: «أسفر إلقاء قنبلة على بوابة دمشق ظهر أمس عن مقتل ١٥ عربيا وإصابة حوالي ٥٠ آخرين بجروح.. فقد مرت سيارة تاكسي خضراء اللون، وبداخلها ثلاثة من اليهود، بجانب الحرس الوطني العربي على الباب الجديد، وواصلت سيرها في طريق سلمان، حيث ألقى ركابها قنبلة قرب موقف للحافلات، فتحول الشارع الذي كان يعجّ بالعرب، إلى مجزرة، حيث قتل ستة من العرب على الفور، وبين أسماء القتلى الذين أوردت الـ«بالستاين بوست» أسماءهم: سعاد عماشة (١٠ أعوام)، وأمل شماعة (١١ عاما) من القدس، ولم يتم التعرف على جثتي طفل ورجل وذكرت صحيفة «فلسطين» العربية أن عدد الضحايا بلغ ١٨ قتيلاً بينهم طفلان، و٢٧ جريحا».

وأما بشارة سرحان: فقد روى الحادث كما يلي: «كنت ذاهبا إلى السوق لأشترى قهوة وبعض الحاجيات الأخرى، وكان ولدي سرحان بصحبتي، فما كدنا ندخل البوابة (بوابة دمشق بالقدس)، حتى سمعت الناس يصرخون فنظرت إلى الخلف، فرأيت شيئا أسود يُلقى من سيارة، ثم أخذ يتدحرج على المنحدر حتى انفجر، مُحدثاً دوياً هائلاً، فحملت سرحان وركضت به عبر البوابة، وظهر لي أن سرحان كان مغمى عليه: فاشتد غضبي، حيث كانت عيناه مغلقتين، لكنه لم يكن مصابا بأذى، ففركت وجهه ويديه، وبعد دقائق فتح عينيه، فسألته: سرحان.. هل تشعر بألم؟ فأجاب: لا ياأبي، فمضيت أفرك يديه وجسده، إلى أن نهض، وعندما سألني: لماذا يفعل اليهود هذا.. ألا يؤمنون بالله؟؟!».. ويمضي بشارة سرحان في سرد وقائع ما حدث فيقول: «وحين خرجنا من البوابة، راعنا ما شاهدناه، فمع أن سيارات الإسعاف حملت القتلى والجرحى، فقد بقيت آثار الدماء وبعض الجرحى على الأرض، ورأينا لحماً وعظاما متناثرة، وكان الجميع يصرخون ويبكون، فقال سرحان: لا أريد أن أرى هذا يا أبي، فأخذت منديلي، وعصبت عينيه وعدت به إلى البيت».

كانت هذه الحادثة، أول جرح عميق أصاب نفس سرحان بشارة سرحان وهو لما يبلغ الرابعة من العمر، وقد تتالت الأحداث بعد ذلك في فلسطين، لتترك بصماتها بقوة على تلك النفس الفلسطينية الغضة، ويروي والد سرحان أن أحداث العنف تصاعدت خلال الأشهر الأولى من عام ١٩٤٨، وفي «حي المُصْرارة» كان هناك كرٌّ وَفرٌّ بين العرب واليهود: باعتباره حياً مشتركاً بينهم، وكان سرحان يذهب إلى حديقة للأطفال في الجوار، وفيما كان يهم بدخول منزل والديه في أحد الأيام، انفجرت قنبلة مورتر في الطريق، فوقع سرحان أرضاً، وأصيب بجرح طفيف في وجهه.

ويروى أيضا «أن سرحان جاء من المدرسة إلى البيت راكضاً يوماً، وبدا عليه الاضطراب والاهتياج، وقال لنا: رأيت يهودياً يجرح امرأة عربية». ويصف الوالد معركة ساخنة جدا، ظلّ اليهود يطلقون النار والقنابل خلالها ودون انقطاع، طيلة ليلتين كاملتين في حيّ المصرارة، ولم يتوقف اليهود عن ذلك،

إلا بعد أن أجبروا العرب على النزوح من ذلك الحيّ. ويقول بشارة سرحان: إنه نزح مع عائلته من منزله في الحيّ دون أن يترك اليهود لهم فرصة حتى لانتعال أحذيتهم. وفي أحداث القتال بين العرب واليهود في أيار (مايو) ١٩٤٨، شارك شقيقا سرحان، وهما سعد الله وشريف، في القتال.

وهكذا كانت الأحداث في فلسطين، ترسم وتحفر طريقها على تلك الصفحة البيضاء النقية في نفس سرحان، ولم ينس سرحان نزوحه مع أفراد العائلة الآخرين من منزلهم في «المصرارة»، فكان دائم السؤال لوالده بعد سنوات من تلك الأحداث: «أبي، لماذا فعل اليهود بنا هكذا؟ ولماذا كان عليّ أن أترك ألعابي، التي لا أشك في أن اليهود يلعبون بها الآن»، أو «أي نوع من الناس هم أولئك اليهود، الذين يلقون القنابل على الآخرين؟ ألا يخافون من الله؟»)

الهجرة إلى أمريكا

في أعقاب معارك أيار (مايو) ١٩٤٨، أغلق بشارة سرحان باب منزله، وشدّ الرحال

إلى الولايات المتحدة الامريكية ، دون أن ينسى أن يأخذ معه مفتاح البيت ، لكنه لم يعد إليه

أبداً حتى اليوم ، وبعد ثماني سنوات من المعاناة في أمريكا بسبب شظف العيش ، وصعوبة التأقلم ، عاد بشارة سرحان الى قريته الطيبة (وليس الى حيّ المصرارة بالقدس) ،

ليبني فيها مسكناً جديداً من الحجر ، بيد أنه ما لبث أن عاد ثانية إلى أمريكا .. أما سرحان فكان يردد غداة الهجرة : « أردتُ أن أبقى في وطني وبين أبناء شعبي ، لأنني كنت أعرف أن الولايات المتحدة ضدّ العرب وهي صديقة لإسرائيل » .

وفي الولايات المتحدة ، لم تعرف عائلة سرحان رغد الحياة ، لأن قيمها ما كان لها مكان في تلك البلاد على الاطلاق ، وأما سرحان فقد كان جاداً في حياته وقارئاً مثابراً ، وشاباً

مطيعاً وهادئاً ، ومتمسكا بزمام الأخلاق الى أبعد الحدود . وعلى الرغم من أن العائلة استقرت في الولايات المتحدة ، إلا أنها رفضت باستثناء أحد الأبناء ، أن يصبح أفرادها

مواطنين أمريكيين ، وأصروا على الاحتفاظ بهويتهم الفلسطينية ، وذلك على الرغم من المضايقات وحجب الاعانات الحكومية المترتبة على هذا الموقف ، كما أن سُمرة بشرتهم عرّضتهم للتمييز العنصري ، بيْد أنهم كانوا

جميعاً مفرطي الحساسية والكبرياء ، ولم يشعروا إطلاقاً بالانتماء لغير فلسطين والعروبة .

وقد عمل سرحان في وظائف مهينة ، في كنس محطة للبنزين ، وتنظيف المراحيض ، ولدى أحد البقّالين ، لكنه بقي متمسكاً بفلسطينيته وعروبته ، ثم ما لبث أن بدأ ينتابه شعور متصاعد بالغربة عن المجتمع الأمريكي ، ويروى أحد أصحاب حوانيت البقالة ، الذي عمل سرحان لديه لفترة من الزمن ، (المستر وايدنر) ، أن سرحان انتقد الولايات المتحدة لمساعدتها لإسرائيل ضدّ العرب ، ثم قال : « أنا عربي .. فكيف أصبح أمريكياً ؟! » ، وقال المستر وايدنر : « نعم ..

إنني أستطيع أن أقول إن سرحان كان يحب بلاده » ، ويروى عنه أنه وصف لزوجته حادثة شاهد خلالها بأمّ عينيه ، جندياً يهودياً يقطع صدر أمرأة عربية في القدس » .

وكان سرحان يرى أن العرب على حق ، وأن اسرائيل هي أصل الشرّ في منطقة الشرق الأوسط ، وأنه يتوجب لذلك على العرب أن يبتوا أنفسهم ، وأن يحاربوا اسرائيل

وبينما كان سرحان يعيش في عالمه الخاص ، متمسكاً الى أبعد الحدود بحبه

لبلاده وأمته ، كان يرى ويسمع التضليل الصهيوني ضد العرب يوميا من خلال أجهزة الاعلام الامريكية ، وكان يرى ويسمع أيضا ، كيف ينجرف الساسة الأمريكيون مع التيار الصهيوني ، ويتزلفون لليهود وفي هذا الجو المتصهين ، كان روبرت كيندي ، المرشح للرئاسة الأمريكية في عام ١٩٦٨ ، يُبدي إعجابه بإسرائيل ، بمناسبة ودون مناسبة ، ويُطلق التصريح تلو الآخر ، للاعراب عن تأييده لها ، وضرورة مدّ الصهاينة بأحدث الأسلحة الأمريكية وبالأموال والمساعدات الاقتصادية ، في حين كان روبرت كيندي يُظهر هزءاً بالعرب ، وسخرية بعاداتهم وتقاليدهم ، ولم يتورع قبيل اطلاق الرصاص عليه من قبل سرحان ، عن القول : إنه إذا أصبح رئيساً ، فسيُعطي إسرائيل طائرات فانتوم المتطورة ، كما أعطاها شقيقه جون كيندي صواريخ هوك ، وكانت تلك التصريحات تثير سرحان ، وتشكل لديه أرضية صلبة ، للانطلاق في عمل ، كان يعتقد أنه قد يُغيّر مجرى الأحداث ، وكانت قمة الإثارة لدى سرحان بشارة سرحان ، عندما قرأ تصريح روبرت كيندي الذي قال فيه خلال إحدى حملاته الانتخابية ، وأمام حشد من اليهود : « لقد شربتُ لتوّي قهوة عربية مُرّة ، ولم يُتح لي الوقت الكافي لغسل فمي منها !!! » ، في هذا الجوّ من الانفعال الشديد والجارف ، صمم سرحان بشارة سرحان على منع روبرت كيندي من تقديم طائرات فانتوم لإسرائيل ، ومنعه من السخرية بالعرب ، فرأى من وجهة نظره ، أن أقصر طريق لتحقيق ذلك ، هو قتل كيندي نفسه ، ظاناً بأن هذا العمل المثير ، سيفتح عيون الأمريكيين على واقع القضية الفلسطينية ، ويجعل الشعب الأمريكي وقادته ، يتراجعون عن إغراق اسرائيل بمساعداتهم .

كلمة أخيرة

يبقى أن نقول إننا وان كنا لا نقرّ أسلوب الاغتيال السياسي ، وبالتالي لا نقرّ أسلوب سرحان بشارة سرحان في التعبير « عن حبّه لوطنه فلسطين ولأمته العربية » ، إلا أننا لا نملك إلا أن نحترم ضميره وتفكيره ، ونعتقد أن سرحان يستحق المساعدة والاهتمام من كل عربي في محنته الراهنة في السجن .

عصـام شريح

عضو في هيئة المحلفين :

« سنرسله إلى السجن لأطول مدّة ممكنة » !

مشكلة تهدد المجتمعات العربية



بقلم : الدكتور جلال عبدالله معوض

تشهد العديد من الأقطار العربية مايمكن تسميته « بالتضخم الحضرى » ، فى ظل النمو المتزايد لنسبة السكان فى المناطق الحضرية ــ وخاصة العواصم والمدن الكبرى ــ من اجمالى السكان ، وفى ظل انتشار المدن المكتظة سكانياً والتى تتجاوز فى كثير من الأحيان المليون نسمة ــ خاصة « القاهرة » التى لايقل عدد سكانها حاليا عن عشرة ملايين نسمة ، فضلاً عن الامتدادات العشوائية للعديد من تلك العواصم والمدن .

وعلى سبيل المثال فى عام ١٩٨٢ بلغت نسبة سكان الحضر من اجمالى السكان (٧٧٪) فى لبنان و (٧٠٪) فى العراق و (٦٠٪) فى الأردن و (٥٤٪) فى تونس و(٤٩٪) فى سوريا و (٤٥٪) فى كل من مصر والجزائر و (٤٢٪) فى المغرب . وفى عام ١٩٨٠ بلغ عدد المدن العربية التى تتجاوز كل منها المليون نسمة (١٩) مدينة ، من بينها أربع مدن بالمغرب وثلاث مدن بالعراق واثنتان بكل من مصر وسوريا .

وتقدر إحدى المصادر أنه من المتوقع زيادة نسبة سكان الحضر من اجمالى السكان فى الأقطار العربية من (٤٦٫٨٪) فى عام ١٩٨٠ إلى (٥٩٫٩٪) فى عام ٢٠٠٠ .

ويرجع هذا التضخم الحضرى إلى عدة عوامل من أهمها موجات الهجرة من المناطق الريفية إلى المناطق الحضرية . ومن هنا نلقى الضوء على طبيعة وعوامل تلك الهجرة وآثارها سواء على المناطق الحضرية أو المناطق الريفية ، وكذا ضرورة التنمية الريفية للحد من موجات تلك الهجرة .

طبيعة وعوامل الهجرة من الريف

يرجع تدفق أعداد كبيرة من سكان المناطق الريفية إلى المناطق الحضرية بالأقطار العربية إلى التدهور فى أوضاع المناطق الريفية والتى يعانى معظم سكانها من البطالة والقصور فى الخدمات المختلفة . ولاتقتصر موجات الهجرة من الريف إلى الحضر ــ وعادة مايكون دافعها الأساسى البحث عن فرص عمل ــ على الهجرة إلى العواصم والمدن الكبرى ، ولكنها تشمل أيضاً الهجرة إلى المدن الصغرى والوسطى . وإن كان نصيب العواصم والمدن الكبرى من هذه الهجرة يفوق نصيب ماعداها من مدن ، بل ومن الملاحظ أن هجرة الريفيين إلى المدن الصغرى عادة ماتعقبها هجرة العديد منهم إلى العواصم والمدن الكبرى . ومن هنا نجد أن نسبة كبيرة من سكان هذه الأخيرة من المهاجرين الريفيين .

وعلى سبيل المثال نجد أكثر من ثلث سكان « القاهرة » من الوافدين إليها من المناطق الريفية وقد زاد عدد الريفيين المهاجرين إليها من (٧٠١٫٥٠٣) فى عام ١٩٤٧ الى (١٫١٩٤٫٢٦٦) نسمة فى عام ١٩٦٠ الى (١٣٦٠١٣١) نسمة فى عام ١٩٧٦ .

وفى عام ١٩٧٩ بلغ عدد سكان العاصمة التونسية (٩٩٤) ألف نسمة ، من بينهم (٣١٩) ألف نسمة من المهاجرين إليها من المناطق الريفية .

وفى الفترة ١٩٧٤ ــ ١٩٧٧ زاد عدد سكان المناطق الحضرية بالجزائر ، وخاصة العاصمة ، بحوالى (١٫٣٦) مليون نسمة ، من بينهم (٥٢٠٫٨٠٠) نسمة من المهاجرين من المناطق الريفية إلى المدن .

آثار الهجرة الريفية الحضرية

تطرح ظاهرة الهجرة من الريف إلى الحضر فى الوطن العربى عدة آثار تمس مختلف أوجه الحياة الاجتماعية ــ الاقتصادية ، وكذا السياسية ، ومن بين هذه الآثار مايلى :

١ ــ إن الدافع الأساسى لهجرة الريفيين إلى المدن عادة مايكون البحث عن عمل ، ولكن ضآلة فرص العمل المتاحة بالمدن تجعل هؤلاء الريفيين على استعداد لممارسة أية أعمال ولو كانت من الأعمال الهامشية ذات الأجور المتدينة ، وقد لايجد العديد منهم فرصة ممارسة أى عمل .

وعلى سبيل المثال ظهر من دراسة مسحية قامت بها احدى المراكز البحثية التونسية فى عام ١٩٧٨ أن (١٧،٨٪) من الريفيين الذين هاجروا إلى العاصمة « تونس » خلال العامين السابقين يعملون لمدة أربعة أيام أو أقل فى الأسبوع وبأجور منخفضة .

ومن هنا تزداد حدة معدلات البطالة فى العديد من العواصم والمدن العربية ، بكل مايترتب على انتشار البطالة من آثار اقتصادية واجتماعية سلبية . فمن الناحية الاقتصادية تؤدى البطالة إلى عدم الاستخدام الفعلى الكامل للقوى البشرية النشطة اقتصادياً لصالح التنمية الاقتصادية . ومن الناحية الاجتماعية تؤدى البطالة إلى انخفاض مستويات معيشة هؤلاء العاطلين وزيادة حدة معاناتهم نتيجة لانعدام الفرص أمامهم للحصول على أى دخل ـ فضلاً عما يتمخض عن انتشار البطالة من تزايد معدلات الجريمة والانحراف الاجتماعى .

٢ ـ إن لجوء العديد من هؤلاء الريفيين إلى الاستقرار فى المناطق والأحياء الفقيرة والتى عادة مايشار إليها « بمدن العشش والأكواخ وبيوت الصفيح » . تعبيراً عن النفايات والمواد الرخيصة المستخدمة فى بناء « المساكن » بهذه المناطق والتى يقطنها أساساً العاطلون والفقراء من سكان المدن ، يؤدى إلى زيادة أعداد قاطنى هذه المناطق الفقيرة التى تحيط بالعديد من المدن والعواصم العربية أو تتخللها . وبحيث صارت تلك المناطق تضم مايقرب من (٣٠٪) من اجمالى سكان تلك المدن والعواصم .

والواقع أن انتشار هذه المناطق الفقيرة ، والتى تتناقض أوضاع سكانها تناقضاً كبيراً مع أوضاع سكان المناطق والأحياء الراقية بالمدن والعواصم العربية ، يمثل عاملاً هاماً من عوامل تفجر الاضطرابات الشعبية النابعة من تزايد الشعور بالحرمان النسبى ، وهى الاضطرابات المعروفة باسم « اضطرابات الخبز » والتى شهدتها بعض المدن والعواصم العربية خلال السنوات القليلة الماضية احتجاجا على ارتفاع الأسعار وإلغاء أو تخفيض الدعم المقرر للسلع الأساسية وعلى رأسها « الخبز » .

٣ ـ وبالاضافة إلى مايترتب على نزوح الآلاف من الريفيين إلى المدن والعواصم العربية من تفاقم حدة المشكلات التى تعانى منها المرافق والخدمات المختلفة فى هذه المدن والعواصم ، فإن الصعوبات العديدة التى تواجه معظم هؤلاء الريفيين فى الاندماج فى الأنشطة الحضرية ـ الاقتصادية والاجتماعية وفى التكيف النفسي والسلوكي مع أساليب وقيم الحياة الحضرية ، هذه الصعوبات تدفعهم إلى الاحتفاظ بقيمهم وعاداتهم وتقاليدهم الريفية ، ويساعدهم فى ذلك تمركزهم الجغرافى فى مناطق معينة بالمدن والعواصم .

ومن هنا ينتهى الأمر بهؤلاء الريفيين إلى إضفاء الطابع الريفى على المدن والعواصم من خلال عملية عادة مايشار إليها « بترييف المدينة » Ruralizing the City ، وهى عملية تؤدى إلى جعل هذه المدن والعواصم ـ كالقاهرة وغيرها ـ مجرد قرى ضخمة من



● استمرار الهجرة من الرَّيف إلى المدينة مرتبط باستمرار الفجوة في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية

● هجرة المتعلمين من الريف بحثاً عن فرصة عمل وحياة في المدينة يحرم الريف من الكوادر القادرة على تطويره

الناحية الاجتماعية والسلوكية وليست مدناً بالمعنى الاجتماعى الحقيقى .

٤ ـ وإذا كانت النواحي الثلاث سالفة الذكر تبين تأثيرات الهجرة الريفية ـ الحضرية فى المدن والعواصم العربية ، فثمة ناحية أخرى تتعلق بتأثيرات هذه الهجرة فى المناطق الريفية العربية ذاتها . ونعنى بذلك وجود عدد ليس بالضئيل من بين المهاجرين الريفيين إلى المدن من المتعلمين الباحثين عن فرص عمل وحياة اجتماعية غير متاحة فى المناطق الريفية . فلا شك أن حرمان المناطق الريفية من هذه العناصر المتعلمة يشكل على المدى البعيد عقبة ضخمة تعترض أية سياسة إنمائية تستهدف تنمية وتطوير هذه المناطق ، خاصة فى ظل النفور وعدم الرغبة فى العمل بهذه المناطق من جانب معظم قطاعات المتعلمين فى المناطق الحضرية .

أهمية التنمية الريفية فى الأقطار العربية

يتضح مما تقدم أن الهجرة الريفية الحضرية فى الأقطار العربية ، بكل مايترتب عليها من آثار ومشكلات ، تنبع بالأساس من استمرار الفجوة بين المناطق الريفية والحضرية فى الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ، وهى الفجوة التى تجعل من المناطق الريفية مراكز « طاردة » للعديد من سكانها نحو مراكز « الجذب » بالمناطق الحضرية .

ومن هنا تبرز ضرورة تبنى الأقطار العربية لسياسات فعالة للتنمية الريفية . ومن الأهمية بمكان التعامل مع قضية التنمية الريفية باعتبارها عملية متكاملة تستهدف تطوير الحياة الاجتماعية والاقتصادية لسكان المناطق الريفية ، وذلك عن طريق تحسين الخدمات الاجتماعية الاساسية فى هذه المناطق (الانارة ـ المياه النقية ـ الصرف الصحى ـ الاسكان ـ التعليم ـ الرعاية الصحية ... الخ) ، وزيادة نصيب التنمية الزراعية من الاستثمارات الانمائية العامة ، توفير فرص عمل للريفيين ـ من المعدمين خاصة أو محدودى الملكية ـ سواء فى المشروعات المرتبطة بالانشطة الزراعية (شق الترع والمصارف وتطهيرها) أو فى الصناعات المعتمدة على الناتج الزراعى ، التطبيق الفعال لقوانين الإصلاح الزراعي ودعم التعاونيات الزراعية .

هكذا كما أتاح الله للإنسان المسلم أن يحظى بنعمة الصلاة عندما خرج صوت المؤذن من مكة المكرمة إلى ربوع العالم وليبشر بالإسلام .. وليشهد الناس أن لا اله إلاّ الله .. كذلك أتاح الله للإنسان المسلم فى رحلة اغترابه إلى واشنطن .. قلب الولايات المتحدة وعاصمتها .. ليؤدى الصلاة .. وليعبد ربه .. وليطهر نفسه ..



هكذا الايمان أمر قائم مع الانسان أينما نبض قلبه .. والمكان يبرحه ويتركه كلما تمكنت قدماه أن تحملاه . فما هى قصة لقاء الانسان المسلم فى واشنطن مع اخوته المسلمين من ربوع العالم .. والذين يعيشون معه فى رحلة اغترابهم .. تربطهم جميعا شهادة ان لا إله إلا الله وان محمدا رسول الله .. وكيف يتاح لأبنائهم أن يتعلموا مبادىء دينهم الحنيف حتى أقيم أول مسجد فى واشنطن .. العاصمة الأمريكية .. ليضم المسلمين قاطبة .. وما هى قصة بناء ذلك المسجد .. وكيف جاءت فكرة بنائه وليدة لحظة حزن .. جاءت معها بالفرح ..

هكذا أصبحت قصة بناء المسجد نفسه بالقرب من الكنيسة الوطنية الأمريكية .. معجزة تمت فى قلب امريكا .. وحتى اختيار المكان نفسه .. وموقعه .. وطرازه الذى برع الفنان المسلم فى إظهار قدراته حيث استخدم الكتابة العربية .. لغة القرآن الكريم .. فأصبح لطراز المسجد .. وشكله .. وتصميمه .. وروعة بنائه .. وظيفة رمزية تؤكد العطاء الروحى الذى يقدمه الاسلام ..

هناك قليل من الناس الذين يعرفون المجهودات العظيمة التى قام بها بضعة من الأفراد لتحقيق حلم طالما راود المسلمين الذين يعيشون فى واشنطن .. قليل من الناس الذين يعرفون الطريق السهل الممتنع الذى تكبده نفر من الناس أراد الله أن تتم معجزة بناء المسجد على أيديهم .. وأن يتم تشييد هذا الصرح الروحى الذى يشهد بعظمة الاسلام وبجلاله .. لقد قضى الله أن تتم معجزة البناء على نفر من الناس لايزيد عددهم على أصابع اليد الواحدة .. وشاءت قدرة المولى أن يهبهم الصبر الذى يقويهم .. أن يمنحهم القوة التى تشد أزرهم .. الأمل الذى يصبون الى تحقيقه .. فأعطوا من أنفسهم .. ومن ذواتهم .. ومن وقتهم .. ومن جهدهم .. ابتغاء مرضاة الله .. بدون أن يكون هناك فى أنفسهم سوى أمل واحد عاشوا من أجله فترة من الزمن لتحقيق ذلك الحلم .. لبناء مسجد فى عاصمة الولايات المتحدة .. يؤمه الناس للصلاة .. ويؤمه الزائرون ليشهدوا منارة الاسلام تحلق عالية .. ينبعث منها صوت المؤمنين وهم يتهدجون فى خلواتهم .. متعبدين .. خاشعين ..

لقد تولدت فكرة إقامة المسجد فى ١٣ نوفمبر ١٩٤٤ عندما اجتمع أعضاء السلك الدبلوماسى فى قاعة أحد المبانى لتوديع جثمان السفير التركى منير ايرتجون الذى وافته المنية فى واشنطن .. ولما كانت المواصلات الجوية مضربة إبان الحرب .. فلقد أمر رئيس الولايات المتحدة فرانكلين روزفلت أن يرحل جثمان الفقيد الراحل الى تركيا على متن طائرة حربية أمريكية .. وكان من بين الحاضرين السفير المصرى محمود حسن باشا .. والمستر جوزيف هوار .. وهو أحد رجال الاقتصاد وصاحب شركات المقاولات والصديق للسفير التركى الراحل .. واذ بالمستر هوار يهمس فى أذن السفير المصرى محمود حسن باشا (أليس من العار أن لاتقام الصلاة على جثمان الراحل فى مسجد ؟) فأجاب السفير المصرى فى ذكاء : (هل أنت مستعد أن تساهم اذا بدأت مشروع بناء مسجد ؟) أجاب هوار : (بكل تأكيد .. وسأساعد ماديا وفنيا ومعماريا) .

هكذا فى فترة حزن تولد الأمل .. فى فترة فراق تولد اللقاء .. فى فترة كآبة تولدت الفرحة .. فى فترة ضيق جاء الفرج .. فى فترة صمت طويل خرج بعدها نداء (الله أكبر) فى سماء واشنطن .. وفى خلال أسابيع تم إنشاء (جمعية مشروع بناء مسجد واشنطن) تحت رئاسة السفير المصرى فى ٢ فبراير ١٩٤٥ .. ولقد أوحت فكرة إنشاء الجمعية على رغبة عارمة نحو إقامة بيت الله .. لإتاحة الصلاة بعد حرمان طويل لعشرات الآلاف من المسلمين الذين عاشوا فى واشنطن وحرموا من نعمة لقاء مولاهم فى صلاة روحانية تجمعهم مع خالقهم فى أرض اغترابهم ..

لقد قضت لائحة الجمعية على أنها جمعية دينية لتتيح مكانا للعبادة لأفراد الجالية الاسلامية عامة .. ولشراء الأرض لإقامة مسجد فى مدينة واشنطن .. وكانت الخطوة الثانية هى تأسيس صندوق جمع التبرعات .. ولقد لعبت الصحافة الأمريكية دورا كبيرا للدعاية لهذا المشروع .. ولطلب المساعدات المالية .. وكان على رأس هذه الجرائد جريدة الهدى وجريدة السائح وهما الجريدتان اللتان أوسعتا صدريهما للكتابة عن هذا المشروع .. ومن خلال الدعاية التى قامتا بها توالت التبرعات المادية .. ليس فحسب من الأفراد والمؤسسات الاسلامية .. ولكن أيضا من الهيئات الأمريكية والكنائس الشرقية الموجودة فى أمريكا .. ولقد كان السفير المصرى يوقع خطابات الشكر للمتبرعين بهذه المبالغ .. ولقد

بذل السفير المصرى كل جهده لانجاح هذا المشروع وراح يخصص المكان ... والموظفين بالسفارة المصرية للتفرغ للأعمال الادارية اللازمة للمشروع .. وفى نهاية عام ١٩٤٥ كان المبلغ الذى تم جمعه ٤٧٫٨٧٦ دولارا .. وسافر السفير المصرى للقاهرة ليطلب من الملك فاروق مساهمته فى هذا المشروع فتبرع الملك بمبلغ ٤١٫١٢٦ دولارا .. وساهمت الحكومة المصرية فى ذلك الوقت بمبلغ ١٢٣٫٣٨٢ دولارا .. وبقيت هذه المبالغ كاملة بدون أن تمس إذ تعهدت السفارة المصرية بتولى تكاليف الأعمال الادارية والنفقات النثرية من كتابة خطابات .. دعاية .. إعداد اجتماعات .. مكالمات تليفونية داخل وخارج الولايات المتحدة ..

وراحت الجمعية تبحث عن قطعة أرض تليق بالمسجد .. وتفيد السجلات بأن هناك قطعة أرض قدمت للجمعية مجانا لبناء المسجد .. ولكن الجمعية رفضت ذلك لبعدها عن قلب العاصمة وأخيرا تم اختيار قطعة الأرض التى أقيم عليها المسجد بمبلغ ٩٥٫٠٠٠ دولارا ..

كانت سنوات ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨ سنوات قحط بالنسبة للتبرعات .. فلم تتقدم أية حكومة عربية أو إسلامية بالمساعدات المالية .. وحتى المساعدات المالية من أمريكا نفسها كانت قليلة .. ومتقطعة .. وفيها أيضا انتهت مدة خدمة السفير المصرى محمود حسن باشا .. وجاء خلفه السفير محمد كامل عبدالرحيم ..

لقد لعب السفير المصرى الجديد محمد كامل عبدالرحيم دورا هاما فى تاريخ إنشاء المسجد .. اذ تولى تنشيط همم باقى الحكومات العربية والاسلامية .. وتنشيط رجال السلك الدبلوماسى العربى والاسلامى الموجود فى واشنطن .. وتوليد الشعور لديهم بأن هذا المسجد لايخص مصر .. أو الدول العربية .. ولكنه لكل المسلمين المؤمنين من قاطبة الدنيا وأسرها .. وهكذا فى احتفال عظيم .. فى ربيع الأول ١٣٦٨ هـ الموافق ١١ يناير ١٩٤٩ فى الساعة الثانية والنصف تم إرساء حجر الأساس للمسجد .. وكان حجر الأساس مغطى بصندوق يحتوى على نسخة من القرآن الكريم باللغة العربية .. وبعض العملات الفضية المتداولة فى أمريكا .. وقام السفير المصرى بإلقاء كلمة الافتتاح والتى جاء فيها :

(هذا المسجد لاينتمى الى شخص واحد . أو شعب واحد . أو دولة معينة .. إنه بيت الله الذى يفتح أبوابه لكل مسلم .. وكلنا فيه سواء .. إن الاخلاص فى الايمان بالله ورسوله هو الذى يميز الداخلين للصلاة فى هذا المسجد .. فلن يكون هناك شرف لشخص واحد أو دولة معينة للعمل فى إنجاح هذا المشروع العظيم .. ولكن الشرف لنا جميعا .. نحن المسلمين المؤمنين بالله .. ورسوله)

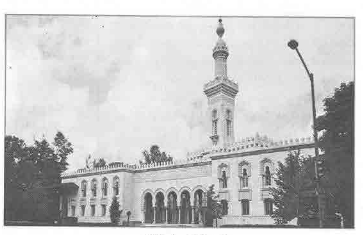
وفى سنة ١٩٤٩ وصلت من وزارة الأوقاف المصرية الرسوم المعمارية التى قام برسمها المهندس الايطالى ماريوروس الذى تخصص فى عمارة أهم المساجد الاسلامية الموجودة فى القاهرة والاسكندرية .. ومن فرط ولع هذا المهندس الايطالى بالاسلام .. فانه قد أشهر إسلامه وتسمى باسم محمد مهدى وحج الى بيت الله الحرام فى ١٩٦١ قبل وفاته . ولقد اتصل السفير المصرى بالأزهر الشريف لتعيين أمام للمسجد ملم باللغة الانجليزية ولقد أجاب الأزهر الشريف فى اليوم نفسه وتم تعيين الدكتور محمد حب‌الله إماما للمسجد .. وكان الدكتور حب الله قد تخرج من انجلترا وسافر الى كثير من البلاد الافريقية والآسيوية وهكذا تحمل الأزهر الشريف نفقات سفر ومرتب الدكتور حب‌الله .. واجتمع مجلس إدارة الجمعية ووافق على قبول تعيين الدكتور حب‌الله .. ووافق أيضا على شراء فدان أرض لإقامة مدافن للمسلمين فى ولاية فرجينيا التى يفصلها عن واشنطن نهر البوتمك .. ووافق المجلس على تسمية المسجد باسم المركز الاسلامى . وتم وضع اللائحة .. وكانت أهم بنودها :

- تأسيس مكتبة إسلامية متخصصة .
- تعليم اللغة العربية للأطفال المسلمين .
- تنظيم سلسلة من المحاضرات خارج وداخل المركز للتعريف بالاسلام .
- إقامة متحف إسلامى لعرض الفنون الاسلامية .
- إعداد المحاضرات والندوات الاسلامية والثقافية .

انتهت مدة خدمة الدكتور حب‌الله وعاد للقاهرة .. وخلفه الدكتور محمد بيصار .. وكانت فترة عمل الدكتور بيصار هى فترة المسئولية الكبيرة المتعلقة بإنهاء العمارة داخل المسجد .. وبداية النشاط الثقافى الاسلامى ..

وفى ٢٨ يونية ١٩٥٧ تم افتتاح المركز الاسلامى ووصلت تكاليف بنائه ١٫١٤٠٫٣٣٥ دولارا . أقيمت حفلة الافتتاح .. وحضرها كبار المدعوين من بينهم رئيس الولايات المتحدة ايزنهاور والسيدة قرينته .. وبدأ الحفل بتلاوة الفاتحة .. وقام الرئيس ايزنهاور بإلقاء كلمة الافتتاح .. وفى نهاية كلمته أعلن افتتاح المركز رسميا ..

وهكذا وصل الاسلام الى العالم الجديد .. وهكذا تبزغ الشمس صباح كل يوم لتسطع مشرقة على قلب العاصمة الامريكية . وفيها نسمع الآن صوت القرآن الكريم عندما يتهدج بتلاوته المصلون فى قيثارة واحدة تنبض بالرجاء .. وتدعو للاخاء .. تذكرنا بصوت بلال مؤذن الرسول عندما كان يدعو للصلاة .. ويتردد هذا الصوت الذى يبدد ظلام التفس مع طلائع الفجر التى تبدد ظلام الحس فيلتقى النوران : نور الفجر .. ونور الوحى .. ويمر الوقت خاشعا حفيا .. والمكان ببسمة الضياء وروعة النداء عطر ندى .. فيلتقى جمال الضياء .. بعطر النداء : حى على الصلاة .. حى على الفلاح .



المركز الاسلامى فى واشنطن

الشاعر
أحمد العاصي
أضواء جديدة على مأساته ورواية مجهولة له

بقلم: رابح لطفي جمعة

كتب الأستاذ رجاء النقاش مقالاً بمجلة الدوحة الغراء عن «الشاعر العاصي ومأساته» تناول فيه بعض جوانب حياة هذا الأديب البائس والشاعر اليائس الذي أقدم على الانتحار في الثلاثينيات من هذا القرن حيث مات في حجرته محترقاً بلهيب النار التي اندلعت في الحجرة واستمرت في اشتعالها البطيء أكثر من أربع وعشرين ساعة . وذكر الأستاذ النقاش أن مؤرخ حياته الوحيد محمد محمود زيتون قال إنه كان قد دهن جسمه بمادة كاوية لعلها ما نسميه بماء النار ثم آوى إلى فراشه ، وظلت هذه المادة تأكل جسمه بالتدريج وتحرق الفراش ببطء حتى قضت على الشاعر وأحالته فحمة محترقة ، وكان إذ ذاك في السابعة والعشرين من عمره وكان قد أصدر ديواناً واحداً من الشعر أسماه «ديوان العاصي» وأصدر رواية واحدة أيضاً اسمها «غادة لبنان» .

وقد اهتم الأستاذ رجاء النقاش بإلقاء بعض الأضواء على حياة هذا الشاعر ونشأته وتعليمه وأزمته النفسية لما يمثله أدبه من تجربة حية نادرة شديدة الصدق . فقال إنه ولد سنة ١٩٠٣ بمدينة فارسكور وماتت أمه وهو في السادسة من عمره وتزوج والده بغير أمه وبعد أن تلقى تعليمه الابتدائي والثانوي دخل كلية الطب إلا أنه أصيب وهو في السنة الثالثة بالكلية بأزمة نفسية فسافر إلى لبنان حيث أمضى بها ثلاثة أشهر عاد بعدها إلى مصر وقرر ترك دراسة الطب واتجه إلى كلية الآداب حيث التحق بقسم الفلسفة حتى حصل على ليسانس الفلسفة سنة ١٩٢٩ .

وإن كان لنا أن نضيف شيئاً إلى ما جاء بمقال الأستاذ رجاء النقاش خدمة للأدب والتاريخ فنقول إن أول من كتب عن هذا الشاعر ومأساته هو محمد لطفي جمعه حيث كتب سنة ١٩٣٠ فصولاً ضافية بجريدة «المساء» عقب وفاة الشاعر تناول فيها بالتحليل والدراسة حياة العاصي وأزمته الفاجعة وألقى الأضواء على فكرة الموت التي سيطرت على ذهنه وعقله وظلت تراوده وتساوره ويعبر عنها في كل ما كتب من شعر وقصة حتى أقدم على تنفيذها .

وقد تحدث لطفي جمعه في هذه الدراسة عن تأثر العاصي بكتابات الشاعر اللاتيني لوكريس (٩٥ — ٥٣ قبل الميلاد) صاحب ديوان «عن طبيعة الأشياء» ، فقد وضع العاصي خطاً أحمر تحت بيت الشاعر اللاتيني الذي يقول فيه «عندما يصيبنا الانحلال الذي ندعوه موتاً فمثلنا كالنبيذ الذي فارقه عطره أو كالطيب الذى طار عبقه» .

ويذكر الأستاذ رجاء النقاش أن العاصي كتب الرسالة التالية على الصفحة الأولى من كتاب شيشرون المعروف باسم «كتابات من روما» — «إلى من يهمهم أمرى . جبان من يخشى الموت ومن لا يرحب بهذا الملك الكريم الذى هو لى كالرائحة الزكية» . ومعنى هذا أن الموت عند العاصي جميل ويجب على الإنسان أن يسعى إليه وأن يصبح عاشقاً له .

أسباب انتحار العاصي

وقد حاول الأستاذ رجاء النقاش أن يتعرف على أسباب إقدام العاصي على الانتحار وتحليل موقفه من الحياة ونظرته إلى الموت فذكر أن أول هذه الأسباب هو حرمانه من الأم في طفولته فقد ترك هذا الحادث أثراً عميقاً على شخصيته ودفعه إلى الدخول في عالمه الخاص وعمق لديه الإحساس بالوحدة وبعمق مأساة الحياة كما عبر عن ذلك تعبيراً شعريا مباشراً في كثير من قصائده . أما السبب الثاني فهو دراسته الفلسفة واستعداده للقلق مما طرح في أعماقه أسئلة كثيرة عن مشكلة الموت والمصير.

ولا شك عندنا في صدق حدس الأستاذ النقاش حول السبب الرئيسي لإقدام العاصي على الانتحار وهو حرمانه من عطف الأم وزواج والده بغير أمه وبالتالي شعوره بالوحدة وإحساسه بالضياع .

رواية تفسر المأساة

يؤكد ذلك أن العاصي لم يؤلف رواية واحدة فقط هي « غادة لبنان » كما جاء في دراسة الأستاذ زيتون عنه وإنما له رواية أخرى لازالت مخطوطة بخطه موجودة لدى بين ما تركه لطفي جمعه هي رواية « الأديب المنكود » وقد بدأها العاصي سنة ١٩٢٥ وأتمها سنة ١٩٣٠ وقال في مقدمتها ما يلي :

> « أيها القارىء . كتبت هذه الرواية سنة خمسة وعشرين ثم شغلتني عنها الشواغل الحين بعد الحين حتى عدت إليها اليوم وأعملت فيها قلمي فهذبتها ورأيت أن أطلع الغير معي عليها فنشرتها فإن كان فيها نفع لطالب أو عظة لراغب كنت قد أديت بعض الواجب والسلام »
> أحمد العاصي ٢٠ مارس سنة ١٩٣٠

وتدور أحداث هذه الرواية في إيجاز شديد حول أديب اسمه « الوحيد » ماتت أمه عقب ولادته مباشرة فتشاءم الكثيرون منه ومن بينهم والده الذي دفع به إلى مرضع قاسية القلب متحجرة العواطف ، ثم تزوج بأرملة لها طفلة



صورة نادرة للشاعر أحمد العاصي الذي انتحر سنة ١٩٣٠

تحليل أعمال الأدباء المنتحرين

ولقد حاول النقاد أن يستخدموا منهج النقد الأدبي القائم على التحليل النفسي « Psychocritique » لدراسة الأعمال الأدبية للأدباء الذين أقدموا على الانتحار للوقوف منها على أسباب انتحارهم ، اعتباراً بأن كل ما يصدر عن الانسان إنما يعبر ويرمز إلى مكوناته النفسية وأعماقه اللاشعورية كما فعل البعض بالنسبة للأديبة الانجليزية فيرجينيا وولف (١٨٨٢ ـ ١٩٤١) والأديب الامريكي ارنست هيمنجواي (١٨٨٩ ـ ١٩٦١) اللذين ماتا منتحرين . فتناولوا بعض أعمال هذين الأديبين الروائية بالتحليل والتفسير مستخدمين منهج التحليل النفسي .

وإذا كان هناك فرق كبير بين الانتحار والموت الطبيعي فإن أول ما يثور من اسئلة عندما يقدم أديب على الانتحار هو معرفة سبب انتحاره .

الشـــاعـــر

أحمد العاصي

صغيرة من زوجها الأول تدعى «علياء». ونشأ الوحيد في حجر المرضع محروماً من حنان الأم وعطف الأب. ثم أعادته المرضع لأبيه بعد أن وقر في ذهنها من بعض الأحداث أنه «ولد مشئوم منكود» ولكن الطفلة أقبلت على الوحيد تلعب وتلهو معه وتوثقت بينهما العلاقة بمرور الأيام بينما لم يجد من والده إلا الإهمال والإعراض عنه ومن زوجة أبيه سوء المعاملة. ودخل الوحيد المدرسة حتى أتم مراحلها بعد أن لقي صنوفاً من العنت والاضطهاد مما «ملأ نفسه نقمة وحسرة وجعله مزورا عن الجميع» ويقرر الوحيد أن يعيش وحيداً لا يقترن بزوجة ولا يبعث إلى العالم بأبناء ربما نالهم من الاضطهاد والظلم ما ناله ويتجه إلى الأدب وكتابة الشعر والقصة ويفاتح علياء فيما عزم عليه أمره ثم يرحل عن قريته وهو يقول «إليك عني أيها البلد الذي لم ترني لذة الطفولة ولا مرح الصبا ولم تمنحني عطف الأم ولا حنان الأب ولم ترني أحداً من ذويّ حادباً عليّ». وتمضي أحداث الرواية ويقيم الوحيد بمنزل رجل يمتلك صحيفة يومية يعمل بها محرراً وتسوء حالة الفتاة علياء وترفض كل من يتقدم للزواج منها وينزل بها المرض ويذوى جسمها وتذبل زهرتها ثم لا يلبث والد الوحيد أن يموت. ويفكر الوحيد في حياته ووحدته وخطته التي سلكها في الحياة وكيف أنها ضد الطبيعة البشرية فلا تروقه الحياة التي يحياها ويقرر أن «ينغمس في اللذات أياً كان سبيلها وينتهب المتعة أياً كان نوعها». أما علياء فقد ذبل عودها وذوى جسمها وفاتها الزمن الذى يطمع فيه مثلها في الاقتران.

واضمحلت صحة الوحيد وأصيب بذات القلب فصمم على أن يقضى بقية حياته في غرفته معتزلاً جميع الناس ولذات الحياة. ويهتف به هاتف ذات يوم أن يزور علياء فينهض ليبحث عنها في بلدتها ويهتدى إلى الدار ويطرق بابها فينفرج عن عجوز يعرف فيها علياء فيعانقها عناقا طويلا ثم يعلم أن والدتها قد توفيت ويقترح عليها أن ترحل معه ليعيشا في قريته بعيدين عن الأنظار، وتوافق علياء على اقتراحه على أن تلحق به بعد أن تهيىء نفسها للرحيل.

وعاد الوحيد إلى قريته متضعضع الجسم منهوك القوى ولاح أمام عينيه شبح الموت يغدو ويروح في الغرفة فخشى أن ينقض عليه قبل وداع علياء، ولكن ملك الموت أخذ يرفرف في الحجرة بجناحيه وأخذ الوحيد ينتزع من نفسه كلمة كلمة ليسمعها صديقه صاحب الجريدة ويقول له:

«لقد كنت مضطهداً من يوم قدمت هذا الوجود وسخرت في الحياة وكان أول اضطهاد نالني أن اختطف الموت والدتى ولم أنعم بحنانها ولم أتذوق عطفها ثم رميت إلى مرضع لقيت بجانبها الهم والأسى ثم ألقيت في منزل أبى فلم ألق إلا الجفاء ثم برمت بالناس جميعاً وقضيت دراستى وما بعد دراستى وأنا لا ألتصق بهم فليس في الناس إلا خائن غدار ثم أنضجني الزمن قبل أواني فرأيت أن أحيا وحيدا في الحياة وكنت أجد من نفسي ولعاً بالكتابة فاتخذتها مهنتي... وغلبتني على قلبي فتاة نشأت وإياها في منزل واحد ولم يعطف عليّ في الحياة سواها وأحبتني حيث كنت لاهيا بوضع خطتي الشاذة في الحياة فهجرتها هجراً غير جميل وقمت بخطتى إلا أن نزعات الجسم ومطالب النفس غلبتنى على أمرى فوهنت إرادتى وأنا أودع الشباب وغمست نفسي في جوض اللذات فأنهكت قواى وما كنت أبقى على شيء في يدى لأنى لا حاجة بى إلى شيء ثم أحاطت بى الأمراض وقهرني داء القلب وعزلنى في منزلى ثم تقويت عليه بعض الشيء وذهبت لأبحث عن حبيبتى وسر وجدى فلقيتها قد بقيت على الحب والوفاء فانصب الهم في نفسى من أجلها انصباباً ثم اتفقنا أن تأتى لتشاركنى فيما بقى لى من أيام الحياة إلا أنه يظهر أن الموت سيغلبنى على أمرى...»

ولا يلبث الوحيد أن يقضى نحبه وفي تلك اللحظة تقبل علياء ولكن بعد أن قضى الأمر وودع الوحيد الحياة ثم لا تلبث علياء أن تموت هى الأخرى وترقد بجوار حبيبها «فقد جمعهما الموت بعد أن فرقتهما الحياة»!

وهذه الرواية تلقى أضواء كثيرة على أسباب إقدام العاصى على الانتحار وخاصة تركيزه على حرمان البطل فيها من حنان الأم وعطف الأب وشعوره بالاضطهاد وامتلاء نفسه بالحسرة والنقمة وعزوفه عن الزواج وتكوين أسرة وإنجاب أبناء قد يلقون في الحياة ما لقي أبوهم من عذاب.

خطابان يتضمنان أسباباً أخرى لانتحار الشاعر

ولكن شخصاً اسمه رفعت عماد الدين الملوانى أرسل إلى لطفى جمعه خطاباً سنة ١٩٣٠ زعم فيه أن العاصى أقدم على قتل نفسه بسبب اضطراب نفسانى وأن الاطلاع على رواية «غادة لبنان» يوضح أثر هذا الاضطراب واضحاً ويزعم كاتب الخطاب أن أهم أسباب هذا الاضطراب النفسى هو النقص في الجسم ويقول:

«وأظن ـ وظنى يقارب العقيدة ـ أن أحمد العاصى ما اختار لموته إلا طريقة تخفى عن الأعين هذا النقص الجسمانى... والعاصى لم يقدر أن ينشد الحب واللذة بسبب نقصه الجسمانى وكانت النتيجة أن استولت عليه فكرة الموت... وأذكر أنك دونت في أحد أبحاثك عن العاصى تضجره من علم التشريح عندما كان طالب طب. وعندى أن هذا التبرم جاء من اشمئزازه من جسمه... وقد شهد الأستاذ محمود صادق وكيل أمين المكتبة أن العاصى كان متبرماً بالحياة لأسباب مجهولة وكان العاصى مسروراً مستبشراً قبل موته بقليل، وهذا يدل على اضطرابه النفسانى... وهذا الاضطراب نتيجة لنقص جسمانى. فأحمد كان يعيش لوحده في القاهرة فماذا كان يمنعه من أن يتمتع بقوة شبابه؟ ولِمَ اختار الأرملة القبيحة الشكل كخادمة؟ ولم اطلع أنه ابتلى بعاطفة لقي فيها خيبة لا في شعره ولا في حياته الخاصة وزبدة القول إننى أرى أن أحمد العاصى انتحر

بخط أحمد العاصي

بعدما عانى ماعانى من اضطرابه النفسانى الذى أمرضه وهذا الاضطراب نتيجة لنقص فى الجسم » .

كذلك هناك شخص آخر يدعى سيد على أرسل خطاباً إلى لطفى جمعه بمناسبة مقالاته عن أحمد العاصى يذكر فيه سبباً آخر لانتحار الشاعر يقول فيه :

« إن هناك سراً من الأسرار النفسية جداً لم يعلمها أحد مطلقاً إلا بعض أفراد لا يزيدون على أصابع اليد وأولئك هم الذين يعلمون مبدأ تكوين أو غرس فكرة الموت عند المرحوم العاصى .

ويرجع تاريخ هذه الفكرة التى غرسها فى نفسه وقواها عنده إنسان عادى يشتغل الآن بالمعرض الزراعى الصناعى ويعتبر هذا الإنسان المصدر الوحيد فى زعزعة أفكار الشباب وإلباسهم سواد المبادىء ولا يزال بهم حتى يعترفوا بأن الموت غاية الحياة والوسيلة التى يسعى إليها كل إنسان . وقد يعلم ذلك الأديب الذى يعيش بيننا اليوم كثيرا أو قليلا من الأسرار ولكنها تعتبر من أدق المصادر فى تاريخ أحمد العاصى ... هذا الأديب لم أكتب لك عنه إلا بعد أن تأكدت أنه يشتغل الآن بالجمعية الزراعية الملكية وهو محمود العزب موسى (١) فلعلك تقدر ما قد كتبت للحقيقة والتاريخ » .

ونحن إذ ننشر أهم ما جاء بهذين الخطابين بخصوص الأسباب التى دفعت بأحمد العاصى إلى الإقدام على الانتحار ، لا نستطيع أن نتناولهما بالتعليق كما لا نستطيع أن نتبين مقدار الصحة فيهما ، فأولهما يشير إلى إصابة العاصى باضطراب نفسانى نتيجة لنقص جسمانى ، فى حين أن الخطاب الثانى يعزو غرس فكرة الانتحار وترسيخها فى ذهن العاصى إلى موظف شاذ التفكير بالجمعية الزراعية الملكية .

شهادة من زميل العاصى فى العمل

ولكننا نشير فى هذا الصدد إلى أن أمين مكتبة الجامعة المصرية التى كان العاصى يعمل بها أرسل خطاباً لمدير الجامعة فى ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٣٠ يطلب فيه صرف مرتب شهر لتشييع جنازة العاصى وقد جاء فى هذا الخطاب :

« إن المرحوم أحمد أفندى السعيد العاصى الموظف بمكتبة الجامعة قد توفى أمس محترقاً بمنزله فى ظروف تثير أشد مشاعر الأسف والحزن حيث قضى وحيدا بعيداً عن أهله وذويه حتى أتاحت الصدفة العثور على جثته هامدة بعد أن أخذت منها النيران كل مأخذ وقد بادرت بالقيام باسم الجامعة بكل واجب تقتضيه هذه الظروف المحزنة بالنسبة لأحد موظفيها عرف بكرم النفس ودماثة الخلق والوداعة ولين الجانب والجد والاستقامة فى عمله والأمانة والإخلاص فى معاملته فضلا عما كان عليه من مواهب جديرة بالتقدير من علم وسعة فى الأدب والاطلاع بما يشهد بها ديوان شعره المهدى إلى المكتبة وغيره من المؤلفات والبحوث القيمة . والفقيد حاصل على إجازة الليسانس بقسم الفلسفة عام ١٩٢٩ والتحق بخدمة المكتبة منذ شهر ديسمبر سنة ١٩٢٩ واستمر قائما بعمله على أتم ما يجب القيام به حتى وافاه القدر المحتوم أمس بعد أن انقطع عن العمل منذ الثالث والعشرين من هذا الشهر [سبتمبر سنة ١٩٣٠] » .

أدب العاصـــى

أما عن أدب العاصى — شعره وروايتيه غادة لبنان والأديب المنكود — فليس هذا المقال محل الحديث عنه ، وحسبنا أن نشير فى هذا الصدد إلى أن أمير الشعراء أحمد شوقى نظم قصيدة فى تقريظ شعره . كما أن العاصى شدّ انتباه الأستاذ الأديب الناقد رجاء النقاش لما يمثله أدبه من تجربة حية نادرة شديدة الصدق أمينة على ما كان يعانيه الجيل الرومانسى العربى من آلام بالغة العمق والصدق .

ومن قبل الأستاذ النقاش شدّ أحمد العاصى بأدبه وحياته القصيرة ومأساته انتباه محمد لطفى جمعه الذى كتب عنه فصولاً ضافية بجريدة المساء حتى لقد نفس بعضهم على العاصى أن يكتب عنه كاتب مثل لطفى جمعه وادّعوا أن لطفى جمعه قد بعثه من العدم وأنه لولا ما كتبه عنه ما كان أحد ليسمع بالعاصى ولا بأدبه فاضطر لطفى جمعه إلى أن يكتب بجريدة المساء يقول : « أرانى مضطراً للتمثل بقول الشاعر : « حتى على الموت لا أخلو من الحسد » ... والتصريح بأن هذا القول صدق وحق وأنه يوجد بين أهل الدنيا أناس يحسدون الموتى على موتهم ! فقد لفت نظرى أحد الأدباء إلى نبذة ... تنتقد المبحث الأدبى الذى عقدته للمرحوم أحمد العاصى ، وادّعى كاتبها أننى بعثته من العدم وأنه لولا ما كتبته ما كان أحد ليسمع بالعاصى وأدبه ... إننى كنت أود أن تطول حياة العاصى وأن يستمر فى عمله وأدبه ولا أحتاج للبحث فى تاريخ حياته وشعره » .

رابح لطفى جمعه

هامـــش

(١) تركنا الاسم كما جاء فى مقالة الأستاذ رابح لطفى جمعة ، حرصا على عدم التدخل فى حرية الكاتب الفاضل ، أما معلوماتنا الخاصة عن الأستاذ محمود العزب موسى ، فهى أنه كان كاتبا وصحفيا معروفا ولامعا فى جيله ، وكانت سمعته طيبة فى جميع جوانب السلوك والعلاقات الانسانية ، وله كتاب مشهور ظهر فى سلسلة اقرأ هو «خرافة من الصحافة» ، وأغلب الظن أن ماجاء عن «محمود العزب موسى» فى المقال إنما هو كلام صادر عن بعض الأشخاص الذين فى نفوسهم هوى خاص .

(الدوحة)



بقلم: عبد الرزاق البصير

لحظات مع السفير اليماني المتجوِّل

كل المثقفين أو معظمهم على الأقل وكل الجماهير العربية أو معظمها على الأقل، ساخطة أشد السخط، على الأوضاع في الوطن العربي. وقد عبر شعراؤها وكتابها عن هذا السخط بأساليب شتى منها المباشر بطريقة قوية يمكن أن توصف بالقسوة، ومنها ما جاء بطريقة غير مباشرة ولكنها واضحة الدلالة. وآخر ماوقفت عليه في هذا الخصوص مقالات ساخرة. سماها كاتبها الأستاذ أحمد العلمي: «قصص ساخرة». وله الحق في أن يسمي ماكتب قصصاً أو مقالات أو غيرها من الأسماء، لأن أديبنا يرى من حقه أن يزعم لنفسه أموراً حتى ولو لم تكن مألوفة.

فقد زعم أنه ولد مرتين! وهذا أسلوب طريف مبتكر ساخر، فهل سمعتم أحداً يزعم لنفسه مثل هذا الزعم؟ ولكن أديبنا نهج هذا النهج ليوضح أن حياة الناس كانت أهنأ قبل قرنين من الزمن، وأسعد مما هي عليه الآن، فإن القلق يسيطر على نفوس الناس لأن الحياة قد تعقدت أعظم التعقيد في هذه الأيام. أما قبل قرنين من الزمن فإنها كانت بسيطة، إذ كان الفرد يفرح حين تلد بقرته (تبيعاً) أكثر مما يفرح في هذه الأيام عندما يظفر بسيارة أنيقة! ويرى مؤلفنا أن نومه على فراش خشن في قريته الصغيرة اليمانية، أكثر راحة من نومه في (شيراتون باريس) التي زارها أكثر من مرة. وهذا رأي قد يروق للكثيرين لشدة مايشعرون به من إنزعاج جعلهم كارهين لهذه الحياة.

ولكن مما لاشك فيه أن لكل عصر حسناته وسيئاته، فإننا في هذه الأيام نحيا حياة تكتنفها الأخطار، وهي تزداد في كل يوم، وهذه الأخطار تصدر عن هذه الأدوات التي سهلت لنا الحياة كالسيارات والطائرات، اننا نشاهدها تحصد كثيراً من الأرواح. ولكننا مع ذلك لانستطيع أن نستغنى عن إصطناعها. والذى يزيدنا كراهية لحياتنا أن البعض منا يصطنع العنف للتعبير عن رفضه وسخطه معتمداً على العلم غير مبال بما يشيعه من رعب في نفوس بريئة لاناقة لهم فيها ولا جمل كما يقولون كاختطاف الطائرات وزرع المتفجرات في صورة حقائب وأقلام ورسائل وما الى ذلك من أمور لاتكاد تخطر على البال حتى صار الانسان يتوقع كل شيء. ولكن هذا كله ينبغي ألاّ ينسينا ماكان يعانيه الناس فيما مضى من الزمان. ولعلّ أستاذنا العلمي كاتب هذه القصص الساخرة من أعظم الناس معرفة، أو إن شئت الدقة في التعبير فقل إنه من أشد الناس معاناة لهذا اللون القاتم من الحياة. لكن الفنان يسعى دائماً إلى الأفضل. لذلك نجد أديبنا يضيق أشد الضيق بالنظم التي لا تعتمد على عقل أو منطق، وإنما تعتمد على تقليد أجوف لاعتقاد أصحابه أن ذلك من نهج الحضارة الحديثة. وأديبنا يرسم لهذا التقليد صوراً طريفة يجعل قارئها ينجذب إليه، لما فيها من حرارة الصدق والواقعية.

من هذه الصور ماحدث له حينما أراد أن يلقح نفسه، ضد بعض الأمراض، فلا تسأل عما حدث له من تعب وإرهاق، فقد ذهب إلى مركز صحة العاصمة وقدم بطاقة الصحة الدولية، وإذا بالموظف يقول له: ينبغي أن يكون معك الآن واحد وعشرون شخصاً لأن علبة اللقاح مخصصة لهذا العدد من الناس، وإذا فتحت لأقل من هذا العدد، فسد مابقي منها ونحن لا نستطيع إلا أن نحافظ على أموال المواطنين. أما إذا أردت أن تتخطى هذا النظام فإن عليك أن تذهب إلى المدير. فذهب أديبنا



إلى المدير، فقيل له إنه خارج ليوصل إبنته إلى المدرسة. وذهب إلى نائبه فوجده مشغولا عنه. وهكذا اضطر إلى أن يقضي عدة أيام في الذهاب من دائرة إلى دائرة، ولم ينقذه من هذا التعب إلا سائق تاكسي الذي أخذ بطاقته وجاء بها مختومة من غير تلقيح. وقد عارض أديبنا هذه الطريقة لأنها تعرض صحة المجتمع إلى الخطر، ثم ان الرشوة والواسطة سموم تهدم المجتمع.

ومن هذه الصور قصة تروي لنا حكاية نابغة عربي عرضت عليه جامعات أوروبية وأمريكية أن يعمل لديها. ولكن أبى أن يستجيب، لإيمانه أن واجبه الوطني يحتم عليه أن يعمل في وطنه. خاصة بعد ماتلقى دعوة من رئيس حكومته، يدعوه بالحاح إلى القدوم فاستجاب للدعوة مصطحباً زوجته وإبنته ولاتسل عما حدث له من مضايقات جعلته غير قادر على البقاء في بلاده، لأنه وجد نفسه في سجن معنوي يفرض عليه قيوداً تمنعه عن العمل في الميدان المتخصص فيه.

ولا ينسى أديبنا أن يرسم صورة تشتمل على ماينشأ من رعب في النفوس، عندما يسخر من لا ضمير له بأن يزرع لغماً في حافلة، أو قطار أو طائرة مما يودي بحياة أناس بريئين. وكثيراً مايكون فيهم شيوخ، وأطفال رضع. وهذه ظاهرة لم تعرفها العصور السابقة. وعلى كل حال فإن هذه الصورة تكمن في أن أباً سعيداً بعائلته، عاد ذات يوم من عمله وكان يشعر بضيق شديد، لايعرف مصدره وإذا بالخبر يأتيه بأن الحافلة التي فيها بعض أبنائه قد اصطدمت بلغم وهي في طريقها من المدرسة إصطداماً مزق جميع ركابها أشلاء. ولفداحة المصيبة فقد صوابه. فصار يلملم الأشلاء ويقبلها وتجمدت الدماء على شفتيه ووجهه ويديه وثيابه. وقد بلغ من أمره أنه تأثر تأثراً بليغاً، إضطر أقاربه إلى أن يأخذوه إلى مستشفى الأمراض النفسية، حيث بقي إلى أن شفي من علته. ثم حدث أن اثنين من أبنائه أخذا يتحاوران في المحاضرة التي سمعاها في الجامعة عن بشاعة القنبلة الهيدروجينية، وأن أحد العلماء السويسريين اخترع مصلاً بعد دراسة استغرقت أربعين سنة، وهذا المصل ضد الحماقة البشرية. وقد ذهب ذلك العالم السويسري بهذا الاختراع إلى هيئة الأمم المتحدة. فأقر مجلس الأمن أن يلقح زعماء بعض الدول بذلك المصل. لكن الولايات المتحدة الأمريكية استعملت حق «الفيتو»، فندد مندوب روسيا بالمعارضة الأمريكية. ولما رجعت أمريكا عن معارضتها، إستعملت روسيا حق «الفيتو» لكي لاتكون لأمريكا صورة مقبولة في نفوس العالم، عندها جُنَّ ذلك الأب المسكين ونقل إلى مستشفى الأمراض العقلية فلم يجدوا له مكاناً لكثرة المرضى.

وبقي عليَّ أن أشير إلى أني أوجزت القول ايجازاً شديداً لأني أقصد أن أشوق القارئ إلى الوقوف على هذه الصور الرائعة التي رسمها قلم هذا الكاتب الشاعر الذي ناضل في سبيل وطنه وأمته العربية قرابة نصف قرن من الزمن. ومايزال قلمه يفيض بالتعبير عن الأغلبية الصامتة شعراً ونثراً. ومن بديع قدرة هذا الكاتب أنه يعطي كل قضية أسلوبها المناسب لها، فهو في هذه المجموعة القصصية يصطنع أسلوباً مبسطاً يصلح لعامة الناس ليثير في نفوسهم مايضيق به من تعقيدات في كثير من الإدارات والمؤسسات. وفيما يحيط بالبشرية من أخطار تهدد حياة الجميع. على أنك ملاق في هذه القصص الشعبية إشارات إلى بعض القضايا الفلسفية يصبها في قالب قصصي مبسط ليغرسها في نفوس عامة الناس.

تصحيح
مفاهيم
خاطئة

قصة المطابع الأولى في العالم العربي

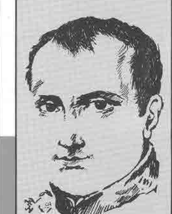
بقلم: الدكتور السيد فهمي الشناوي

هناك مبالغة عظيمة تصل إلى درجة الوهم فى تقييم أثر حملة نابليون على مصر واعتبارها عاملا أساسيا فى النهضة العربية فى القرن ١٩ . وأصل هذا الرأى فرنسى نشره بيننا من تعلم فى المدارس الفرنسية أو من كان غافلا حتى بهرته أوروبا أو من كان طائش الفكر. وحتى هؤلاء فإنهم يتعصبون للبلد الذى ينتمون إليه أو المدرسة التى تعلموا بها أو الأمة الأجنبية التى أحبوا آدابها . فالذى تعلم منهم فى المدارس اليسوعية ينسب إحياء الأدب العربى إلى مدرستهم ومطبعتهم ، والذى تعلم عند الأمريكان ينسبه إلى الكلية السورية الأنجيلية (الجامعة الأمريكية ببيروت فيما بعد) وإلى المطبعة الأمريكية ، وجميع هؤلاء وهؤلاء يتسون المدارس الوطنية سواء كانت اسلامية أو مسيحية وينسون المطابع الوطنية . ولو أنصفوا لقالوا إن النهضة تعود إلى عوامل عديدة ومدارس عديدة ومطابع عديدة أقلها جدا هى الأجنبية كما سنبين بعد حين .

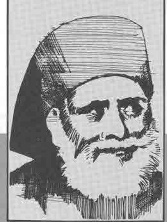
ويبالغ البعض فى تقدير قيمة المعهد الفرنسى وعلماء الحملة الفرنسية الذين استصحبهم نابليون . وغاب عنهم أن هذا المعهد وبحوث هؤلاء العلماء كانت بغرض زيادة معرفتهم ومعرفة فرنسا ومعرفة أوروبا بمصر ولكنهم لم يزيدوا المصريين معرفة لا بأنفسهم ولا بالتمدن الأوربى .

وهؤلاء الذين يكررون القول دون تحقق بأن الحملة الفرنسية كانت عامل النهضة الشرقية لا يسألون أنفسهم هل كانت هى عامل النهضة الأوربية نحو الاستعمار وغزو الشرق ، وهل يعقل أن تسبب هذه الحملة يقظة حضارية مع أنها دامت فى مصر أقل من ثلاث سنوات ، وفى الشام أقل من أربعة شهور ، وأن هذه المدة القصيرة جدا استغرقت كلها في ثورات وحروب وطاعون وأوبئة ؟ إن الادعاء الجوهرى والأساسي لدى أصحاب هذا الرأى أو هذه النظرية هو القول بأن التحرر من النفوذ العثمانى والاستقلال العربى عنه ومن ثم بناء الكيان العربى المستقل والشخصية العربية والقومية العربية المستقلة إنما يعود إلى الاهتمام باللغة العربية . ذلك الاهتمام الذى يرجعونه إلى المطابع العربية الأولى وإلى المبشرين الأولين فى المنطقة ، وأن هذا كله كان الشرارة الأولى التى أوقدت بعد ذلك الوطنيات المختلفة والتى انبعثت منها القومية العربية والصحوة العربية والأحزاب المعاصرة فى كل بلدان الوطن العربى المعاصر. وتكررت هذه الدعاوى فى كثير من الكتب فى الشرق والغرب وفى كثير من المؤلفات وكثير جدا من الرسائل الجامعية . وصادف هذا توقيتا كان قد بدأت فيه الحركات الوطنية جهادها المقدس للتحرر من الاستعمار ، مما ولد مولودا مشوها بعد الاستقلال وهو أن هذه المجتمعات بعد الاستقلال ظلت مرتبطة وخاضعة وتابعة ذهنيا وثقافيا وسياسيا واقتصاديا للغرب .

وكمثال لتوضيح ذلك نقول إنه فى عام ١٩٣٤ أصدرت المطبعة الأمريكية رسالة ، بمناسبة مرور ١٠٠ سنة على نقلها من مالطة إلى بيروت ، جاء فيها أن المطبعة خصصت لخدمة اللغة العربية فى وقت كانت فيه صناعة الطباعة مجهولة فى البلاد ، وأن المطبعة كانت العامل الأول فى اليقظة والصحوة من الرقاد الطويل وفى النهضة الأدبية المعاصرة فى الشرق الأدنى . وفى سنة ١٩٤١ كتب « ستيفن بنروز » رئيس الجامعة الأمريكية فى بيروت كتابا عن قصة الجامعة هذه ، فقال إن هذه



نابليون



محمد علي باشا

جرجي زيدان

المطبعة مع غيرها من نشاطات المبشرين والأمريكان قد أحيت الثقافة العربية التى كانت على زعمه منسية !

ويرد نفس هذا الشيء فى سجلات المبشرين الأمريكان المحفوظة فى جامعة هارفارد وفى مقر جمعيتهم فى مدينة بوسطن ، ونيويورك ، ومن هارفارد ينعكس هذا الزعم فى كثير من الكتب والمحاضرات الجامعية والرسائل الجامعية . وتجدر الاشارة أنهم فى هذه الأوساط الجامعية لا يشيرون إشارة واحدة إلى جهود المبشرين الانجليز مثلا . والعكس بالعكس .

وإذا كان هذا هو الحال مع هذه المراكز العلمية « العريقة » فى الغرب ، فإن تطبيل بعض كتابنا العرب على هذه النغمة لا ينقطع ، ويؤسفنى ألا أذكرهم بالاسم لسيطرتهم الحالية على مراكز الثقافة والنشر فى العالم العربى وأدع ذكرهم لفطنة القارىء .

إذن هم يقولون ويقول وراءهم الكثير منا ان الطباعة كانت مجهولة عندما أسس الأمريكان مطبعتهم فى بيروت أو عندما أحضر نابليون مطبعته مع الحملة الفرنسية . دعنا نبحث : ان أول حروف طباعة عربية ظهرت فى بلدة فانو فى ايطاليا فى القرن السادس عشر (لغاية الآن ليس لايطاليا بيننا من يدعو لها !) ثم انتشرت من فانو إلى بلدان أخرى فى أوروبا . وكانت الغاية الوحيدة منها هى نشر الكتاب المقدس فقط . ثم انتقل فن الطباعة إلى عاصمة السلطنة العثمانية ثم الشام فى حلب ولبنان ، وكانت تستعمل لأغراض دينية فى الغالب .

وفى اسطنبول كانت أول المطابع فى أيدى المسيحيين واليهود لنفس السبب السابق . ثم صدرت إرادة سلطانية وفتوى شيخ الاسلام اشترط فيهما عدم جواز طبع القرآن أو الحديث أو التفسير . ثم بعد فترة أخرى صدرت إرادة وفتوى بجواز ذلك كله . وهذه الإرادة والفتوى الأخيرة ، فضلا عن سابقتها قد صدرت قبل حملة نابليون . أى أنه كان هناك حرية طباعة كاملة شاملة قبل مجيء مطبعة نابليون . وكانت هذه الطباعة خالية من أى رقابة أو رقيب .

وكانت مطبعة محمد على باشا فى بولاق عام ١٨٢٠ أول مطبعة جديثة على نطاق كبير جدا بمقاييس تلك الأيام . ولم يكن لينشئها بهذا الحجم وهذه القدرة ما لم تكن الطباعة وصلت إلى شوط بعيد .

ومن أول يوم طبعت هذه المطبعة البولاقية كتبا كثيرة دينية ولغوية وأدبية وعلمية باللغة العربية واللغة التركية واللغة الفارسية واللغات الأخرى الأوروبية .

وحتى أوائل القرن التاسع عشر ، إذا استثنينا الكتب أو الكتيبات المتداولة بين الطوائف المسيحية وكلها كتب دينية فقط ، نجد أن معظم الكتب الأخرى باللغة العربية كانت تصدر من مطابع اسطنبول والقاهرة . وقليل منها صادر من مطابع شرق أوروبا . وظل هذا الوضع حتى منتصف القرن التاسع عشر هو الوضع السائد . ولم يصدر من المطبعة الأمريكية ولا من المطبعة اليسوعية شيء من الكتب العربية أو آدابها أو ثقافتها أو الدين الاسلامى حتى ذلك الحين .

تقييم الكتب

دعنا الآن نقارن بين الكتب التى طبعتها مطابع اسطنبول وكتب مطابع بيروت ومالطة الأولى : الكتب الأخيرة غير موجودة فى دور الكتب العامة ، ولكنها محفوظة فى سجلات المبشرين فى أمريكا (هارفارد ، بوسطن ، نيويورك) وفى انجلترا (المتحف

● الحملة الفرنسية دامت أقل من ثلاث سنوات فى مصر وأقل من أربعة شهور فى الشام ، فكيف تكون هذه الحملة سببا لنهضة العرب ؟

● العلماء الفرنسيون كانوا يعملون على زيادة معرفة فرنسا وأوروبا بالشرق ، ولم يكن من أهدافهم زيادة معرفة العرب بأنفسهم أو بالتمدن الغربي

قصة المطابع الأولى في العالم العربي

البريطاني) . وتنحصر هذه الكتب في الآتي :

١ ـ كتب دينية تبشيرية مثل : الابن الضال المهتدى (طبع مالطة ١٨٣١) وكتاب تعليم مسيحي (بيروت ١٨٤٢) وكتاب ذخيرة الايمان (بيروت ١٨٤٣) وكتاب نبذة المرأة على البير (لا ذكر لمكان ولا سنة الطبع) وهو عن قصة الاصحاح ٤ من انجيل يوحنا .

٢ ـ كتب تعليم القراءة ولكن لأغراض دينية ومن خلال الدين المسيحي : كتاب تعليم القراءة للأطفال الصغار (مالطة ١٩٢٨) وكتاب تعليم القراءة (بيروت ١٨٤٦) وكل ما في هذه الكتب التعليمية هو عن نص الصلاة الربانية والوصايا العشر والمزامير وأقوال لموسى وسليمان والمسيح عليهم السلام .

٣ ـ كتاب خبرية أسعد الشدياق وهو عن كيفية اعتناق أسعد الشدياق مذهب البروتستانت وسبب تركه لمذهب أهله .

وحتى هذه المطبوعات المحدودة نوعا وكمية يبدو من التجاوز تسميتها باسم « كتب » لأن كل واحد منها يتراوح بين ١٦ صفحة إلى ٧٠ . وبعضها يدل على مستوى تفكير مؤلفها : في كتاب تعليم القراءة للأطفال الصغار يورد هذه القصة : « حمارا اشتكى بأن لا قرون له . فاشتكى القرد أيضا بأن لا ذنب له فقال لهما الخلد أما تنظرانى بلا عينين . هذا يعلمنا بأنا إذا لم نقنع بحظنا فننظر أولئك الذين هم أقل منا فنصير قنوعين » .

هذه أمثلة تفصيلية من مادة هذه الكتب وهذه المطابع التى ينسبون إليها نهضة الشرق الحديثة !!!

ولنتتبع نفس هذه المطابع وهذه الكتب حتى بعد ظهور محمد على باشا وحكمه لسوريا : كتاب تواريخ مختصر ينبى عن ممالك وبلاد عديدة (١٣٦ ص طبع سنة ١٨٣٣ وسوريا تحت حكم محمد على) هذا الكتاب بطريقة السؤال والجواب يبدأ بمملكة بابل وينتهى بتاريخ بريطانيا وأمريكا . ص ١٨ ـ ١٩ عن سوريا .

س : متى رفعوا أيديهم الرومانيون عن هذه المملكة ؟

ج : في سنة ٦٤٠ لما غزوا عليها العرب . لكنهم ما قدروا على امتلاكها (هكذا ؟؟) من أجل أن نصارى أهل تلك البلاد اشتعلوا حمية وقاموا عليهم (أى على العرب) وضربوهم وخلصوا القرا (بقصد القرى) من أياديهم . وفى انتها (يقصد انتهاء) الدهر الثانى عشر اجتهدوا وفكوا اورشليم من يدهم (!) وفى سنة ١٧١٨ مسيحية انثنوا عليها العرب أيضا بقوة سلاطينهم وفتحوها وتسلطوا عليها(!) وبعد ذلك تسلط آل عثمان . والآن خاضعة لمملكة مصر .

وأما عن تاريخ فلسطين (ص ١٩ ـ ٢٢) فيقول الكتاب « لما ضعفت قوة الرومانيين واضمحلت مملكتهم انطلقوا إليها جيوش آل عثمان وفتحوها (هكذا ليس للعرب أى وجود ما بين الرومان والعثمانيين !!!) ولأجل أنهم جاروا على نصارى تلك البلاد وظلموهم ارسلوا ملوك أوربا جيوشا وافرة صحبة كودفرى رئيس العساكر الذى اختار فيما بعد وصار ملكا على مدينة أورشليم . وضربوهم وأخرجوهم من تلك البلاد (!) بالكلية . وكان خروجهم منها فى سنة ١٠٩٩ مسيحية وفى سنة ١٠٦٨ التفتوا إليها وحاصروها وتملكوها والآن هى تحت حكم مملكة مصر !!! » .

هذا هو كل ما ورد فى كتاب تاريخ من لدن من ينسب اليهم البعض منا أنهم هم مصدر اليقظة العربية الحديثة والفكر العربى واللغة العربية والاستقلال العربى .

قارن هذا الكتاب التاريخى بما كتبه الجبرتى فى نفس الفترة واحكم بنفسك أيها القارىء .

نخلص الى أن أقصى ما أفادت منه هذه الكتب هو تعليم مدارس أولية على أحسن الفروض . وأنها مليئة بالأغلاط اللغوية والإملائية ولغتها سقيمة وتاريخ ماورد فيها يرد الى جهل والى تعصب والى تصميم على طمس الحقيقة وبالتالى فهو خانق لحرية المعرفة وحرية العلم وحرية الثقافة .

إن ضرر هذه الكتب قطعا يفوق فائدتها . وهكذا من المطابع ما يضر أكثر مما ينفع !

ثم من الجدير بالملاحظة أن هذه الكتب كانت قاصرة على مدارس البروتستانت فقط وأن معظم الطوائف الأخرى كانت على خصام معها ، وأن هذه الكتب لم تصل أبدا إلى مدارس المسلمين .

دعنا نقارن هذه الكتب بما أصدرته مطبعة بولاق فى المدة نفسها حتى نعرف مدى صحة مقولة إن الحملة الفرنسية كانت هى مصدر النهضة إلى جانب ما تدعيه نحن من أن نهضة محمد على هى سبب اليقظة . وقبل أن نعرض لهذه الكتب نقول إنها أرسلت إلى سوريا سنة ١٨٣٩ بناء على طلب سوريين فى حلب ودمشق واللاذقية وطرابلس ويافا وغزة كما هو وارد فى قوائم موجودة فى دار الوثائق القومية فى القاهرة ـ وثائق قصر عابدين محفظة رقم ٢٥٧ مع كتاب مؤرخ ٢٤ جمادى الأخرى سنة ١٣٥٥ من شريف باشا حاكم سوريا .

كتاب الحكمة . كتاب الجراحة . كتاب فسيولوجية . كتاب باتولوجية . كتاب الطاعون تطعيم الجدرى تشريح بشرى . القانون البيطرى أقرباذين . كتاب الطبيعة . كتاب جر الأثقال . كتاب المعادن . قانون الصناعة . قانون الزراعة . أصول الهندسة . الهندسة الوصفية . عقرب الساعة . الجغرافية الطبيعية . علم الحساب . اللوغاريتمة . متن الألفية . الكفراوى . ابن عقيل . ابن مالك . جملة النحو . أجرومية . القاموس

أول حروف عربية ظهرت في إيطاليا في القرن السادس عشر

● دعاوى خاطئة تروّجها الجامعات الغربية لإثبات أن نهضة العرب بدأت على أيدي الأجانب

● أمثلة من الكتابات الركيكة التي ينسبون إليها نهضة الشرق

(الفيروزبادى) كليلة ودمنة. كتاب المنطق. رحلة الشيخ رفاعة (الطهطاوى) إنشاء العطار (حسن العطار) تاريخ مصر. تاريخ اسكندر. تاريخ بونابرته تاريخ بنزو (بطرس الأكبر) تاريخ ايتالية. تاريخ أمريكا. قدماء الفلاسفة. التاريخ العام. تاريخ الأديان. هذا الى جانب كتب فارسية وتركية.

مهاترات لا مطبوعات

هناك بيانات سنوية عن مطبوعات المطبعة الأمريكية والمطبعة اليسوعية فى بيروت. وهذه البيانات محفوظة فى المتحف البريطانى. هذه البيانات تكشف عن مهاترات الطرفين. ارسلت المطبعة رسالة بقلم ميخائيل مشاقة الذى اعتنق البروتستانتية هاجم فيها مذهبه القديم فردت المطبعة اليسوعية برسالة عنوانها قوس الحلاقة فى ذقن مشاقة. وفى سنة ١٨٧٦ طبعت المطبعة الأمريكية رسالة وصفها حاكم بيروت المسلم (الذى جاء الغربيون ليثقفوه ويوقظوه) بأنها طعنة لايليق توجيهها الى البطرك المارونى بصفته رجل دين يجب احترامه!!

هؤلاء هم رواد اليقظة! .. ولا تعليق!

أما عن طبع الكتب العلمية والطبية باللغة العربية فلم تنفرد بها المطبعة الأمريكية كما يزعم بعضنا خطأ، بل طبع عدد منها فى المطابع الأهلية لأن ذوي الشأن فى أمريكا أرادوا تخصيص المطبعة لنشر الكتاب المقدس والكتب الدينية والكتب التبشيرية كما ورد فى نص خطاب مؤرخ بتاريخ ١٤ حزيران ١٨٦٨ محفوظ فى مكتبة جامعة هارفارد ABC 16.8.1 Vol 8، يجب حصر عمل المطبعة فى التبشير فقط!!

وفيما عدا الكتب التبشيرية لم تطبع المطبعة الأمريكية سوى خمسة كتب مدرسية فى قواعد العربية والحساب والجغرافيا والجبر والهندسة ثم كتاب فى الكيمياء للدكتور فان ديك على نفقة مؤلفه شخصيا. ثم كتاب فى التشريح وآخر فى الفسيولوجيا للدكتور يوحنا ورتبات. ويجب ملاحظة أن الكتب المصرية سبقت هذه المطبوعات بثلاثين سنة كاملة بمعنى أن فان ديك وورتبات استفادا منها فى المعلومات وفى الترجمة ذاتها الى الألفاظ العربية. (ومن أسف أن أحد أساتذة الطب المصريين وهو الدكتور عمر عسكر قال عن كتاب ورتبات بأنه كتاب رائد فى الترجمة الى العربية واستشهد به فى إمكان تدريس الطب بالعربية ولم ينسب الفضل الى المطبعة البولاقية السابقة له بثلاثين عاما).

وقد أصدرت الجامعة الأمريكية فى بيروت كتابا تذكاريا بمناسبة مرور ١٠٠ عام فى ١٩٦٧ بالانجليزية وفى مقالة منها للدكتور الطيباوى يقدر أن مطبعة الجامعة يمكن وصف انتاجها اجمالا بأنه لايشمل شيئا من اللغة العربية ولا آدابها ولا التراث العربى الاسلامى. واذن فالفضل فى هذا العدد فى كل مانشر فى هذه الأبواب يعود الى المطابع الأهلية بعد مطابع اسطنبول والقاهرة. ومن جملة ماصدر منها احياء علوم الدين للغزالى والأغانى للأصفهانى والأمثال للميدانى ومقدمة ابن خلدون وديوان المتنبى وأمثال ذلك.

ولقد أنصف جورجى زيدان هذا الموضوع عندما قال: «بناء على حقائق ثابتة فإن مصر سبقت المبشرين الأمريكان والكلية السورية الانجيلية فى نقل كتب الطبيعة والرياضة والطب» ولكنه أخطأ عندما قال «ان الكلية امتازت بإحياء آداب العربية وخدمة الجامعة العربية لأنها منذ نشأتها تعلم العلوم بالعربية». فاحياء الآداب العربية لم يحدث لأن أحدا من أساتذتها لم ينشر شيئا فى الأدب وأما من الناحية السياسية لقوله «الجامعة العربية» فانه ثابت أيضا أن أحدا منهم لم يكتب فى علوم السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع. وحتى تعليمهم العلوم باللغة العربية فانه توقف سنه ١٨٧٩ فى القسم العلمى وفى ١٨٨٤ فى القسم الطبى وأصبح التعليم بالانجليزية. وقل أو انتهى الاهتمام بالترجمة ولو كانت علمية.

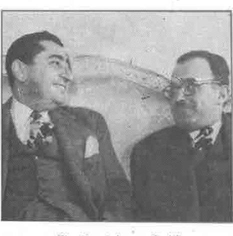
ولقد خدمت هذه المدارس الفكر التغريبى بتخريجها أعدادا ممن تولوا بعد ذلك وظائف هامة أو مناصب وزارية أو إعلامية أو سياسية وخدمت هذا الفكر سلبيا بما كسبته من أرض فكرية من النظام العثمانى السابق وخدمت نشر التوراة وخدمت الغرب بتعريفه بالشرق وتحبيب استعماره الى أهله.

أما أكثر من ذلك .. فلا.

السيد فهمى الشناوى

هامش

استفدت كثيرا من مقالات د. الطيباوى وكتابه ود. بنزوز عن تاريخ الجامعتين الأمريكية واليسوعية.



الشاعر الكبير بدوي الجبل مع كاتب المقال

يواصل عميد الأدب العربي القومي الكاتب الكبير أكرم زعيتر في هذا الفصل الجديد مذكراته وذكرياته الرائعة مع الشاعر العربي الراحل بدوي الجبل في قصائده وتجاربه النضالية المختلفة

بين العقل والعاطفة

في قلب الشاعر ووجدانه تآسون الغضب والرضا

بقلم: أكرم زعيتر

في صيف سنة ألف وتسعمئة وأربع وسبعين قضى في بيروت السيد محمد أمين الحسيني مفتي فلسطين وقائد نضالها ورئيس هيئتها العليا وهو أثير البدوي وصديقه، وكان يحفظ بعض شعره ويستشهد به في أحاديثه، وهو الذي أطلق عليه لقب «متنبي العصر» حين نظم قصيدة (كافور).

وكان البدوي في اللاذقية، قد أصيب بكسر في يده أقعده عن الشخوص الى بيروت لتشييع الراحل الكبير، فأبرق إليّ يقول:

«التعزية بالزعيم العظيم المجاهد الخالد السيد محمد أمين الحسيني تعزية لجده محمد رسول الله وللخلفاء الراشدين وللتاريخ العربي الاسلامي الأصيل، ولكل عظيم في هذا التاريخ، وانني كتلميذ من عشرات الملايين من تلاميذه أنحني على قبره فأبلله بدموعي وتبلله الملائكة والشهداء والصديقون وتتزين الجنة للعظيم القادم ولقائه. وتحنو أفياء سدرة المنتهى على أفيائه. وأنت يا أخي أكرم صديقه ورفيق جهاده وأمجاده. فاحمل تعزيتي الحزينة الملتاعة إلى أهله وذويه وكل مؤمن مكافح مجاهد في الدنيا العربية الاسلامية من أهله وذويه. الكسر الذي أصابني يحرمني شرف توديعه وتشييعه، فنُبْ عن أخيك بهذا الواجب المقدس. بدوى الجبل».

وحدث أن أصبت بعارض صحي في القلب فأدخلت مستشفى الجامعة الأميركية ببيروت وبينا كنت أتلقى باقات الزهور من كرام الأصدقاء والرصفاء أقبل موزع البرقيات يحمل إليّ هذه الطاقة من الأزاهير:

«الآن علمت بالوعكة التي ألمت بأديب الأمة وخطيبها ومجاهدها. أنت في حمى الله وفي حمى مروءتك وأريحيتك وإيمانك. روحي فداك: بدوي الجبل».

ولم أكد أبرح المستشفى حتى فوجئت بالصحف تحمل نبأ نقلي إلى المركز في عمان، فآثرت الاستقالة وآثرت البقاء في بيروت. وعلم البدوي أن هذه المفاجأة قد آلمتني وأنا لما أبلّ من المرض فتلقيت منه كتاباً بالغ فيه برفع قدري و«فضفض» ثوب الثناء، وأجمل التأساء، ولعل نثري هذا الكتاب ينم على ضعف إنساني تأنس النفس فيه بالمدح وان تجاوز الاعتدال، أو هي أزمة تواضع استغفر الله منها؛

تحتم عليّ ألاّ أغفل كرامة نفحني بها شاعر خالد تشدني إليه آصرة صداقة حميمة . قال : « أخي وسيدي أبا سريّ أطال الله بقاءك : أنت عظيم بأخلاقك . عظيم بماضيك وحاضرك ومستقبلك . وميزان كل عظيم في هذه الأمة تقديره لعظمتك وحبه لها وتدليله اياها . فإذا أنكر ذلك فإنه ينكر أنه كان عظيماً ، وإذا تنكر لذلك فهو يتنكر لنفسه وتبقى أنت أنت عظيماً جليلاً تقدرك الأمة بنخبتها وتحبك وتدللك : البدوي » .

ويا لاغتباطه حين علم أنه ليس في كل ما كان إساءة أو ما ينم على انتقاص ، وأنني لا أزال أنزل من ولي الأمر مكانة التكرمة والاحترام .

* * *

وتُفجع دنيا العرب بغياب الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود ، وبلغ التياع البدوي عليه مبلغه ، والبدوي وفيٌ لأمته وفاءه لسجاياه ، وكان الفيصل قد ساعفه في محنته . فأرسل في تأبينه رائعته النثرية وجعل عنوانها : حزن الايمان وفيها يقول : « الملك العظيم المتواضع . الهادىء المتقحم الصامت الذي تتفجر البلاغة من صمته بياناً ساحراً ، وإشراقاً باهراً . وكرماً على الشعوب غامراً . وتحدياً للطغاة قاهراً . والوديع الذي تتزلزل الدنيا ولا يتزلزل ، وتتحول الأقدار ولا يتحول ، هوى بلمحة عابرة عاثرة وعلى وجهه مسحة الحزن التي رافقت أساريره في صباه وفي شبابه وفي كهولته . وما أحبها وما أجملها وما أعذبها هذه المسحة من الحزن على وجه فيصل بن عبد العزيز يحمل بها في صلواته وعباداته أحزان أمته إلى الله ، وما أنقاها وما أغلاها مسحة حزن هي أغلى وأحلى من كل أفراح الدنيا » .

ومـــا أكـــرم الصحـــراء تصدى وتنمنت
لنـــا بـــرد ظل كـــالنعيـــم وطـــيب
ويغفو بـــهـــا الـــتـــاريـــخ حـــتـــى تـــرجـــه
بـــداهـــيـــة صلبـــه القنـــاة أريـــبـــه
وتعتـــز مـــن عبـــد العـــزيـــز بمنجـــب
ومـــن فـــيصل حـــامـــي الحمـــى بنجـــيـــب



من اليمين : اكرم زعيتر ـ الرئيس تقي الدين الصلح ـ بدوي الجبل ـ النائب السوري فرزت المملوك ـ الموسيقار سامي الشوا وقد التقطت هذه الصورة في القاهرة عام ١٩٥١



البدوي يتوسط زوجة ابنه وزوجته ونجله منير

والمرثاة طويلة ، وفيها يخاطب فيصلاً : « وكان قلبك ريان بالحب والحنان والدولة لاتُبنى إلاّ على الحب والحنان ، فكنت الإنسان الملك قبل أن تكون الملك الانسان . لقد كنت هدية الله لدنيا العرب ولدنيا الاسلام فزيّن الله بك هذه الدنيا وهذه الدنيا » وفيها : « وجمع استشهادك العرب والمسلمين كما لم يجتمعوا في عصر من العصور . جمعهم الحزن عليك وجمعتهم الذكريات . شمائلك السمحة الوديعة المتواضعة طيف معطر منور ، بليل بالدموع في عين كل عربي أو مسلم . شمائلك يا فيصل اقحوانة أرجة فينانة في قلب كل عربي أو مسلم . الحزن يا فيصل حزن الايمان يؤلف شعوباً وأمماً . دمعة حزينة مؤمنة تجدد عهداً وتبدع مجداً . وحزن المؤمن يافيصل أغنى حزن عرفه التاريخ فقد جمع ووحد ، وجدد عهداً وأبدع مجداً . ولقد كان من سجايا العبقريات العظيمة أن يتلاقى على متارفها الجهاد والاستشهاد ، ولا أريد أن أطيل : عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وفيصل بن عبد العزيز » .

* * *

وحدث أن زاره صديقه الشاعر المبدع الأستاذ عبد الكريم الكرمي الذي يكنى بأبي سلمى ، وكان يشرف على صفحة « دنيا الأدب » في مجلة « المضحك المبكي » الشامية . وجرى حديث حول الشعر بين العقل والعاطفة فآثره البدوي بمقامة أدبية رائعة جعل مفتتحها : إن الصراع بين العقل والقلب قديم ، وقد آمنت بالقلب كما آمنت به كل رسالة وكل ابداع في الحق والخير والجمال .. وإنني لأفر من خيالي هولاً ورعباً عندما أتصور الدنيا منطلقة من ملك القلب إلى ملك العقل ، وعندما أتصور الرسالات خاضعة لحكم العقل وحده ، بل عندما أتصور العقل نفسه خاضعاً لحكم نفسه . إن العقل عندما يقطع الصلة بينه وبين نوازع القلب من رحمة وحب وجمال وزهو وطموح ورجاء ولمعة عين كحيلة ، ووهج خد أسيل ، ورنوة حييّة وهمسة ندية ، وسهد أحلى من الكرى ليصبح كشمس الصحراء في وقدة الظهيرة جباراً عاتياً قاسياً تفر الحياة منه روحاً ونباتاً وخيراً وجمالاً » .

وينهي تلك الرائعة قائلاً : « أيها الذين يسعدهم رضى الناس ويشقيهم غضب الناس ، هنا في قلبي وحده ، أتلمس الغضب والرضى وما أنعم به وما أشقى ، ويا حسرتا على الفقراء ـ والكنوز لو أرادوا في سرائرهم ـ ويالوعتا على الضعفاء والقوة ـ لو فطنوا ـ في ضمائرهم . هذه عبقرية الشاعر وخيلاؤه وواقعه لا تغضي كبرياؤه إلا أمام كبرياء الله وإلاّ أمام كبرياء الحسن الرفيع المترف . فإذا هوى الشاعر عن سمائه ، ونزل عن كبريائه ، وإذا غنّى أعراس الطغيان أو توارى في صراع الحرية مع الظلم ، أو استخذى مجده لمجد حاكم أو قوي أو عظيم فقد تنكر لنعمة الله ، وتغرب عن جمال الله ، ويالوحشة الملائكة عندئذ ويالوعة الحور العين » .

بين العقل والعاطفة

وما فتئت منذ عشرين سنة ألح على البدوي في طبع ديوانه فيعتذر بأعذار لم أكن أتبينها منها أن أوان النشر لم يأن . واقتنع ذات يوم بحجتي واشترط أن أقدم الديوان . وأعطانيه مطبوعاً على الآلة الكاتبة وقدمه بخط يده تقدمة كريمة . وبعد أن حرثت الديوان وجهت إليه أسئلة جمة لأفيد منها في وضع المقدمة .. ولكنه أرجأ الاجابة وآثر طيّ الموضوع إلى حين .

وحدث أن جمع صديق للبدوي بعض قصائده واتفق وداراً للنشر في بيروت على نشرها في كتيب عنوانه (قصائد من بدوي الجبل) وقدم لها بمقدمة مغاضة من دون اطلاع البدوي على الأمر . وفوجيء البدوي بإحدى المجلات البيروتية تعلن أن دار العودة للنشر قد انتهت من الاعداد لنشر ديوان بدوي الجبل فهاج هائجه وثار ثائره وفوجئت ببرقية منه تحثني على تدارك الأمر . وأبرق الى رئيس الجمهورية اللبنانية السيد سليمان فرنجية والى الرئيس حافظ أسد ينكر ويستنكر إصدار الديوان بغير إذنه .. فأجريت اتصالات بدار العودة وتبين أن بعض أنصار البدوي سيترجمون نقمتهم من الدار عنفاً . وعلم صاحب الدار بصلتي الوثقى بالبدوي وأعلمني أنه مستعد لأن يتلف العشرة الآلاف نسخة من الكتيب ولكنه يرجو أن تتولى الدار نشر الديوان فيكون ذلك تعويضاً من الخسارة .. ويممت دمشق وذاكرت البدوي في الاقتراح فوافق عليه مشترطاً أن أضع المقدمة وأن أشرف على الطبع .

وانصرفت إلى إعداد المقدمة حريصاً على أن تدنو من الديوان منزلة ومكثت في البيت اسبوعين لا أبرحه حتى أنجزتها . ورجعت إلى دمشق وكان صديقي مريضاً . فلما تلوتها عليه تطلقت أساريره واستنار وجهه . وأثنى على المقدمة في عبارة سمت بها إلى السماء . وكانت دموعه التي تنحدر من مقلتيه أشبه بقصائد تشجيع وأناشيد ثناء ورحنا ننظر في قصائد الديوان فيشير بحذف بعضها . وتعديل بعضها ، وقد فوض إليّ ــ وهو مرتاح الخاطر مطمئن الضمير ــ أن أحذف أي بيت يستروح منه شطط عقائدي ، أو نزوة إلحادية شاردة يبرأ إلى الله منها . وارتأى أن تكون قصيدة الكعبة الزهراء ذات المئة البيت فاتحة الديوان ، مهداة إلى أعتاب أبي الزهراء صلوات الله عليه ، ولم أتمالك وأنا أراجعها أن أستدمع حنيناً وحناناً وهات شاعراً كالبدوي يقول :

أرى بخيــــال السحب خطـــو محمـــد
على مُخْصب مـــن بيـــدهـــا وجـــديب
وسُمْـــر خيـــام مزّق الصمت عنـــدهـــا
حمـــاحـــم خيل بُشّـــرتْ بـــركـــوب
ونـــاراً على نجـــد مـــن الـــرمل أوقـــدت
لنجـــدة محـــروم وغـــوث حـــريب
وتـــكـبـيـــرة في الفجـــر سالت مـــع الصَّبـــا
نعيـــم فـــيـــاف واخضلال ســـهـــوب

ورأى أن يقدم الديوان إلى الملك الشهيد فيصل بن عبد العزيز واقتبس عبارة الاهداء من مرثاته وما أروعها قبسة : « لقد حرمك استشهادك أن تصلي في المسجد الأقصى ، ولكن استشهادك سيكتب في لوح القدر أن يصلي المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها في المسجد الاقصى . وستكون ذكراك وأحزانك وإيمانك النغمة السمحة الساجية عندما يؤذن المؤذن فيه : الله أكبر. الله أكبر وعندما يتابع المؤذن : وأشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله » .



الدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة السورية

وقبل أن أودعه راجعاً إلى بيروت لمشارفة طبع الديوان قال : دونك هذين البيتين وهما آخر ما نظمت وأرجو أن يكونا ختام الديوان :

سيذكرني بعد الفراق أحبتي ويبقى من المرء الأحاديث والذكر
وورد الربى بعد الربيع بعيدة ويدنيك منها في قواريره العطر

وفي بيروت سألني رئيس الوزارة اللبنانية الصديق الأستاذ تقي الدين الصلح عن صديقه البدوي وصحته وأخبرني أنه رفع بوصفه رئيساً للوزارة اقتراحاً إلى رئيس الجمهورية السيد سليمان فرنجية بمنح بدوي الجبل وساماً رفيعاً وأن الرئيس استجاب للاقتراح ووقع المرسوم مشكوراً .

وتوالت زياراتي دمشق أحمل للبدوي أنباء الديوان وفي إحداها رافقت الزعيم المغربي التطواني المرحوم الطيب بنونه الذي قال له : جئت من المغرب الأقصى لرؤية شاعرنا الأكبر .

* * *

ومع ان البدوي كان مريضاً وبدأ مرضه عياء فما مرضت قريحته وظل ذهنه متقداً وحدث أن استأثرت رحمة الله بصديقه المجاهد السوري صبري العسلي وقد عرفته الثورة السورية منافحاً باسلاً ، وترأس الوزارة السورية في عهدي القوتلي والأتاسي . وأسرة العسلي عرفت بما قدمته للقضية العربية والثورة السورية من شهداء ومجاهدين بسلاء . وبكى البدوى صديقه صبري ــ وكنيته أبو

● في طرطوس سألت عنه : بدوي الجبل قلت ، لا محمد سليمان الأحمد ، لأنه على أجنحة الشعر جاء ، وبالاسم الذي جاء به يُعرف







الشاعر عبدالكريم الكرمي (أبو سلمى) — صبري العسلي



تقي الدين الصلح — الحاج امين الحسيني

شجاع ــ وعلى الرغم من نهكة المرض فقد أرسل يقول : «رضي الله عنك أبا شجاع . لقد حرمني المرض من شرف رثائك ولكنه لم يمنع عيني من البكاء ، ولا قلبي من اللوعة والوفاء ، ولا سريرتي من ذكرياتك وذكريات اخوانك :

كـــأنـــهـــا أقحـــوانـــات منضّرة   في مُخْصِبِ عَبِق الريحان ممطور

وتـبتدىء هذه الذكريات بالبطولة والألمعية ، والكبرياء والأريحية ، وتنتهي في قبور موحشة حزينة في دمشق وفي حمص وفي حماة وفي حلب وفي اللاذقية :

كم مـــن أخ لي مـــاجـــد   وسّـــدتـــه بـــيـــديّ لحـــدا
ذهب الـــذيـــن أحـــبـــهـــم   وبقـــيت مثل الســـيـــف فـــردا

فيا أخي أبا شجاع ، يا أخي الأصيل الأصيل ، والنبيل النبيل ، والشهيد الشهيد ، يا وريث الجهاد ووريث الأمجاد ووريث الاستشهاد تضم الى ماورثته جهاداً جديداً ، ومجداً طريفاً تليداً ، ومئة استشهاد واستشهاد . حاربت الفرنسيين بعدتهم وعديدهم ، ونارهم وحديدهم ، صفاً بعد صف ، وزحفاً بعد زحف ، تتصدى للمنية وكأنها أمنية ، وأنت واخوانك المجاهدون عُزل إلا من بندقية أو خنجر ، تجوعون وتظمأون ، وتنامون في مشارف الغوطتين على الأديم ، فراشكم الغبراء ، وغطاؤكم السماء . حاربت الفرنسيين يا أبا شجاع واستشهدت بالغربة ، واستشهدت بالمنافي ، واستشهدت بالسجون ، كل ذلك الى شباب يغمره النور والعطر ، وكهولة يغمرها النور والعطر . وبيان مصفّى منوّر وحديث كأنه أطياب الجنة . ويا أخي أبا شجاع بحق ذكرياتنا ــ وهي كما تعلم ــ أطياف بطولات ومروءات وأريحيات ، بحقها يا أخي أبا شجاع قَبِّلْ ــ وأنت في الرفيق الأعلى من الجنة ــ قبِّلْ عني أخوانك وأخواتي : هاشم الأتاسي وابراهيم هنانو وسعد الله الجابري وفارس الخوري وشكري القوتلي ولطفي الحفار ومظهر رسلان وسليمان المعصراني وعبد الواحد هارون وعبد القادر شريتح . وقبِّل عني قبلة ندية زكية أخي وصديقي ورفيق شبابي الشهيد فائق العسلي .

أخواني الصيد سُلَّ الموتُ سرحَهُمُ   وقد حننْتُ الى الورد الذي وردوا

ويا أخي أبا شجاع ، وداعاً وداعاً وفي عيني الدموع ، وفي قلبي الخشوع ، مستعيناً على المحن كلها بالله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

غاب عند الثرى أحباءُ قلبي   فالثرى وحده الحبيب الخليل
خيّمتْ وحشةُ الفراغ على الأ   حباب . فالقبر وحده المأهول
ألف هيجاء خضتها ولم تجدْ لك   أحقاً أنت الصريع الجديل ..

* * *

وصدر الديوان وقوبل بالترحيب البالغ وأجمعت الصحف ، جرائد ومجلات ، على الاشادة به وتألفت في دمشق لجنة لتكريم البدوي باحتفال عربي كبير . ولكن البدوي المريض الذي لا يقوى على المسير اعتذر للجنة شاكراً وكان لا يفتأ يقول متواضعاً : «شفيق جبري شاعر الشام أحق بالتكريم ..» ويبدو أن اشتداد مرضه حال دون الاحتفال المنشود .

* * *

وصباح العاشر من تشرين الأول (أكتوبر) سنة ألف وتسعمئة وثماني وسبعين اعتمرت دمشق وهرعت الى بيت البدوي .. فوجدته قد نهكه المرض ، ضاوي الجسم ، وعانقته ثم حدثته عن الديوان وجميل وقعه في الصحف والأندية الأدبية .. وأجابني وقد تعثر نطقه فكانت زوجته ورفيقة حياته تفصح لي عما استبهم من كلماته . اما بشاشته فكأنه وصفها حين وصف بشاشة هنانو :

تلك البشاشة أبى الداءُ نَضْرتها   فراح يلمح في نعمائها الكمد

وزرته في المساء زيرة الوداع فنهض ليعانقني وأوشك أن يتهاوى لولا أن احتضنته عقيلته ، وأجلسته على مقعده ، ورحت أحدثه حديثاً لا يتطلب جواباً . وجاء يعوده صفياه وصديقاه الأثيران الدكتور عدنان الخطيب وسهيل فارس الخوري وقد حرصا على تسليته بالطريف الأخاذ من الأحاديث . ولما أردت الانصراف أبى إلا أن ينهض ويمشي وئيداً وئيداً متكئاً على ذراع رفيقته وأوشك بعد خطوات أن يتهاوى لولا أن بادر سهيل الى احتضانه وإسناده ظهيراً له . والدمع يترجرج في مُقلتنا ، ووالله ما برح بريق عينيه في ذلك اللقاء ينبىء عن صفاء مودته ونقاء سريرته وكهربية ذهنه وسراوة عاطفته . وقد تذكرت وأنا ألمح بريق عينيه قوله عن هنانو في مرضه :

يروع في مقلتيه بارق عجبٌ   وعالم عبقريُّ السحر منفردُ
يغالبُ البشْرُ أسقاماً نزلن به   يأبى له الكبْرُ أن يأسى له أحدُ

وسألته قبل أن أقبله مودعاً عما يأمر فأجاب بصوت هامس : رضاك رضاك فكانت أعذب كلمة وداع من أخي الحميم وحبيبي الصميم .

بين العقل والعاطفة

وفي حفل عشاء لقيت الدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة السورية . وهي سيدة أديبة مفضال . ذات ذوق رفيع . واطلاع واسع . وزكانة ولقانة . ودار الحديث حول بدوي الجبل وظهور ديوانه فأعربت عن عظيم اغتباطها بالديوان ومما قالت : « قبل أن أدخل الوزارة أعددت دراسة مفاضة عن الشاعر العظيم بدوي الجبل وسيحفزني صدور الديوان إلى استكمال الدراسة ونشرها في كتاب » وكانت مناسبة اطلعت فيها على مقال نشرته الدكتورة الأديبة قبل خمس سنوات في إحدى المجلات وجعلت عنوانه : (بدوي الجبل وبيته في السلاطه) . وهو من أبلغ ما قرأت وقد افتتحته قائلة :

« في طرطوس سألت عنه : بدوي الجبل قلت . لا محمد سليمان الاحمد . لأنه على أجنحة الشعر جاء . وبالاسم الذي جاء به يعرف وعبثاً كل السجلات المدنية . ويختصرونه : البدوي ! ونفهم ويفهمون . كما لو قلت المتنبي . وبعدها لا تكون بحاجة إلى نسب . مجد الشعر مجد في النسب . وكذلك العظمة : كلمة هي الدنيا ثم لا تزيد لأنها في ذاتها كل الزيادة .

ولكن البدوي مع نسب الشعر : له نسبٌ في العلم . بيته بيت علم . كما قالوا قديماً . والوجاهات كل الوجاهات علما كانت وعلما تبقى . ولم أجد عسراً في الاهتداء إليه ... وعلى طول الشاطىء استسلمت الى نوع من الحلم المخدر . كأنني محمولة على بساط من بهجة وسكينة . وكأن زرقة البحر وشمس الأصيل ورهو الريح جاءت لتستقبلني وتواكبني . وربما عجب الذين معي لأمري . كما عجب القرويون من أهل « السلاطه » لسيدة تأتي من بعيد فتقف سعيدة متأملة . أمام صخور معلقة وبيت مقفل وأجمة من شجر السنديان والعرعر ظليلة وهادئة وموحية .

ولم تكن الرحلة طويلة أو مجهدة قدر ما كانت مفرحة وملهمة . إنها بما اختزلته من معان . وغنيت به من رؤى . كانت قطاعاً من التاريخ ينبسط زماناً . وينسرب معه الخيال عبر الطريق الملتوي الصاعد أبداً . ينفتح في بعض منعطفاته الأفق مدى بلا حدود . وينغلق حتى لتحس أنك متروك وحدك في أمتار من الأرض تدحرجت واستقرت فيها صخور عذراء ونباتات برية نمت كيفما شاءت لها التربة والمطر والفطرة دون أن تعبث بها أقدام العابرين أو تشوهها فؤوس الحاطبين » .

ثم استرسلت : « سأل واحد من الركب : لماذا نصعد الى قمة هذه الرابية والطريق موحل ممتلىء بالحصى الصغيرة؟ أكل هذا لأنك تودين أن تزوري بيتاً كان مأهولاً يوماً . وقبة ليست للأحياء الآن ؟ ولم أشأ أن أرد . الصمت عالم أحياناً ! وكيف له أن يفهم أنني أعيش هذه اللحظات في رحاب الشعر والذكرى . وأن المكان بالنسبة اليّ صار زماناً وجواً وعبيرا . استعاد قدسية الحياة التي كانت . وترددت فيه الأصداء . وانبعثت الأمسيات . إلهاماً وأناشيد وجال في الخاطر أكثر من بيت . فالشعر هنا أبدعه الجمال . هنا توجه . هنا كانت مرحلة من حياته وذروة منها . وهنا كان السامر والسمار الذين مر بهم الزمان :

السامر الحلو قد مرَّ الزمان به   فمزق الشمل سماراً وندمانا

ووصفت الطريق حتى تبلغ القمة ثم وصفت طريق العودة « وكبرياء التاريخ تنام في ثنيات الصخور . صمتاً يتكلم وترسو عنده أحلام عهود وشقاء عهود . والأشجار البرية في صلفها وبراءتها وعزلتها عن الانسان . ينبعث من حفيفها صوت أسوان شفاف .. أنين خافت أحياناً أو همس حنون . والفكر يبدأ سبحاته . ويتجاوز ذاته . في محاولة ارتباط أوثق بالأرض . بالناس . بالحياة وعلى شفتي للبدوي بيت :

هذي مراعيه عطل من بشاشته   حنَّت لشبَّابة الراعي مراعيه ..

السلاطة كانت حلماً ووعداً . وغدت في الخيال حقيقة . أحييها من بعيد كفاء ما صنع شاعرنا الكبير البدوي في تحياته لدمشق وأعلن عجزي عن رد بعض صنيعه لعجزي عن مثل قصيده » .

* * *

وفي بيروت . في مطلع سنة ١٩٨٠ دعاني وعقيلتي السيد محمد معروف ابن أخت بدوي الجبل إلى الاحتفال بزفاف كريمته في فندق السمرلاند . وفي الاحتفال بينا كنت أقول للسيد معروف : « آه ليت خالك البدوي يكون بيننا » أقبل علينا السيد منير الأحمد ابن البدوي وقال : « الآن جئت من دمشق .. ودَّ أبي لو كان غير مريض يقوى على الحضور . وقد شارككم الفرح .. أملى عليَّ قصيدة ارتجلها لهذه المناسبة وناولنيها » فتلوتها متأثراً وقد هجس في خاطري أنها آخر ما نظم الشاعر وفيها يشدو :

سيبقى بيننا قربى وحب   على الأيام معروف قديم
إذا ما راح يحبسني سقامٌ   فحبي لا الحبيس ولا السقيم
تألق بدر تم في سماء   فما رضيت عن البدر الغيوم
يهون الكون آفاقاً وأرضاً   إذا ما هان شاعره العظيم
لي الأنغام هام بها الندامى   فما بنت الكروم وما الكروم !
بعثت بها وليس لها نظيرٌ   إذا انتمت الجواهر أو غريم
ترف على عروسينا صلاة   يسلسل طهرها مَلَكٌ كريم
فلازالت حياتهما حياة   على نعمائها يجري النعيم
وأعراساً تميس بها الأماني   وتحتفل الأغاني والنجوم
وحباً مثل زنبقة نقاء   وحلماً كالفراشة إذ تحوم
وعطراً قد تنزَّل من سماء   ولم يحمله من روض نسيم
زها بهما شباب أريحي   كما يزهو بشاعره نظيم
وقد فتشت عن حَسَنٍ وحُسْنٍ   وأحلى اثنين « بسام وريم »

أكرم زعيتر

تصويبات

في العدد ١٢١ في حلقة بدوي الجبل واخاء أربعين سنة :
الشاعر الثائر وصحيحها الشاعر الناثر
قبور حبيبته وصحيحها قبور حبيبة
نبات محنتهم وصحيحها بنات محنتهم
وتفحم السيوف وصحيحها وتقحم السيوف
مباركة العدوات وصحيحها مباركة الغدوات

حتى لا يهرب منك الأقارب والأصدقاء وأنت غارق في النوم!

عندما تستغرق فى النوم . وتتوه مع الأحلام فى عالم ملىء بالأحداث ورؤى العقل الباطن ، ويصدر منك ذلك الصوت « الشهيقى » الذى اصطلحنا على تسميته « بالشخير أثناء النوم » .. هل فكرت ــ وقتئذ ــ أن تعرض نفسك على طبيب أخصائى ، أم اكتفيت بالتسليم بالأمر الواقع ، واعتبرت المسألة عادية ولا خطورة منها ؟ . هذه الدراسة العلمية تحاول أن تلقى الضوء على تلك الظاهرة التى تجعل أعز الأقارب يهربون منك وأنت غارق فى أحلى ساعات النوم وهى فترة الأحلام !



ولكن ماهو هذا الصوت وما علاقتنا به ؟

نحن جميعا فى يوم ما .. في مرحلة ما .. وفي مكان ما .. والى حد ما قد أحدثنا هذا الشخير . فجميع البشر معرضون لذلك ، ولكننا نختلف عن بعضنا البعض في عدة أمور هامة :

شدة قوة الشخير : وتتراوح هذه الشدة من شخص الى آخر ، حيث بلغت قوة الصوت في أحد الاشخاص « ٨٠ ديسبل » وتم تسجيل هذه القوة من على بعد خمسة أقدام ، وهي تعادل ضجيج حفار الطرق الهوائى الذى تبلغ قوته « ٧٠ ــ ٩٠ ديسبل » .

« الجنس والسن : ويعتبر الشخير اجمالا » عادة بشرية مقارنة بمملكة الحيوانات ، فالحيوانات الطبيعية لاتشخر ، أما كلب « البولدج » Bull Dog فانه يشخر بشدة لأنه

هل هناك خطورة على حياتك من هــذا "الصّوت الشهيقيّ" المُرتفع ؟!



بقلم
الدكتور عبدالله الباكر



حيوان مشوه » ولاديا » وليس طبيعيا .. أما الانسان فهو يشخر في مختلف الأعمار ولدرجة معينة ويزداد الشخير كما » ونوعا » بتقدم العصر ، فلقد وجد لوجاريزى ومجموعته Lugaresi et al بعد دراسة أجراها في ايطاليا » سان مارينو » على ستة آلاف شخص أن ٤٠٪ من الرجال و٢٨٪ من النساء يشخرون ، ويزداد حدوث الشخير مع العمر حتى يصل الى ٦٠٪ من الرجال و٤٠٪ من النساء في العقد السابع من العمر أما بعد السبعين فان الشخير يقل تدريجيا .. وفي دراسة أخرى من نورتن ومجموعته من كندا تبين أن الشخير يحدث في أكثر من نصف الناس هناك ، وأن ٨٦٪ من الزوجات سجلوا في الدراسة شخير الأزواج بينما سجل ٥٧٪ من الأزواج عن زوجاتهم ذلك .

• التكوين الجسماني : يزداد الشخير في الأشخاص الذين يزداد وزنهم عن المعدل أو الذين يعانون من السمنة المفرطة ، لكن هذا لايعني أن النحيف لايشخر . اذ أن توفر أحد الأسباب التي سنذكرها بعد ذلك يؤدي الى حدوثه . ان الشخير والسمنة من الأمور التي يجب ملاحظتها بدقة اذ أنه الى جانب خطورتهما لايوجد حتى الآن تبرير علمي لارتباطهما وهل ينتج أحدهما عن الآخر أو أنه مكمل له . ولكن المقبول بالنسبة للشخير أن ترسب كميات الدهن في اللسان وكبر حجمه وفي الأغشية المحيطة بالبلعوم والرقبة يفسر ذلك ، اذ أن من المعروف أن الشخص السمين ذا الرقبة القصيرة الممتلئة يشخر أكثر ، فلقد بينت الدراسة الأيطالية أن ٥٤٪ من ذوي الوزن العالي يشخرون عادة مقارنة بـ ٣٤٪ من ذوي الوزن العادي ، وبينت أكثر الدراسات أن تخفيف الوزن غالبا ما يؤدي الى تقليل الشخير والى القضاء على الأعراض الأخرى المصاحبة .

• الوضع أثناء النوم : انه من المتعارف عليه بين الناس أن النوم على الظهر يؤدي الى الشخير أو زيادة حدته ، وهذا أمر معقول الى حد ما ، لذلك كثيرا مايتوقف أو يقل عند قلب الشخص الى وضع آخر .هذا الأمر يظهر بوضوح أكثر عندما يكون مصاحبا بالعوامل الأخرى ، هذا ويقول العالم الطبيعي الألماني » املمان » ان الحيوانات المفترسة تنام اما على بطنها أو على جنبها مع وجود فكها متدل الى الأسفل ، وهو الوضع الذي يمنع اللسان من السقوط الى الخلف لذلك فهي لاتشخر . ولفهم هذه العلاقة انظر شكل (١) .

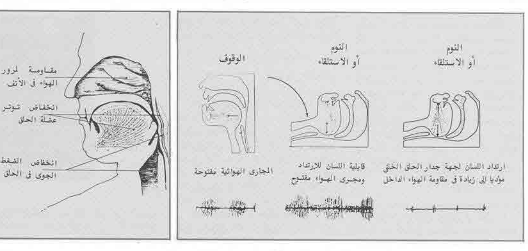
• العوامل السلوكية الأخرى : هناك عوامل سلوكية أخرى تؤدى لهذه الحالة مثل :

١ ــ الكحول : يعتبر الكحول من العوامل المساعدة لحدوث الشخير ، وهو غالبا ما يكون قويا ومن النوع المختنق ، ويظهر ذلك الأثر في الساعات الأولى من النوم ، وقد يطول معتمدا على كميته في الدم ، لذلك تحذر السلطات الصحية من استعماله في الجماعات التي لها العوامل الأخرى والأمراض التي سنذكرها . ولقد قام سولفان Sull Ivan في مختبره باجراء أبحاث كثيرة في هذا المجال وتوصل الى أن الاختناق من جراء الشخير الشديد وانقطاع النفس أثناء النوم ربما يؤدى الى الاضرار بالمخ بعد الاسراف في تناول الكحول .

٢ ــ الحبوب المنومة والمهدئة : لقد انتشرت هذه العقاقير في العالم بشكل مخيف ولها دور في موضوعنا هذا ، فهي تزيد من حدوث الشخير والعوامل الأخرى المتعلقة به ، اذ أنها تؤدي الى تثبيط عزم جهاز التنفس وتبطيء من سرعة الانفعال به فتساعد على اطالة فترة وقف النفس ، الأمر الذي يؤدي الى هبوط نسبة الأكسجين في الدم ، لذلك ينصح أخذ جانب الحذر في استعمال هذه الأدوية بالذات بالنسبة للمسنين وبالأخص المصابين منهم بالتهاب القصبات الهوائية المزمن أو أمراض الرئة الأخرى .

الجدول رقم (١) يوضح المشاكل الصحية وعلاقتها بتلك الأصوات الشهيرة

الحال	الجميع	بدون	أحياناً بشخير	الذين يشخرون ليلياً تقريباً	الذين يشخرون كل ليلة
زيادة الوزن	٧،٢	٢،٣	٨،٩	١٦،٩	٢٢،٨
المدخنين	١٧،٩	١٠،٣	٢٤	٣٢،٩	٣٣،٩
ارتفاع ضغط الدم	٦،٢	٢،٣	٨،٨	١٢،٢	١٨،٥
الأرق	١،٣	٠،٦	١،٧	٥،٦	١،٦
مرضى الصدر	٢،٢	١،٤	٢،٧	٤،٧	٥،١
مرضى القلب	٤،٢	١،٧	٥،٥	٩،٩	١١،٨
الكآبة	٠،٨	٠،٢	١،٣	٢،٨	٢
مدمنو الكحول	٠،٥		٠،٢	٢،٣	٢
السكري	١،٥	٠،٨	٢	٢،٣	٣،٥
نوم النهار	١،٣	٠،٢	٢	٤،٧	٣،٢
الروماتيزم	٤،٤	٢،١	٧،١	٨،٥	٩،١
الحساسية	١١،٢	٩،٦	١٣،٨	١٤،١	١٤،٢
الربو	٢،٩	٢	٥	٣،٨	٢
حالات أخرى	٧،٣	٤،٦	٨،٩	١١،٧	١٥
مجموع الحالات لكل مجموعة	٢٦٢٩	١٣٧٩	٦٣٨	٢١٣	٢٥٤
الرجال ٪	٥٣،٧	٤٥،٤	٦٤،٢	٦٩	٧٣،٢
الأزواج ٪	٢٠،٩	١١،٧	٣٤،٩	٤١،٨	٣٧



شكل (١) رسمان يوضحان ارتداد اللسان أثناء النوم وانفتاح المجارى الهوائية في حالة الوقوف

٣ ـ العوامل الحياتية الأخرى : تنعكس الأمور الحياتية اليومية بما فيها من آثار نفسية وارهاق عضلي وتعب عام وما تتركه من أثر على حركة النوم الطبيعي ، وهذه تؤدى الى النوم في أوضاع مختلفة وتحت توتر داخلي مختلف فتزيد من قوة الشخير ونسبة حدوثه .

٤ ـ التدخين : لابد لهذا السم من علاقة بالشخير حيث أن له علاقة بجميع الأمراض المرتبطة به ، هذا الى جانب أن السيجارة تزيد من حدة وخطورة اللاتنفس الانسدادي بتأثيرها على الممرات الهوائية العليا بزيادة احتقانها وتهيئتها للالتهابات اضافة الى تأثيرها المزمن على الرئة والقصبات الهوائية .

الوضع العائلي والحالة الصحية

والشخير لاينتقل بالوراثة ، ولكن حدوث نوع منه مرتبط باللاتنفس الانسدادى أثناء النوم قد سجل في بعض العائلات ، في دراسة قام بها الدكتور ستروهل Strohl et al على احدى العائلات التي يعاني أفرادها من أعراض هذا المرض وجد أن اثنين من الأبناء الذين لديهم الأعراض قد فقدوا حركة توتر عضلة اللسان في المرحلة الأولى من النوم ، بينما الابن الثالث الذى لاتوجد به أعراض قد فقد هذه الحركة في المرحلة الثانية من النوم . كذلك تم تسجيل حالتين من الوفاة الفجائية في هذه العائلة .

وبالرغم من أن الشخير حدث عام وغير مضر عادة وفي غالب الأحيان يؤذي الآخرين أكثر من الشخص نفسه ـ لأنه لايحس به ولا يسمعه ـ إلا أن الاتجاه الأخير في الأوساط العلمية يدعو الى عدم التقليل من شأنه ، فلقد شهدت الخمس عشرة سنة الأخيرة دراسات مركزة على هذا الحدث بالذات ، بعد أن توفرت في بعض البلدان المتقدمة مختبرات النوم والأجهزة المتطورة الخاصة بمختلف القياسات للنوم العادي والمضطرب ، وقد تبين أن هناك من الأمراض في الانسان ما يؤدي الى حدوث الشخير كما وكيفا في شكل تعود ، وقد تكون بعض الأحيان مؤشرا مهما يدعونا الى البحث وتقديم العلاج اللازم ، كما وبينت بعض الدراسات أن استمرار الشخير العالي أو الأسباب التي تؤدي الى حدوثه تعتبر من عوامل الخطورة في احداث أو تعقيد الأمراض الخطرة والمزمنة الأخرى كالقلب والضغط وغيره ، وهناك اتجاه باعتباره أحد الأسباب التي لها علاقة بمتلازمة « ظاهرة » وفاة الرضع الفجائية (Sleep Apnea Syndrome)

وفي هذه الحالة تطول فترة اللاتنفس من ١٥ ـ ٦٠ ثانية ، ويصبح عدد النوبات أكثر من ٣٠ ـ ٤٥ نوبة وفي هذه المرة تصاحب النوبات إفاقة من النوم سريعة ، وقد تطول للاحتياج الشديد للأوكسجين ثم عودة للنوم مرة أخرى . وهذا التتابع من اللاتنفس ، ثم الإفاقة ثم التنفس الطبيعي ، ثم اللاتنفس وهكذا ، قد يحدث في بعض الحالات من ٤٠٠ ـ ٥٠٠ مرة في الليلة ويعتبر من العلامات المميزة لهذه الظاهرة ، والغريب أن الاستيقاظ لايشعر به الشخص ، وقد يقول انه نام ليلة طويلة ولكنه يستغرب من تعبه في النهار ، إذ أن دوره كما قدمنا هو تخطي الانسداد في النفس ويزداد بزيادتها وغالباً مايصاحبها كعلامة مرضية أخرى زيادة في النعاس والنوم أثناء النهار ، إلى جانب العلامات الأخرى الناتجة غالباً كتعقيد لهذا المرض .

ولهذه المتلازمة ثلاثة أسباب رئيسية :

• سبب مركزي : وهو قليل الحدوث ، وينتج بسبب الأحوال المرضية التي تصيب الجهاز العصبي من الاصابات الميكروبية والفيروسية والنزيف والسرطان والحوادث وغيره .

• وسبب انسدادي : وهو الأكثر حدوثاً ، وينتج عادة من أمراض تصيب منطقة الرقبة والممرات الهوائية العليا مثل :

ـ تضخم اللوزتين والغدد المجاورة سواء كان تورماً حميداً أو خبيثاً .
ـ نقص هرمون الغدة الدرقية خاصة عند الرجال .
ـ تضخم الغدة الدرقية داخل الصدر .
ـ صغر الفك الأسفل .
ـ ضعف التوتر العضلي .
ـ ضخامة النهايات Acromegaly
ـ أمراض مفصل الفك السفلي .
ـ السمنة .
ـ تضخم اللسان .

• سبب مشترك : أي وجود السبب المركزى والانسدادى ، وهو يبدأ بالأسباب المركزية ، ثم يتبعه انسداد في ممرات الهواء



العليا ويحدث بنسبة أقل من السبب الانسدادى ، المهم أن السبب الانسدادى يحدث نتيجة لتغيرات في ممرات الهواء العليا أهمها :

١ ــ فشل استمرار فتح الممر الهوائي أثناء النوم نتيجة لارتخاء جدران البلعوم ، وفتحته بسبب ارتخاء العضلات وقلة توترها .

٢ ــ يقابل ذلك زيادة في مقاومة الهواء الداخل ، الأمر الذي يزداد في وجود أحد الأسباب الموجودة في الجدول ولاسيما اللسان الذي يسقط إلى الخلف ليسد البلعوم نتيجه لقلة توتر عضلة اللسان الرئيسية Glucoglossus Muscle بالذات عند النوم على الظهر .

٣ ــ زيادة الضغط السلبي في الممرات الهوائية والمرىء نتيجة لمحاولة سحب الهواء إلى الداخل عن طريق حركة الحجاب الحاجز ، مما يؤدي إلى جذب عضلات البلعوم المرتخية فيزيد من الانسداد .

الأسباب والأعراض

إن معرفة سبب وأعراض هذه الحالة ، مسألة هامة جداً ، إذ أن الشخير العالي المستمر والمصاحب غالباً بفترات صامتة من اللانفس يعتبر من العلامات المنذرة الأولى ، ويتفق العلماء في هذا المجال على أن المرحلة مابين الأصحاء والمرضى هي مرحلة الشخير العالي ، والتى غالباً يرجع تاريخها إلى فترة الطفولة . إن حدوث هذه المتلازمة واستمرارها دون تدخل يظهر واضحاً في الأعراض والمظاهر السريرية المرافقة مثل : ــ

الوسن الزائد في النهار ، الشخير الرنان ، كثرة الحركة أثناء النوم ، السمنة ، ازدياد الوزن بشكل واضح قبل بداية الوسن ، السمنة ليست موجودة بالضرورة دائما ، نقص القابلية الذهنية ، تغير في الشخصية ، العنة الجنسية ، التبول اللاارادي المتقطع ، صداع الصباح ، غثيان الصباح ، زيادة عدد الكرات الحمراء ، عدم انتظام ضربات القلب والتي قد تؤدي الى الوفاة ، ارتفاع ضغط الدم ، ارتفاع ضغط الرئتين المصحوب بتضخم القلب ، هبوط القلب .

مشاكل الأطفال

يكثر الانسداد في الممرات الهوائية العليا عند الأطفال بسبب اصاباتهم بالالتهابات في الأغشية المبطنة للأنف أو الغدد المنتشرة في الحلقوم واللوزتين ، هذا بالاضافة إلى التكوين العضوي للأنسجة في الممرات الهوائية والبلعوم اثناء النمو في هذه المرحلة ، فالأطفال الرضع مثلاً يتنفسون من الأنف اجبارياً في الشهور الأولى ، وأي انسداد في الممرات الأنفية يؤدى إلى زيادة المقاومة وخلق منطقة ضغط سلبية كما ذكرنا ، فيؤدي ذلك إلى ظهور اللانفس ، وفي بعض الأحيان إلى انقطاع النفس ، بالاضافة إلى أن اللهاة عالية في الرضع واللسان في وضع خلفى أكثر من الكبار ، لذلك تبرز أهمية وضع الأطفال على بطونهم أثناء النوم بدل تنويمهم على الظهر بالذات بالنسبة للممتلئين .

وهنا لابد من التنبيه إلى أن ضحايا متلازمة موت الرضع المفاجىء « SIDS » من المصابين بالالتهابات في الجهاز التنفسى !

ولكن امكانية علاج الأطفال والتحفظ الذى يبديه الأطباء هذه الايام في تعاملهم مع الغدد الليمفاوية واللوزتين حيث الاتجاه إلى الابقاء عليهم قدر الامكان لأهميتهم لجهاز المناعة يدعونا إلى التذكر بأهم الأعراض التي قد تبدو على الأطفال لعرضهم على الطبيب

إن هذه الأعراض تظهر في شكل شخير عال ومتتابع أثناء النوم ، نعاس خفيف أثناء النهار ، التقلب في الفراش أحياناً ، تبول لاارادي في السرير غالباً ، كوابيس ليلية في الغالب مع صداع في الصباح أحياناً .

العلاقة بالأمراض الأخرى

كثرت الدراسات عن علاقة الشخير أو بالأحرى المشخرين بالأمراض المختلفة ، حيث أن علاقته بمتلازمة اللانفس النومي واضحة ، إذ أن الذي يحدث في هذه المتلازمة أثناء النوم يؤدي إلى آثار وانعكاسات عضوية ونفسيه واجتماعية ، كما أن أكثر الانعكاسات سببها النقص الواضح في الأوكسجين الموصل للأنسجة والزيادة في كمية ثاني أكسيد الكربون في الدم وعلاقة هؤلاء بالتغيرات الأخرى التى تحدث في مختلف الأعضاء مثل الضغط العام والضغط الرئوي أنظر الشكل « ٢ » حيث يبين تلك المتغيرات في الشخص الطبيعي والمشخر وفي حالة اللانفس النومي أثناء اليقظة والنوم مع ملاحظة حجم الأسهم في كل حالة .

● من أسباب تلك الظاهرة الشائعة النقص الواضح في الأوكسجين وزيادة ثاني أكسيد الكربون في الدم !

الآثار العضوية

١ ــ على الدماغ : وتظهر في شكل نقص القدرة على التركيز وانخفاض مستوى الذكاء والقدرة على حل المشاكل وضعف في الذاكرة مع تغيرات في الشخصية سواء بالقلق أو بالهبوط ، هذه الأمور تؤثر على الأداء الوظيفي للشخص وتعرضه للحوادث بالذات النوم اثناء السياقة .

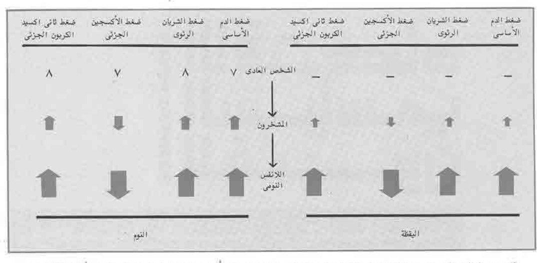
٢ ــ أمراض القلب والشرايين : إن حدوث ارتفاع الضغط الرئوي والضغط العام من الأمور المدونة علمياً ، وكذلك حدوث اللاانظمة التى قد تكون خطرة على الحياة ، وتعتبر عملية شق القصبة الهوائية في هؤلاء الأشخاص مهمة لتقليل هذه الخطورة .

إن الدراسات في هذا المجال كثيرة ، وبالذات دراسة « لجريزى » « ايطاليا » ودراسة نورتون ومجموعته (Norton et al) من كندا التى نشرت أخيراً وكانت على ٢٠٠١ حالة وتناولت علاقة ١١ مشكلة طبياً بالشخير ، هذه الدراسات جميعها بينت أن هناك ارتباطا وثيقا بين الشخير وأمراض القلب والأوعية الدموية ، وخاصة ارتفاع ضغط الدم وأن الشخير ايضاً له علاقة بالتدخين والوزن الزائد وهذان العاملان لهما علاقة ايضاً بزيادة أمراض القلب والأوعية الدموية ، فلقد وجد أن الرجال الذين يشخرون ويدخنون ووزنهم زائد عن المعدل يعانون من ارتفاع ضغط الدم ٤,٢ مرة أكثر من غير المشخرين . الجدول رقم (١) من دراسة نورتون يبين المشاكل الصحية وعلاقتها بالشخير .

٣ ــ الآثار الأخرى وتشمل تغيرات ميكانيكية في الجهاز التنفسي ونقص سريان الهواء في الحويصلات الهوائية ، زيادة الكريات الدموية الحمراء « داء الكريات الحمراء » ، ارتجاع الحموضة من المعدة إلى المرىء وضعف القدرة الجنسية .

الآثار الاجتماعية

إن الكثير من النساء فضلن قبول الوضع على ماهو عليه حتى بالنسبة للأزواج الذين



شكل (٢) هذا الرسم التوضيحى يبين المتغيرات فى الشخص الطبيعى والشخص الذى تصدر منه الأصوات الشهيقية وفى حالة اللانفس النومى أثناء اليقظة والنوم

يشخرون بقوة ولجأن إلى مختلف الأساليب والطرق والحيل للتغلب على ذلك ؛ لكن البعض بعد تعب ومشقة سهر الليل الطويل فضلن النوم فى غرف منفصلة . أما البعض فقد انتهى بهن الأمر إلى طلب الطلاق ؛ ويعزى ذلك إلى أن النساء أكثر حساسية للشخير من الرجال إذ أن قدرتهن على الاستيقاظ السريع والاستجابة للأصوات أسرع .

الطرق العلاجية

كان العلاج الذي كان يقدم للمشخرين يتخذ طرقا متعددة وكثيرة قبل التعرف على دور الشخير كعامل في إحداث الأمراض أو ظهورها كأحد أعراض ، وتلك جميعها قد تفيد فى بعض حالات الشخير العادية أو البعض من الحالات المرضية في بدايتها أو كعامل مساعد لوسائل العلاج الأخرى ، ومن ضمن ذلك تخفيف الوزن وترك التدخين والكحول والحبوب المنومة والمنشطة وعدم النوم على الظهر لمنع سقوط اللسان إلى الخلف وسد ممرات الهواء العليا . وأخيراً تدخلت الصناعات فى ذلك فطورت الفكرة القديمة التي تسمى « كرة الشخير » وهي عبارة عن ماده خشنة توضع وتثبت فى ظهر المشخر حتى تمنعه من النوم على ظهره !

وقد استعملت بعض الأدوات التى تساعد على استمرار مرور الهواء بأدوات تمنع سد الفم ورباط مثبت للذقن والفك وتم ادخال أنابيب فى المنخار لتسهيل التنفس ، كما تم استعمال رباط عنق (ياقة) حتى يمنع انثناء الرقبة .

كما قامت الشركات المختلفة بصنع آلات كهربائية والكترونية لتعطى بعض الأوامر أو موسيقى معينة في أذن المشخر فى حالة شخيره أو أن هذه الآلات تصدر أضواء أو تصدر صفيرا كسيارات النجدة ، وأخيراً نشر عن آلة تحول صوت الشخير الى موسيقى بالنسبة للشخص الآخر فى الغرفة .

ومع أننا نجد أن هذه المحاولات هامة جدا ، إلا أننا يجب أن نعرف أن الشخير ظاهرة لا ارادية ولا يمكن تطويع المشخرين على طريقة « بافلوف » أو أقلمتهم وإن كل ماسنصنعه لهم بهذه الآلات هو ايقاظهم ومنعهم من النوم .

وهناك طرق علاجية تتبع لعلاج الشخير مثل :

• العقاقير : أ ـ منشطات الجهاز التنفسى مثل الامينوفيلين والالمترين .

ب ـ الهرمونات مثل البروجيسترون الذي . استعمل في المناطق الجبلية العالية لتقوية جهاز التنفس ..

• الأوكسجين : يستعمل خاصة في حالات الشخير المصحوب بهبوط في القلب ولكن يجب أن يعطى بحذر حيث أنه قد يؤدى الى زيادة فترات اللانفس .

• طرق ميكانيكية : وذلك بدفع الهواء تحت ضغط معين للتغلب على تقلص الممرات الهوائية ، ونتائجها جيدة ولكن الكثيرين لا يطيقون استعمالها وهذه الطريقه ليست ضارة ويمكن استعمالها فى المنزل ورخيصة ويمكن النوم بها إذا أمكن تحملها .

• الجراحة : ١ ـ الاصلاح الجراحي لأعطاب الجهاز التنفسى العلوي مثل الحاجز الانفي واللهاة والحلق والبلعوم وبالذات فى الأطفال .

٢ ـ شق القصبة الهوائية وإحداث فتحة دائمه للتنفس Tracheostomy يلجأ لهذه الطريقة في الحالات الشديدة والتى لاتفيدها العلاجات الأخرى مثل : عدم القدرة على النوم ، أمراض القلب التي تهدد الحياة ، ونقص تركيز الاوكسجين عن ٤٠٪ في الدم .

ويحتاج القرار لعملها كما يقال إلى امرأة قاسية وجراح شجاع .

٣ ـ ترميم اللهاة والحنك والبلعوم Nvulopato Phaeyngoplasty

وذلك باستئصال اللوزتين والغدد اللمفاوية المجاورة ، وازالة الأنسجة الزائدة فى ثنيات الحنك واستئصال اللهاة . هذه الجراحة تمنع الشخير في معظم الحالات ولكنها تحسن حالة اللانفس أثناء النوم بنسبة ٦٠ ـ ٧٠٪ فقط وفي بعض المراكز تجرى هذه العملية بالاضافة الى فتح القصبة الهوائية الدائم .

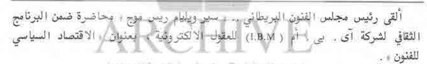
ونعود أخيرا للقول ، ان الشخير ظاهرة طبيعية ولكنها عامل من عوامل الخطورة على حياة بعض الأشخاص ، الذين يشخرون عاليا وبشكل مستمر منذ الصغر ووزنهم يزيد عن المعدل ، ويدخنون ، ويتعاطون المخدرات ، والمنومات ، والمهدئات ، ظنا منهم أنها ستجلب لهم النوم والراحة .

عبدالله الباكر

الاقتصاد السياسي للفنون

وجهة نظر بريطانية

بقلم : الفريد فرج



ألقى رئيس مجلس الفنون البريطاني .. « سير ويليام ريس موج » محاضرة ضمن البرنامج الثقافي لشركة آى . بى . أم (I.B.M) للعقول الالكترونية ، بعنوان « الاقتصاد السياسي للفنون » .

وقد أردت بترجمة مقتطفات مطولة من المحاضرة أن أقدم للقارىء العربي نموذجا للمنهج الذي يفكر في إطاره مجلس الفنون البريطاني ، والجدل الذي تطرحه الحركة الثقافية في قضية الفنون ودعمها .

ومع أن أقطارنا العربية لا تقصر في إرسال البعثات من شباب الفنانين إلى أوروبا لدراسة الفنون المختلفة ، فمن النادر أن يكون من بينها بعثات لدراسة إدارة المسارح أو لدراسة اقتصاديات الفنون أو أساليب إدارة وسياسة الدعم الحكومي للفنون .. وهي كلها علوم هامة في أوربا ، ومواد رئيسية في المعاهد الفنية وفي أقسام الفنون بالجامعات .

ومجلس الفنون البريطاني الذى يرأسه سير ويليام ريس موج هو هيئة مستقلة تتألف من نخبة من وجوه المجتمع محبى الفنون . ويتلقى مجمل دعم الحكومة للفنون ليوزعه على المسارح والمتاحف والبحوث الفنية والتجارب الفنية المبتكرة على أساس خطة يتفق عليها أعضاء المجلس سنويا ترتب الأولويات والاحتياجات .

وسير ويليام ريس موج يملك شركة تختص بالتجارة في الكتب الأثرية النادرة . وهو بنفس الوقت نائب رئيس مجلس الإدارة للاذاعة والتليفزيون البريطانى BBC ، وأحد مديرى شركة جنرال إلكتريك .

وقد ولد عام ١٩٢٨ وتعلم في أكسفورد واشتغل مدة طويلة محررا بالتايمز وكان أحد من تولوا رئاسة تحريرها ، كما كان رئيسا لجمعية الصحفيين وأستاذا زائرا بكلية نوفيلد بأكسفورد ، فضلا عن رئاسته لمجلس الفنون .

استهل سير ويليام محاضرته في تحديد الراعي العصرى للفنون .. قال :

ألقى جون راسكين[1] محاضرتين تحت عنوان « الاقتصاد السياسى للفن » في مانشستر عام ١٨٥٦ ، وكان لمكان وزمان المحاضرتين دلالة خاصة .

ذلك أن سنة ١٨٥٦ كانت ذروة التفوق الاقتصادى الذي ترتب على أن بريطانيا كانت أول دولة اختبرت الثورة الصناعية في العالم .

كما كانت مانشستر هى مركز صناعة القطن ، وكانت صناعة القطن هى طليعة

الصناعات الكبرى الحديثة ، كما كانت مانشستر مدينة التجارة الحرة التى احتضنت « مدرسة مانشستر للعلوم الاقتصادية » .. وكانت التكنولوجيا والاقتصاد والايديولوجيا تتقدم كلها فى صف واحد كالحال دائماً .

وكان راسكين بمحاضرته يحث تجار مانشستر الأثرياء لينفقوا المال على الفن ، ويحثهم على أن يعملوا على توسيع فرص استمتاع الناس بالفنون وذلك بالتبرع لانشاء المتاحف ودعم المسارح وتشجيع الفنانين ، وعلى الاضطلاع بمسئولياتهم العالمية والقومية فى المجال الثقافى . لقد كان المحاضر يتوجه بالخطاب إلى بلاك الثروة الحقيقيين ، وهم دائما الذين يدعمون الفنون بالمال فى كل زمان وفى كل مكان . ولذلك ترونني اليوم أحث الدولة وأدعوها للاضطلاع بواجبها نحو الفن بنفس الروح كما كان راسكين يخاطب ملاك مانشستر . ولا أعلم هل كانت دعوته للتجار منذ أكثر من مائة سنة أصعب من دعوتى للدولة ، أم كانت أسهل ..

أمس واليوم يترتب الاقتصاد السياسى للفنون على نظام الاقتصاد السياسى للأمة ، ويقترن به . ففى زمن راسكين جرى الصراع الكبير الذى شهدته مرحلة التصنيع الأولى ، واليوم يدور صراع جديد فى البلاد المتقدمة صناعيا ، ويشمل هذا الصراع ميادين التكنولوجيا والاقتصاد والسيكولوجيا والايديولوجيا والطبقات . وهذا الصراع لن يحدد منهج تمويل الفنون فحسب ، وإنما سيحدد أيضا مقومات الفنون والقيم الفنية فى المستقبل .

نصيب الدولة ونصيب الأفراد من الدخل

أطروحة القرن العشرين ، إذا تمت مقارنتها فى شمولها بأطروحة الاصلاح الذى حققه المذهب البروتستانتى ، أو بأطروحة جون لوك[٢] عن الحرية الفردية .. فلابد أن تتضح أشكالها الشمولية فى الانتاج وفى القوة . وهذه الأطروحة للقرن العشرين قد فتحت الأبواب فى أسوأ حالاتها للتطرف .. وان كانت قد اتخذت فى الغرب شكلا جديدا هو ــ الانتاج الصناعى المكثف ، ودولة الخدمات



سير ويليام ريس موج

الموسعة ، والانفاق العسكرى العملاق ــ وقد تضخمت أداة الدولة بذلك التطور أربعة أو خمسة أضعاف . وارتفع نصيب الدولة من الدخل القومى كله من مقدار ١٠٪ إلى ما يتراوح بين ٣٠٪ و٥٠٪ ..

وحسب تقدير البروفيسور اللورد كالدور قد وصلت إيرادات الدولة البريطانية فى عام ١٩٨٢ إلى ٤٧.٧٪ من كل الدخل القومى للشعب البريطانى[٣] .

وقد دأبت الحركة الشمولية على اتباع أسلوب العمل فى المناجم ، أى استخراج الخام من الطبقة الأعلى ثم التحول إلى الطبقة الدنيا . وبامكاننا أن نشهد اليوم عملية المقايضة بين الدخل والتكلفة من مختلف زوايا النظر . فحين كانت الدولة تنال ١٠٪ من الدخل القومى ، كان بالامكان مواجهة الاحتياجات المتزايدة للخدمات .. المعاشات والصحة والتأمين ضد البطالة والتعليم بمجرد زيادة نصيب الحكومة من الدخل القومى إلى ١٥٪ . وكانت كل الشرور الاجتماعية قابلة للعلاج بزيادة طفيفة فى الانفاق الحكومى وزيادة طفيفة فى الضرائب . وكانت عملية مقايضة الدخل بالتكلفة آنذاك مواتية للمواطن .

ولكن حين وصل الانفاق الحكومى وبالتالى ايرادات الحكومة إلى ٥٠٪ من الدخل القومى اختلفت الصورة . وأصبحت مناسيب الضرائب تثقل كاهل كل المواطنين بما فيهم الفقراء .

وأصبحت الضرائب ذاتها سببا من أسباب التدهور الاقتصادى والفقر الاجتماعى . وكل مواطن اليوم يشعر بوطأة الضريبة عليه ، وبما وصلت إليه التزامات الانفاق الحكومى من زيادة مفرطة .

وبلغة الانتخابات تغير الميزان أيضا تغيرا حتميا . ففى عهد الـ١٠٪ يمكن للحكومة اكتساب رضا الملايين بفرض الضرائب على الآلاف . وفى عهد الـ٥٠٪ تتعرض الحكومة لخاطر إغضاب الملايين فى سبيل دعم الآلاف[٤] .

ونصيب الفنون

وقد نالت الفنون دائما النصيب الضئيل فى هذا التطور الذى شهده القرن العشرون .

فلم يكن لها أى نصيب على الاطلاق فى المرحلة الأولى للتطور فى سياسات لويد جورج فى مجال الخدمات الصحية والمعاشات وإعانات البطالة .

ونال الفن نصيبه فى المرحلة الثانية حين قررت حكومة تشرشل الائتلافية ــ التى ضمت المحافظين والعمال[٥] ، ثم الحكومة التى أعقبتها برئاسة أتلى بعد نجاح حزب العمال الساحق عام ١٩٤٥ ــ بدء المرحلة الثانية لتطوير « دولة الرفاهية » بتعميم الخدمات . فمبدأ دعم الدولة للفنون وإنشاء مجلس الفنون يرجع إلى منتصف الاربعينات مع إنشاء الخدمات التعليمية الحديثة ، والخدمات الصحية ونظامى الضمان الصحى والضمان الاجتماعى . ومجلس الفنون جزء ــ صغير جدا ــ من صرح « دولة الرفاهية » (Welfare state) التى اعتمدت مبدأ أن الفنون كالتعليم وكالصحة وكالتأمينات الاجتماعية لابد أن تتاح للجميع بغض النظر عن قدرة المواطن على الحصول عليها بالشراء .

وبانشاء مجلس الفنون عام ١٩٤٥ برئاسة لورد كينس بدأت عملية توسيع قاعدة الدعم للفنون . وكان الدعم ضروريا . ففى المرحلة التى أعقبت الحرب ، وبرغم تناقص النفقات العسكرية ، صار نصيب الدولة من الدخل القومى يتزايد باستمرار وكان يمكن أن يؤدى ذلك إلى تدهور الفنون وانكماش الجمهور لولا أن اعادت الدولة للفنون نصيبا صغيرا من أموال الضرائب المحصلة .

وقد نجح مجلس الفنون فى تشجيع الجهود لتطوير الأوبرا والبالية والمسرح والموسيقى بلندن وفى الأقاليم ، وهى جهود لم تكن لتتم لولا الدعم . إن الفنون المدعومة فى بريطانيا تمثل انتصارا للقدرة على الانجاز الكبير بموارد قليلة .

ولكن هذا لا يعنى أن أولويات الدولة كانت تميل فى جانب الفنون ، أو أن الدولة قد أنفقت على الفنون قسما معقولا من مالها يتناسب مع ما ينفقه الاستثمار الخاص فى هذا المجال ، مع أن الدولة تملك من الدخل القومى نصيبا يساوى نصيب كل الأفراد .

الاقتصاد السياسي للفنون

الأرقـــام تتحدث

فالأرقام هي التي تروى هذه القصة .

ان مجمل انفاق الدولة فى كل أوجه الانفاق يبلغ ١٣٠ مليار جنيه .. منها ١٠٠ مليون جنيه تدعم بها الدولة الفنون . وهذا يعنى أن الدولة تنفق جنيها واحدا على الفنون من كل ١٣٠٠ جنيه تنفقها فى كل الوجوه .

وهذا إذا تم قياسه على حال مواطن واحد — من الأثرياء أو أصحاب الأملاك مثلا — دخله السنوى يبلغ بعد أداء كافة الضرائب ١٣٠ ألف جنيه .. ويشترى مدفعين جديدين كل عام ، وقد دفع مائة جنيه تبرعا لدعم مهرجان الفنون المحلى .. لابد أن أهل الناحية سيصفون ذلك المواطن بصفات مرذولة كثيرة ، وقد لا يصلح فى نظرهم إلا مجرد زينة فى مجلس اللوردات ، ولكنه لن يحظى عندهم أو عندنا أبدا باعتباره راعيا عظيما للفنون .

وأولويات الانفاق فى أية دولة تتجدد بناء على عديد من الضغوط ، بما فى ذلك ضغط الناخبين . ولم يحدث أبدا فى بلادنا أن توجهت الضغوط لصالح الفنون . ولعل مقارنة أخرى أن توضح لنا أين تتجه الضغوط فى الواقع .

فدعم الدولة للفنون ، والذي يتولى توزيعه مجلس الفنون ، يساوى فى مجموعه مجرد قيمة الفائدة البنكية السنوية للاعتماد المخصص لشروع « صواريخ ترايدنت » هذه هي قيمة الدعم فى هذا البلد للفن الذي يسحر الروح الانسانية (!) .

إننى فى الواقع مؤيد جدا للسياسات العسكرية الدفاعية ، ولكن هذا لا يصرف نظرى عن طبيعة الأولويات التى تقررها الدولة لمختلف ميادين الانفاق .

بين الفن والمال

والجفوة بين الفنون وبين وزير المالية يمكن تقصيها من نواح أخرى . وتتضح هذه الجفوة أكثر مما تتضح فى علاقة التناقض بين ميزانية الدولة للفنون وبين قروض الدولة للقطاع العام الصناعي والتجارى ، ففى العام ١٩٨٤ — ١٩٨٥ كانت ميزانية دعم الفنون ١٠٠ مليون جنيه ، وهى مساهمة الحكومة في تمويل استثمارات فى الفن بلغت ٢٥٠ مليون جنيه .

ومن جملة المبلغ الاجمالى البالغ قدره ٢٥٠ مليون جنيه دفعت السلطات المحلية دعما لا بأس به وتلقت الفنون هبات من الأفراد والشركات والهيئات الخاصة ، وحصلت على ١٠٠ مليون جنيه من عائد التذاكر المباعة .

ومن جملة هذه الميزانية أنفقت المسارح مبلغ ٢٠٠ مليون جنيه كمرتبات وأجور للفنانين . وهذا معناه أن الفنون تساهم فى مجال العمالة بما يربو على ٢٥ ألف وظيفة . وهؤلاء قد دفعوا ضرائب وتأمينات للدولة يبلغ مقدارها ٦٠ مليون جنيه ، ومن حصيلة بيع التذاكر التى بلغت ١٠٠ مليون جنيه كان نصيب الضريبة الحكومية ١٥ مليون جنيه ، وهكذا عاد إلى وزير المالية ٧٥ مليون جنيه من الضرائب من مبلغ الدعم الذي اختص به الفنون والبالغ ١٠٠ مليون جنيه .

ويمكنك أيضا أن تضيف إلى هذه الأرقام مبلغ ٥٠ مليون جنيه كانت الحكومة تدفعها كإعانات بطالة للفنانين الذين كانوا سيفقدون أعمالهم لولا دعم الحكومة للفنون وعددهم ٢٥ ألف فنان وفنى وإدارى .

وهذا يعنى أن وزير المالية لو لم يدعم الفنون بمبلغ المائة مليون جنيه لواجه خسارة قدرها ٧٥ مليون جنيه فضلا عن ٥٠ مليون جنيه زيادة فى اعباء الوزارة .

اننى أثق فى الموازنة الدقيقة وأومن بضرورة ضغط النفقات الحكومية بوجه عام ، ولكنى لا أفهم أبدا لماذا تريد وزارة المالية أن تمارس هذا الضغط فى النفقات على حساب الفنون .

إن الدولة تتمتع أيضا بدخل غير منظور من السياحة التى تعتبر مسارحنا إحدى جاذبياتها . فالفنون بالنسبة للسياحة فى بريطانيا تعادل الشمس بالنسبة للسياحة فى أسبانيا . والسياحة تدر على بريطانيا خمسة آلاف مليون جنيه . ولا بد من احتساب أن جانبا من هذا الدخل قد تم بفضل المسرح [٦] .

لذلك فلا تناقض فى موقفى إذا كنت أحبذ أن تضغط الحكومة نفقاتها إلى أقصى حد ممكن وأن تزيد بنفس الوقت إنفاقها على الفنون .

ولكن الفنون ليست لها هذه الحظوة .

فحـين تضاعفت ميزانية الخدمات للدولـة — الصحـة والـتعليم والضمان الاجتماعى — لم يكن للفن أصوات إنتخابية يمكن للاحزاب أن تشتريها بالوعود ، ولم يكن للفن مدافع يمكن أن تردع الأعداء .. ولذلك جاء دعم الفنون متأخرا ، وكانت حصيلته ضئيلة . كان الفن آخر من يدخل ميزانية الدولة ، وسيكون أول من يخرج منها .

جمهور الفنون

ان مراحل ازدهار الفنون قد اقترنت دائما فى العصر الحديث بارتفاع شأن الطبقة الوسطى ، فهذه الطبقة فى الواقع هى التى استهوتها التطورات الفنية . الطبقة الوسطى الفرنسية هى التى اشترت لوحات الفن التأثيرى (Impressionist) .. مديرو البنوك والتجار ، لا الارستقراطية القديمة . فالفن تغذيه دائما الطبقات الجديدة .

والطبقة الوسطى فى مرحلتنا هذه من أواخر القرن العشرين هى طبقة المشتغلين بالتقنيات الحديثة التى تتعلق بوسائل الاتصال والنظم الالكترونية الجديدة .

ان الطبقة الوسطى الالكترونية — ان صح هذا التوصيف لها — هى التى ترفد اليوم قاعدة جماهير المسرح ، وهى التى سترفدها فى السنين الباقية من القرن العشرين . فإحساس أفراد هذه الطبقة بالفردية وفضولهم العلمى واعتمادهم الاقتصادي على التعليم المستمر وعلى اكتساب المهارات المتقدمة يجعل منهم جمهورا مهما ومشجعا للفنون وللتحديث فى أساليبها .

إلى الآن يتلقى الجيل الالكترونى أكثر معارفه عن الفن من التليفزيون ، وما يزال التليفزيون وسيظل أكبر معلم للفنون ، ولكن أولئك الذين يكسبون معاشهم من مراقبة الوحدات الالكترونية ستزدادا حاجتهم لمشاهدة الابداع الفنى الحي ، وتضعف شهيتهم للإبداع المنقول الكترونيا [٧] .

ولا أعرف أى علاقة جديدة سينظمها الفنانون مع هذا الجيل الالكتروني ؟ ان كل الفنـانـين يـتـأثـرون بـالضرورة بطبيعة جمهورهم .

والطبقة الجديدة لابد أن تتطلع إلى فن متجدد وحديث . ومن أسف أن الفن الحديث اليوم لا يعدو أن يكون فن الأجداد ، ومعظم رواده قد ماتوا .. أودين وبيكاسو وشابلن .. الزمن يمشي ..

ومع ذلك أتعجب من أن الفنانين ما يزالون يظنون أن المستقبل الطبيعى للفنون سيقترن دائما بتزايد فى ميزانية الدعم بلا نهاية . وأن مجلس الفنون ستتضاعف مسئولياته باطراد .. وهو ما أشك أنا فيه .

فالقوى السياسية والاقتصادية التى



فى لندن وحدها أكثر من مائة فرقة مسرحية وفى الأقاليم مثلها .. ومجلس الفنون يدعم ثلث الفرق الفنية تقريبا

تعارض دعم الفنون قوية جدا . والحكومة تتعرض بوجه خاص لضغوط متزايدة لخفض نفقات الخدمات فى كل مجال [8] . فنحن الذين ننعى على مارجريت تاتشر اليوم ضآلة ميزانية دعم الفنون ، سنجد أنفسنا فى الغد نشعر بالحنين إلى أيامها التى مضت وإلى سخائها فى دعم الفنون .

الفنون لن تكون آمنة فى الغد إذا استمرت على التعويل على دعم حكومى متزايد أو الاعتماد على الظن بأن الدعم سيتزايد باطراد .

سياسة مجلس الفنون

لقد أعطانى مرة أحد رجال بلدية شيفيلد نصيحة جيدة حين قال لى : « إذا كانت كمية المال محدودة بين يديك ، لا يحل مشكلتك غير كيفية الإنفاق » . وهذه بالذات هى سياسة مجلس الفنون .

وكيفية الانفاق التى نراها أنسب فى الموقف الراهن ، ومع كمية الدعم الضئيل الذى نحصل عليه للفنون ، هى تطوير الإنفاق فى اتجاه الأقاليم ــ فرق الأوركسترا والأوبرا والمسارح والباليه والفنون الاقليمية خارج العاصمة . إننا نريد أن نستخدم ما بأيدينا من المال أفضل استخدام . وأخطر شىء فى الفن هو أن تلتزم بتكريس النظام الفنى القائم ، أى بتكريس طغيان فن العاصمة والفقر فى فن الأقاليم .

وإننى أشعر بالغضب لأننا لم نستطع زيادة الدعم لفنون الأقاليم هذا العام إلا بنسبة ٣٪ حولناها من ميزانيات الدعم التقليدية لفنون العاصمة .

وهو تحول من دعم الأغنياء إلى دعم الفقراء ، من دعم المتفرج الغنى إلى دعم المتفرج الفقير من دعم مسارح تنال الملايين إلى دعم مسارح تنال عشرات الألوف .

إننى أحب المسرح القومى وأعطف عليه ، وأعرف أن معماره الخراسانى العملاق على ضفاف نهر التايمز بلندن ليس سفينة محصنة ضد الخروق .. ولكنى أعطف أكثر على مسرح « إيفريمان » فى ليفربول ، وهو مسرح ينشر ضياء الفن فى منطقة تعانى اجتماعيا أسوأ آثار الأزمة الاقتصادية .

والمسرح القومى ينال دعما يقرب من ٧ ملايين جنيه من مجلس الفنون ، ومسرح « إيفريمان » قد بلغ الدعم الذى خصص له بعد الزيادة الأخيرة أقل من ٢٥٠ ألف جنيه .

ومجلس الفنون يرى ضرورة زيادة الدعم الحكومى بمقدار ٢٠٪ عن مستواه اليوم . ولكنى أنظر للمستقبل وأفضل أن تتجه الحكومة إلى إلغاء الضريبة على تذاكر المسرح ، بديلا للنظر فى زيادة مطردة للدعم . فالضريبة على تذاكر المسرح أو المتحف أو الضرائب المحصلة على عمليات بيع التحف الفنية بالمتاحف ليست إلا عبثا فى عبث . فحصيلتها ترجع إلى الخزانة ثم تعود على هيئة الدعم إلى نفس المصدر من خلال مجلس الفنون .. عبر ثلاثة أجهزة إدارية كبيرة النفقة تلتهم نصيبا منها بغير داع منطقى .

الثقافة كالتعليم يجب أن تعفى من الضريبة . وأنا أفضل أن ينقص الدعم للمسارح بمقدار إعفائها من الضرائب على التذاكر ، وأرحب أيضا بخفض أو بإلغاء الضرائب بالنسبة للمسارح التجارية وغير المدعومة .

إن مستقبل الفنون مستقر دائما فى أيدى الفنانين والمديرين . والدنيا تتغير . ولقد مات ستالين ومات فورد ، والمستقبل مفتوح للوحدات الإنتاجية والفنية الصغيرة ، وليس مفتوحا بنفس القدر للمؤسسات العملاقة . والصفات التى تضمن البقاء فى المستقبل للمؤسسات الفنية هى بالضرورة الاعتماد على النفس وسعة الخيال والقدرة على التكيف واتساع فرص الاختيار والاتجاه نحو الإكثار من الفرق الفنية المسرحية الصغيرة .

إن الدولة يجب أن تستمر فى دعم الفنون . ولكن الفنون يجب أن تتوجه إلى أنفسها وإلى جمهورها وإلى فهم ظروف المستقبل وهى تخطط لدعم أزدهارها .

* * *

انتهت المحاضرة .

ومع أن ظروف المسرح والفنون البريطانية تختلف كثيرا عن ظروف مسرحنا وفنوننا .. ومع أننا قد نخالف رأى المحاضر فى بعض نواحى بحثه وتوقعاته ..

فإننا نجد فى منهجه ونظرته الشاملة للسياسات الفنية واقتصاديات الفنون ما يمكن أن يحفزنا لطرح مشاكلنا الفنية فى إطار الاقتصاد السياسى وبنظرة إلى المستقبل .

لذلك أحببت ترجمة هذه المقتطفات المطولة من محاضرته ، والتى تلقى من جانب آخر أضواء كاشفة على طبيعة الأجهزة المسرحية القائمة خلف كواليس المسرح البريطانى ، والمؤسسات التى ترفد المسارح الأنجليزية بالفكر والتوجيه والسياسات والمنهج .

إن المسرح البريطانى يعتبر ذروة المسرح فى العالم ، ومن ثم أهمية اكتشاف آلياته المحركة لنشاطة الابداعى الكبير .

الفـريد فـرج

هامش

(١) جون راسكين (١٨١٩ ــ ١٩٠٠) كاتب ومفكر انجليزى اشتهر بمقالاته فى نقد الأدب وفى الاقتصاد وفى الاصلاح الاجتماعى . وكان أستاذا للفنون الجميلة بجامعة أكسفورد .

(٢) جون لوك (١٦٣٢ ــ ١٧٠٤) فيلسوف بريطانى دعا إلى الحرية الفردية والسماحة فى الرأى والمعرفة عن طريق التجربة ومنطق الاستدلال .

(٣) المحاضر يؤمن مع حزب المحافظين بأن الدولة فى المجتمع الرأسمالى الحر يجب أن يتضاءل دورها وتنكمش أدواتها وتقتصد فى فرض الضرائب لتدع المجال لازدهار النشاط الاقتصادى الفردى والخاص . بينما يقف حزب العمال البريطانى الموقف النقيض ويؤمن بزيادة نصيب الدولة من الثروة القومية وضرورة التوسع فى الخدمات وفى مؤسسات القطاع العام والمرافق .

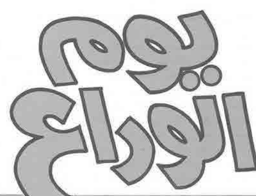
(٤) هذا رأى حزب المحافظين الذى يناقضه رأى حزب العمال . وفى الواقع تدور الانتخابات البريطانية دائما حول هذه الجدلية .. تخفيف الضرائب وضغط الإنفاق الحكومى أو زيادة الضرائب والتوسع فى الخدمات .

(٥) حكومة الحرب ١٩٣٩ ــ ١٩٤٥ .

(٦) الفرق المسرحية البريطانية الكبرى مشهورة دوليا وغالبا ما تكون زيارتها جزءا من برامج الشركات السياحية خاصة بالنسبة للسياح الأمريكيين والأوروبيين .

(٧) هذه الطبقة من العمال والمهندسين المشتغلين بالآلات الالكترونية تتسع جدا فى الغرب اليوم . ويجرى تحويل المصانع إلى نظم الحركة والتحكم الالكترونى فى معظم المجالات . كما يجرى تعميم هذه المهارات الجديدة فى كل المدارس .

(٨) كما سبق أن بينت فهذه الضغوط تأتى من صفوف حزب المحافظين وتقابلها ضغوط مضادة لزيادة ميزانية الخدمات من صفوف حزب العمال .





قصة
جديدة

بقلم

الكاتب
الكبير

نجيب محفوظ

الحياة ماضية بكل جليتها كأن شيئا لم يكن . كل مخلوق ينطوى على سره وينفرد به . لا يمكن أن أكون الوحيد . لو تجسدت خواطر الباطن لنشرت جرائم وبطولات ، بالنسبة لى انتهت التجربة . من جراء حركة عمياء . لم تبق الاجولة وداع . عند مفترق الطرق تحتدم العواطف وتنبعث الذكريات ما أشد اضطرابى . تلزمنى قدرة خارقة للسيطرة على نفسى . وإلا تلاشت لحظات الوداع . أنظر وتملّ كل شيء ، وانتقل من مكان إلى مكان ، في كل ركن سعادة منسية يجب أن تذكر . يالها من ضربة قاضية مفعمة بالحنق والغيظ والكراهية ، اندفعت بقوة طائشة ونسيان تام للعواقب . تطايرت حياة لا بأس بها . أنظر وتذكر واسعد ثم احزن . لأسباب لا وقت لاحصائها انقلب الملاك شيطانا . شد ما يلحق الفساد بكل شيء طيب . واقتلع الحب من قلبى فتحجر . لنتناس ذلك فى الوقت القصير الباقى . يالها من ضربة قاضية . ما الأهمية ؟ . هذا شارع بور سعيد يتحرك تحت مظلة من سحب الخريف البيضاء . الأبخرة المتصاعدة من صدرى تغبش جمال الأشياء . وغمزات الحنين من الماضى البعيد تطرق أبواب قلبى ، قدماى تجراننى إلى زيارة أختى . وجهها الهادىء الشاحب يطالعنى من وراء شراعة الباب . يشيع فيه السرور وتقول :

ــ خطوة عزيزة على غير توقع . فى هذا الوقت الباكر ..

ذهبت لتعد القهوة وجلست فى حجرة المعيشة أنتظر. نظر إلى الوالدان والأخوة الراحلون من صورهم القائمة فوق المناضد . لم يبق لى إلا هذه الأخت الأرمل المحرومة من الذرية التى وهبت موفور حبها لى ولسميرة وجمال . هل جئت لأوصيها بابنتى وإبنى ؟ . رجعت بالقهوة ومن داخل روبها الأبيض تساءلت :

ــ لم لم تذهب إلى الشركة ؟

ــ اجازة لوعكة .

ــ واضح ذلك من وجهك ، نزلة برد ؟

ــ نعم

ــ لا تهمل نفسك

بدأ وجهى يفضحنى . ترى ماذا يجرى فى شقتى التعيسة الآن ؟

ــ زارنى أمس سميرة وجمال

ــ إنهما يحبانك كما تحبينهما ..

ــ وكيف حال سهام ؟

ياله من سؤال برىء !

ــ بخير..

ــ ألم يتحسن الجو بينكما ؟

ــ لا أظن

ــ دائما أنصحها وأشعر بأنها تضيق بى ..

غلبنى القهر فسكت ، فقالت :

ــ زماننا يحتاج للصبر والحكمة ..

أود أن أوصيها بسميرة وجمال ولكن كيف ؟ . سوف تدرك مغزى زيارتى فيما بعد . هل تغفر سميرة وجمال لى ما فعلت ؟ ما أشد اضطرابى .

ــ ما رأيك فى أن أصحبك الآن إلى طبيب ؟

ــ لا ضرورة لذلك ياصّديقة ، سأذهب الآن لإنجاز بعض الأعمال .

ــ وكيف أطمئن عليك ؟

ــ سأزورك غدا !

غدا ؟! . ها هو الطريق من جديد . انظر وتمل وانتقل من مكان إلى مكان . شاطىء اسبورتنج وحيد أيضا . خال من البشر وأمواجه تصطفق منادية بلا مجيب . القلب يخفق تحت غلاف الهموم المحكم . ساعة خرجت من الماء بجسمها الرشيق مخضبة الاهاب بلعاب الشمس . تلفعت بالبرنس وهرعت إلى الكابينة لتجلس عند قدمي والديها . كنت أتمشى فى بنطلون قصير فالتقت عينانا . غمرنى ارتياح ابتهج له قلبى . ونادانى صوت فلبيت فوجدتنى فى مجلسها وكان المنادى خالها وزميلى فى الشركة . وتعارفنا وجرى حديث عابر ولكن ما كان أمتعه . لحظات من السعادة الصافية لا تشوبها شائبة . لا تتكرر ، تأبى أن تتكرر . تطوف بقلبى الآن على هيئة حنين طائر . له وجوده الدافىء رغم تمزق الخيوط التى ربطته يوما بالواقع . وقولها ذات يوم قلبك طيب والقلب الطيب لا يقدر بثمن .حقا ؟ . من إذن القائلة لا يوجد من هو أخس أو أحقر منك . ومن القائلة ربنا خلقك لتعذيبى وتعاستى . كان على الحب أن يصمد أمام خلافات الأمزجة ولكن الخلافات قضت على الحب . كلانا عنيد شعاره كل شيء أو لا شيء . أنت مجنونة بالمظاهر الفارغة فتصرخ فى وجهى بل أنت متخلف . سميرة وجمال يلوذان بحجرتيهما مذعورين . شد ما أسأنا اليهما . عانى الحب بيننا ساعة بعد أخرى ويوما بعد يوم حتى لفظ أنفاسه . اختنق فى لجة الجدل والخصام المستمرين . والشتائم المتبادلة . ولكن فى هذا الكازينو ، فى هذا الركن بالذات ، كاشفت خالها باعجابى بها .

ــ إنها متعلمة ، لم تدخل الجامعة . أبوها له سياسة خاصة ، بعد التعليم الثانوى يعد الفتاة للبيت إكتفاء بدخل لا بأس به ..



ــ قلت : هذا مناسب جداً . دعانا ــ أنا وهي ــ إلى عشاء في سانتالوشيا . التقينا في حديقة البجعة بعد ذلك . أيام الخطوبة والأحلام والسلوك المثالي . أسمع نغمة جميلة تهيم رغم تقصف جميع الأوتار التي عزفتها . ياللها من ضربة قاضية . ماذا يحدث في الشقة الآن ؟ . لم لا تكون الحياة أيام خطوبة دائمة ؟ . آه يا أقنعة الأكاذيب التي نتوارى خلفها . لا غنى عن وسيلة ناجعة لمعرفة النفس .

ــ أستاذ مصطفى ابراهيم ؟

نظرت إلى المنادى فإذا به مفتش بالشركة ماضياً ولاشك إلى عمل .

ــ أهلا عمرو بك

ــ إجازة ؟

ــ متوعك

ــ واضح جدا .. تحب أوصلك إلى أي مكان ؟

ــ شكرا ..

لعله أول شاهد . كلا . رآني جاري الدكتور وأنا أغادر الشقة . هل لاحظ شيئاً غير عادي ؟ رآني البواب أيضا . لا أهمية لذلك . لم أفكر في الهرب قط . في الإنتظار حتى النهاية . لولا هيامي الأخير بالوداع لذهبت بنفسي . لم أسع إلى نبذ الحياة باختياري . أنتزعت من بين يدي عنوة . ما قصدت هذه النهاية أبداً . بيني وبين الخمسين خمس . ورغم المعاناة فالحياة حلوة . لم تستطع سهام أن تبغضها إلي . هل أزور سميرة وجمال بكلية العلوم ؟ . ذهبا دون أن أراهما ولم أكن أتوقع ما حدث . ولن أجد الشجاعة للنظر في عينيهما . ويعز علي أن أتركهما لمصيرهما . أتصورهما يطرقان الباب دون أن تهرع ماما لفتحه . سيخلف هذا اليوم أثره حتى نهاية العمر . وإذا لعناني فلهما الحق . متى أتناسى كربتي وأخلص للوداع ؟ . أنظر وتمل وانتقل من مكان إلى مكان . السوق .. يوم سرنا في السوق لنبتاع الدبلتين . ويشعر من يمتلك العروس أنه يتحفز لامتلاك الدنيا ويشعر بأن السعادة قد تكون أي شيء إلاَّ أن تكون كالكحول . وأقول لها بوجد :

ــ إلى سان جيوفاني

فتقول مشرقة :

ــ أتلفن لماما

الرقة والعذوبة والملائكية في أيامنا الأولى . متى وكيف ظهرت المرأة الجديدة ؟ . بعد الأمومة ولكن دون تحديد حاسم . كيف هيمن علي شعور بخيبة الأمل ؟ . قالت لي سميرة مرة ما أشد غضبك يابابا وما أسرعه . واعترفت لسهام مرة قائلا :

ــ قد أنسى نفسي وقت الغضب ولكنني لا أغضب إلا لسبب !

ــ وبلا سبب .. إنه سوء الفهم ..

ــ تهدرين حياتنا في السفاسف ..

ــ السفاسف ؟ .. إنك لا تفهم الحياة

ــ أنت مستبدة ، لا وزن للعقل عندك ، وما في رأسك يجب أن يتم دون اعتبار لأي شيء ..

ــ لو احترمت آراءك لحقت علينا اللعنة ..

أنظر وتمل وانتقل من مكان إلى مكان . أبو قير مصيف الفطرة . ليكن الغداء سمكاً . أملأ بطنك وحركه بشيء من النبيذ الأبيض . هنا المكان جلسنا فيه سويا ، وعلمنا فيه سميرة وجمال السباحة وهما صغيران . أهدأ يا اضطرابي فاليأس إحدى الراحتين . ألم يكن الأفضل أن أطلقها ؟

ــ طلقني وخلصني ..

ــ عز المنى لولا اشفاقي على سميرة وجمال .

ــ بل تشفق على نفسك بعد أن وضح لك أنك شخص لا يطاق ..

الحق أني تمنيت كثيرا موتك . بيد الأقدار لا بيدي . أي متاعب تهون إلى جانب جحيم الكراهية . نتبادل الكراهية دون خفاء . بعد تبادل أقسى الألفاظ وأفظعها . كيف تناولت طعامي بشهية ؟ حقا لليأس سعادة لا يستهان بها . وترامت من راديو أغنية أنا والعذاب وهواك فارتجف قلبي . أغنية أحببتها كثيرا في ذلك الشهر المراوغ شهر العسل . كيف تتلاشى السعادة بعد أن تكون أقوى من الوجود نفسه ؟ . تتطاير من القلوب لتعلق بأجواء الأماكن بعد اندثار مصدرها ، ثم تقع كالأطيار على الأرض الجافة فتزخرفها بوشي أجنحتها ثواني من الزمن . أنا والعذاب وهواك وهذه الضربة القاضية . لعله اليوم الذي انقضضت فيه على سميرة بجنونك ففزعت أدفعك عنها فسقطت على رأسك يومها

اشتعلت فى عينيك نظرة غير إنسانية تمج سماً :

ـ إنى أكرهك

ـ فى داهية

ـ أكرهك حتى الموت

ـ إلى الجحيم

ـ إذا تعكر قلبى فهيهات أن يصفو

هى الحقيقة للأسف . ياذات القلب الأسود . لم يجد اعتذار أو مجاملة أو توادد . ولم يجر بيننا حديث بعد ذلك إلا عن الواجبات والميزانية . واختلط الانتقام بتكاليف المعيشة . ونضب معين الرحمة . حامت أحلامى حول الهروب كالسجين أو الأسير . جفت رغبات قلبى وأطبقت عليه الوحشة . وراحت تتصرف تصرف المرأة الحرة فتذهب وتجىء بلا إذن أو اخطار . يلفها الصمت فلا تند عنها كلمة إلا للضرورة . وانطوت على سرها كبرياء فلم تشكنى إلا لأختى صدّيقة . ولما لم تقم بما توقعته منها وقصدت التوفيق كرهتها بدورها . وقالت إنه ليس بجنون رجل ولكنه جنون متوارث عن أسرة . وانتهزت فرصة انفرادى بسميرة وجمال سألت عن رأيهما فيما يشهدان من أحوالنا . قال جمال :

ـ حالكما لا يسر يابابا ، كحال بلدنا أو أسوأ ، لذلك فإنى سأهاجر فى أول فرصة ..

أعرف الكثير عن تمرده أما سميرة فبنت عاقلة . متدينة وعصرية فى آن ، ولكنها قالت :

ـ معذرة يابابا لا تسامح من ناحيتك أو ناحيتها ..

ـ كنت أدافع عنك ياسميرة .

ـ ليتك ما فعلت ، كانت ستصالحنى بعد ساعة ، لكنك سريع الغضب يابابا ..

ـ لكنها غير معقولة ..

ـ بيتنا كله غير معقول !

ـ اخترتك قاضية .

ـ كلا .. لا يحق لى هذا أبدا

ـ لم أجد عندكما أى عزاء .

فقال جمال :

ـ لا عزاء عندنا ولا عزاء لنا .

إذا لم يحبنى هذان الاثنان كما أحبهما فأى خير أرجو فى هذا الوجود ؟! . آه . أنظر وتمل وانتقل من مكان إلى مكان . بحق الحياة الضائعة عش الساعة التى أنت فيها وانس الماضى تماما . املأ عينيك فما تغادره لن تراه مرة أخرى . كل لحظة هى اللحظة الأخيرة . من دنيا لم أشبع منها ولم أزهد فيها وانتزعت من بين يدى فى هوجة غضب . أى شارع من هذه الشوارع لم يشهدنا معا ؟ أو يشهد أسرتنا الكاملة وسميرة وجمال يتقدماننا . ألم تكن توجد وسيلة لاصلاح ذات البين ؟ . أقسى عقوبة أن تودع الاسكندرية فى مجلى خريفها الأبيض . وفى عنفوان الرجولة والرشاد . وهذا هو البحر الصامت فى الناحية الأخرى من أبو قير . ونغنى معا ياللنعيم اللى انت فيه ياقلبى . فى حوار غنائى بين قلبين يقظين . وسميرة وجمال مبهوران بعدّ قوارب الصيد الراسية فوق شعاع القمر .. هل يكفى يوم واحد للطواف بمعالم ربع قرن ؟ . لم لا نسجل الاعترافات العذبة فى ابانها لعلها تنفعنا وقت الجفاف ؟ . الذكريات كثيرة مثل أوراق الشجر والمدة الباقية قصيرة مثل السعادة . السعادة تغيب الوعى حين حضورها وتراوغنا بعد زوالها . ومن لى بمن يجمعنى بدولت ؟ . لا سبيل إلى ذلك اليوم . ولو تيسر لزادنى ارتباكا وفضح أمرى قبل الأوان . وما جدوى ادعاء حب لا وجود له ؟ اليأس وراء انزلاقى فيه . ولم تكف أبدا عن التلويح لى بالزواج دون اكتراث لمصير سميرة وجمال . ليس هو بحب ولكنه نزوة انتقام . ليتنى وقفت عنده ولم أعبره للضربة القاضية . المساء يهبط والبحث عنى يشتد ولا شك . فلأنتظر فى استريا أحب أماكن المساء إليّ . مجمع الأسر والعشاق والأحلام الوردية . الجعة والعشاء الخفيف والمرطبات . ربما أكون المنفرد بنفسه الوحيد . معذرة ياسميرة معذرة ياجمال ، استقبلت الصباح بنية صافية ، ولكنه الغضب يطوح بنا فوق المحاذير . ضرعت إلى الساعة أن تتأخر دقيقة واحدة . ولما تلاشت التوترات العنيفة لم يبق إلا اليأس بوجهه الثلجى الأبكم . وجلت جولة الوداع يتبعني الموت حينا ويتقدمنى حينا آخر . أختزل العمر فى ساعات فعرفت الحياة أكثر من أى وقت مضى . ما أسعد الناس من حولى ولو وقفوا على سرى لسعدوا أكثر . ويسألنى النادل مجاملا :

ـ أين الهانم ؟

ـ فأجيبه باكتئاب خفى :

ـ مسافرة .

لم يعد فى الوقت بقية . عما قريب سيقترب منى رجلان أو أكثر :

ـ حضرتك مصطفى ابراهيم

ـ نعم يافندم ..

ـ تسمح تتفضل معنا !

ـ أقول بهدوء كامل :

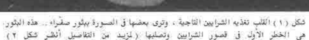
ـ كنت فى انتظاركم ..

نجيب محفوظ

شكل (٢) صورة مكبرة لشريان تاجي متفرع ، وفيه تظهر بوضوح الترسبات الدهنية الغنية بالكوليسترول ، وبمرور الزمن تضيق الى الحدود التى يصبح فيها القلب عاجزا عن تقبل أي مجهود

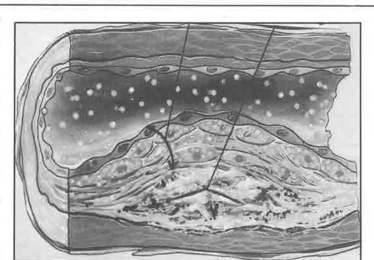


الثلاثي القاتل



شكل (١) القلب تغذيه الشرايين التاجية ، وترى بعضها فى الصورة ببثور صفراء .. هذه البثور هى الخطر الأول فى قصور الشرايين وتصلبها (لمزيد من التفاصيل أنظر شكل ٢)

للمدنية الحديثة وجهان متناقضان : وجه مشرق ، وبه تبدو جميلة ومريحة وجذابة ، ووجه آخر مقبض ينطوى على القلق والتوتر والخوف والأرق وهموم الحياة المعقدة والشائكة .. ورغم أن التقدم العلمى والطبى قد أراح الناس ، وقضى على الكثير من الأوبئة التى كانت فيما مضى تحصد الناس حصدا ــ رغم ذلك فقد حلت محلها أمراض أخرى نتيجة للعادات السيئة التى صاحبت المدنية الحديثة ، فلا أحد ينكر مثلا أن ظاهرة الأزمات القلبية آخذة فى الزيادة ــ ليس ذلك فى الدول المتقدمة فحسب ، بل صار واضحاً فى الدول النامية ، لأنها بدأت تدخل عصر المدنية الحديثة ــ ولاشك أن هناك علاقة وطيدة بين الحياة العصرية ، والأزمات القلبية .. وهو ما سوف نتناوله فى هذا المقال ، لنضع به النقط فوق الحروف .



شكل (٣) رسم توضيحي يبين مرحلة من المراحل المتأخرة التى يترسب فيها الكوليسترول مع المواد الدهنية فى أحد الشرايين التاجية ، وبمرور السنين ، يزيد الترسيب ، ويضغط على الطبقة المبطنة للشريان ، فيعوق سريان الدم ، وقد يؤدي الى تكوين جلطة (البقع الصفراء الموجودة فى الدم تمثل الكوليسترول)



الكوليسترول
تصلب الشرايين
الأزمات القلبية

بقلم : الدكتور عبد المحسن صالح

عندما يسقط انسان ضحية لأزمة قلبية مباغتة (وما أكثرها هذه الأيام) ترى الناس من حوله يتساءلون : لماذا تأتى هكذا فجأة ودون أن تسبقها علامات تنذر بوقوعها مثلما يحدث فى الأمراض الأخرى ؟ .. وهل عجزت العلوم الطبية ـ رغم التقدم الهائل الذى تحقق فى كثير من مجالاتها ـ عن التوصل إلى طريقة يمكن بها كشف هذا البلاء قبل حدوثه ، حتى يمكن تجنبه ؟

الواقع ألا شيء يأتى من لا شيء ، بمعنى أن الأزمات القلبية لا تأتي من فراغ ، بل هناك عوامل أو أسباب تؤدى إليها ، لكن معظم الناس عن هذه الأسباب لاهون ، فماذا يهم مادام التنفس عظيما ، والقلب سليماً ، والهضم مريحاً ، والجسم شديداً .. إلى آخر هذه العلامات المطمئنة التى توضح أن كل شيء على ما يرام .. ورغم ذلك فقد تسمع من يقول : ان « فلانا » قد مات فجأة وهو يؤدى عمله بنشاط واضح ـ لقد كان مكتمل الصحة ، موفور العافية ! .. أو أن « علانا » قد نقل إلى إحدى المستشفيات بين الموت والحياة ، عندما داهمته أزمة قلبية ، رغم أنه لم يكن يشكو من علة أو مرض ، بل كانت تظهر عليه علامات الحيوية والقوة والشباب .. أو غير ذلك من تعليقات تتردد بين الناس ، لكنها غالبا تشير إلى حقيقة لا مفر منها ولا مهرب .. فكثير من الأزمات القلبية تحدث فجأة ، ودون سابق إنذار ، وهذا ما يجعلها من أخطر أمراض العصر على الاطلاق !

لكن مما لاشك فيه أن لهذه الأزمات أسباب تعمل فى الخفاء ودون أن يتنبه إليها أحد ، لكنها أحيانا قد تبعث بانذاراتها التى تتخذ أنماطاً شتى ، وكأنما لسان حالها يقول : إن الشرايين التاجية (التى تغذى عضلة القلب) قد ضاقت ، وهذا يعني قصوراً فى دورتها الدموية ، « فيتألم » القلب « ويتوجع » ، لأن ملايين فوق ملايين من خلاياه العضلية تكاد تختنق ، فالأوكسجين الواصل إليها مع الدم لا يكفيها ، خاصة إذا بذل الانسان مجهودا ، لأن المجهود يحتاج إلى طاقة ، والطاقة تنتج من احتراق السكر والأوكسجين ، وفى كليهما قصور ، فينعكس ذلك على أوجاع وآلام لا يحسها الانسان مباشرة في قلبه ، لكن الاحساس يظهر وكأنما هناك كابوس جاثم على الجزء الأوسط من صدره ، وقد ينتقل إلى كتفه ثم ذراعه الأيسر ، أو أحيانا إلى الظهر والذراعين ، والرقبة وتحت الفك الأسفل ، وقد يصحبها ضيق فى التنفس ، وعرق غزير بارد .. المهم أنه بزوال المجهود ، تزول الأزمة ، ثم قد تعود إذا عاد المجهود ، أو إذا تعرض الانسان لما يغضبه ، أو عندما يتناول وجبة ثقيلة دسمة ، ومثل هذه الأعراض التى تروح وتجيء تعرف باسم الذبحة الصدرية ، لأن آلامها قد تصل إلى الدرجة التي يتصور فيها الانسان أن هناك خناجر تطعنه فى صدره !

ورغم أن الذبحة هي بمثابة انذار للانسان لكى يأخذ حذره ، إلا أن كثيراً من الناس قد يخدعهم ذلك ، فيتصورون أن هذه الآلام التى تجيء وتروح ، هى من علامات عسر الهضم ، أو امتلاء المعدة ، وقد لا يبالون ، حتى تحدث الكارثة ، وتتحول إلى أزمة قاتلة ، خاصة عندما تنحشر في أحد الشرايين التاجية الرئيسية جلطة دموية ، فيتخبط القلب ، ويفقد سيطرته على نفسه ، وقد يؤدى ذلك إلى الوفاة ، ما لم يُسعف المصاب بعلاج فورى تتولاه إحدى المستشفيات المتخصصة ،

وأحيانا قد لايجدى ذلك . فيسبق السيف العزل .

عندما تتصلب الشرايين

وطبيعي أن يطرأ هنا على الأذهان تساؤل وتساؤل : ما الذى يسبب القصور فى الدورة التاجية ؟.. ولماذا تحدث فى أفراد دون أفراد ؟.. أو فى مجتمعات دون أخرى ؟

القصور فى الدورة التاجية يرجع الى ترسيبات من جزيئات حيوية تدور مع تيارات الدم ، ثم هى تتجمع ببطء شديد على جدر الشرايين من الداخل . وبمرور عشرات السنين تبدو كبثور صفراء اللون . ولهذا تضيق الشرايين . وتفقد مرونتها أو تتصلب . والواقع أن مثلها هنا كمثل الأنابيب التى تترسب على جدرها الشوائب العالقة فى السوائل التى تسرى فى داخلها ، وكلما مر الزمن ، زاد الترسيب ، وضاقت الأنابيب ، وانخفض معدل التدفق . مع الفرق طبعا بين ما يجرى فى أنابيب وشرايين . إذ ليس الترسيب فى الشرايين بالصورة التى نعرفها فى حياتنا العادية ، بل يخضع لديناميكية التفاعلات الحيوية ، ولنوع الجزيئات الكيميائية ، ولطبيعة الشحنات الكهربية ، ولتركيز المركبات الدموية ، وللتوازن البديع الذى تسيطر عليه شرائع الجسم الحي ، ليسرى فيه كل شيء بحساب ومقدار !

كل هذه العوامل التى ذكرناها والتى لم نذكرها ، تتداخل فى شبكة من المتاهات التى لا نستطيع أن نتعرض لها هنا ، إما لضيق المجال ، أو لعدم مناسبة الحال ، (فذلك يستدعي من القارىء أن يكون ملماً بحصيلة لا بأس بها من الأسس العلمية) لكن تكفينا هنا المحصلة النهائية التي يمكن استيعابها من الصور المنشورة ضمن هذا المقال ، ففيها فصل الخطاب (أنظر أشكال ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) .

لكن .. ما هى طبيعة تلك الترسيبات أو البثور الصفراء التى تنتشر في الشرايين ؟

الواقع أنها تجمعات من مواد دهنية بروتينية بها نسبة كبيرة من الكوليسترول . ويقال ان هذا الكوليسترول (مادة كيميائية شبه دهنية) هو أس البلاء ، أو هو المتهم الأول فى ضيق الشرايين وتصلبها ، فحيث يوجد بترسيباته ، توجد الاختناقات فى تدفق الدم . وقد تتسبب هذه الاختناقات فى إحداث جلطة دموية ، تؤدى الى انسداد الشريان ، فيموت جزء من عضلة القلب ، نتيجة لانقطاع الدم عن المساحة التى يتفرع فيها هذا الشريان .. وذلك بلاء عظيم !

ولا شك أن كل خلق مقدر أعظم تقدير ، فلو أنك استطعت أن ترى « بطانة » الشريان من الداخل ، لوجدته مبطنا بطبقة من الخلايا التى تتراص الواحدة بجوار الأخرى فى سطوح انسيابية غاية فى الاستواء والنعومة ، وبهذا يسرى الدم بحرية وسهولة ، ودون أن يتقابل أو يحتك بسطوح غير سوية . لكن ذلك قد يحدث أحيانا إذا حدثت تعرية فى البطانة ، نتيجة وجود بثور الكوليسترول ، فيؤدى ذلك الى التصاق الصفائح الدموية عليها ، وتبدأ سلسلة من التفاعلات المحكمة التى تتمخض عن جلطة تسد الشريان ، فإن كان ذلك الشريان يقوم بتغذية مساحة من عضلة القلب ، فإن الجزء الذى حجز عنه الغذاء يموت ، وقد يؤدى ذلك الى عجز فى حركة المصاب ونشاطه ، أو قد يموت من شدة الاصابة ، لكن أحيانا تكون الجلطة فى أحد الشرايين التى تغذى المخ (شكل ٥) ، وعندئذ يموت الجزء الذى منع عنه الأوكسجين والغذاء ، فيؤدى ذلك الى شلل تختلف درجته وموقعه حسب حجم الجزء الذى أضير فى المخ ، أو قد تحل الجلطة بأحد الشرايين التى تغذى الساق ، فيحس الانسان بآلام رهيبة ، وإذا لم يسعف بالعلاج ، فإن بعض أنسجة ساقه تموت ، وتصبح مرتعا سهلا للميكروبات ، وقد يتبع ذلك غرغرينا مميتة (تسمم الدم) .

الكوليسترول .. سلاح ذو حدين

وإذا سلمنا بأن الكوليسترول هو أس المصائب المؤدية لتصلب الشرايين ، وضيق أقطارها ، والمقاوم لسريان الدم بمعدلاته الطبيعية فيها ، فما الذى يمنع من تخفيض تركيزه فى الدم الى حد السلامة ؟

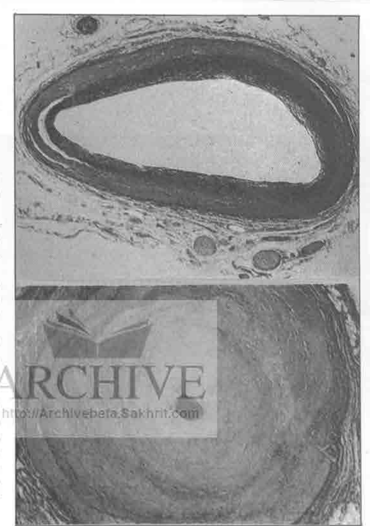
وهذا تساؤل وجيه ، فلقد أصبح من المسلمات الآن أن ينصح الطبيب مريض القلب بالاقلال ــ قدر المستطاع ــ من الأطعمة الدسمة الغنية بالكوليسترول ، وهو مطلب يمكن تنفيذه ، خاصة وأن حياة المريض بالقلب تتوقف عليه ، لكن الكوليسترول ــ رغم سمعته السيئة ــ لا يمكن الاستغناء عنه ، إذ تحتاج أجسام الإنسان والحيوان إليه كخامة هامة لتصنيع عدد من الهرمونات الحيوية التى تنظم الكثير من العمليات الفسيولوجية (ومنها هرمونات الجنس) وهو أيضا بداية لانتاج أملاح الصفراء (المرارة) اللازمة لعمليات الهضم ، ثم هى لبنة هامة من لبنات البناء فى أسوار الخلايا (الأغشية البلازمية) ، ومنه يبدأ تصنيع فيتامين د... الى آخر هذه العمليات التى قد يتشعب فيها الحديث ويطول .

ومع فرض أننا قد تناولنا أطعمة خالية من الكوليسترول ، فإن الجسم يستطيع أن يجهز منه لذاته التركيزات المطلوبة فى خلايا الكبد ، هذا وتقدر كمية ذلك المركب التى يكونها الجسم بحوالى جرام واحد يومياً .

لكن الجسم يتعامل دائما مع مركباته بمعايير مضبوطة ، فإذا زاد الشيء عن حده ، فقد ينقلب الى ضده ، وإذا نقص ، كان الخلل .. ولاشك أن الكوليسترول واحد من هذه المركبات ، فتركيزاته الطبيعية تتراوح بين ٢٠٠ ــ ٢٢٠ ملليجرام فى كل ١٠٠ سنتيمتر مكعب من الدم (المليجرام ــ جزء من ألف جزء من الجرام) ، فإذا زادت بشكل واضح (أى أعلى من ٢٨٠ بالتقريب) كان ذلك نذيرا بحدوث مالا يحمد عقباه .

ومع أن معظم الباحثين يشيرون بأصابع الاتهام للكوليسترول ، نرى فريقا من المتحفظين يبرئونه من ذلك .. إذ ليس الكوليسترول هو المتهم الأول فى إحداث الأزمات القلبية .. وطبيعى أن لكل فريق أدلته ، فأيهما نصدق ؟

الواقع أن الجدل فى هذا الموضوع قد حسم بعد اجراء بحوث مستفيضة قامت بها عشر مراكز طبية فى كل من الولايات المتحدة وكندا ، واستمرت عشر سنوات كاملة ، ووصلت ميزانية هذه البحوث الى ١٥٠ مليون



شكل (٤) مقطع عرضي في شريانين : أحدهما عادى أو سليم (أعلى) والثاني متصلب وشبه مسدود (تحت) ، فينقطع بذلك سريان الدم عن جزء من عضلة القلب ، ويؤدى ذلك الى أزمات قلبية قد تكون مميتة

دولار . وتطوع لها أكثر من ٤٠٠ ألف أمريكي وكندى ممن تتراوح أعمارهم بين ٣٥ ، ٥٩ عاما ، ولقد تم اختيار ذوى النسب المرتفعة من الكوليسترول ــ أى من هم أعلى من ٢٦٥ ملليجرام ، واستبعدت السيدات من هذا البحث ، لأنهن أقل عرضة للأزمات القلبية من الرجال ، وفي النهاية تمت التصفية والاختيار ، ووضعت أربعة آلاف حالة تحت الملاحظة والاختبار ، وجميعهم ممن لم يسبق لهم التعرض لأزمات قلبية .

وبدون الدخول في التفاصيل ، فلقد عاش نصف هؤلاء على نظام خاص من الغذاء ــ أى أن قيمة الكوليسترول فيه كانت منخفضة ، ووضع النصف الآخر تحت العلاج بدواء خافض للكوليسترول (اسمه كوليستيرامين ، وهو غالي الثمن ، إذ يتكلف الفرد منه شهريا ١٥٠ دولارا) ــ وطبيعي أن تقارن نتائج الحالات التي تم فيها خفض الكوليسترول مع نتائج الحالات التي تركت لشأنها ــ أى دون أن تدخل التجربة ، لكنها كانت تحت الملاحظة .

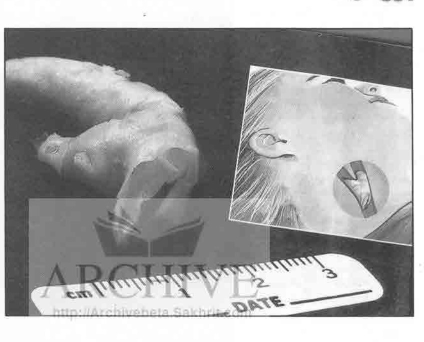
في العام الماضي أعلن المعهد القومي الأمريكي لأمراض القلب والرئة والدم نتائج هذا البحث الضخم ، وأمكن تلخيصها في ٣٩ صفحة ، وهي تشير في مجملها إلى أن إنقاص كمية الكوليسترول في الدم بنسبة ١٪ فقط يقابله انخفاض في احتمال الاصابة بالأزمات القلبية بنسبة ٢٪ ، لكن الأهم من ذلك أن الرجوع بالكوليسترول إلى معدلاته الطبيعية يقلل من احتمال الاصابة بنسبة ٥٠٪ .

الكوليسترول : مذنب أم غير مذنب ؟

مذنب ــ لكن أكثر من يد تشترك معه في « الجريمة » .. فكاتب هذا المقال ــ على سبيل المثال ــ كان دائما ذا كوليسترول معتدل ، ومع ذلك فقد أصيب بثلاث أزمات قلبية ، تمخضت عن ثلاث جلطات في الشرايين التاجية ، ويعني ذلك أن الكوليسترول ــ بالنسبة له ــ كان بريئاً من هذه التهمة ، لكن لا يجب أن نستخلص أحكاما عامة من حالات فردية ، بل يقتضى الأمر أن نحصل على النتائج من أكبر عدد ممكن من الحالات ، وكلما كان العدد كبيرا ، كان الحكم أكثر صوابا واطمئنانا ، وهو هنا ــ كأى مسألة أخرى ــ يخضع لمبدأ الاحتمالات ، فلا شيء في العلم يقيني ، لأن اليقين لله وحده ، فعلمه مطلق ، وعلم الانسان نسبي ، ثم إن للعقل حدوداً مهما بلغ تقدمه وعلمه .

فالذين يقولون إن احتمال الاصابة بسرطان الرئة أكبر بين المدخنين عنه في غير المدخنين ، لم يجانبهم الصواب .. فليس حتما أن يصاب كل مدخن بالسرطان ، ولا أن ينجو منه كل من لا يدخن ، بل أن حدوثه في الفئة الأولى أكثر احتمالا من الفئة الثانية .. وكذلك الحال مع الكوليسترول .. فإذا كان معتدل التركيز ، ثم حدثت الأزمة القلبية ، فلابد من البحث عن عامل أو عوامل أخرى ، فربما كانت هي المسئولة عن ذلك .. ومن هنا يتعين علينا أن نتعرض لها ، حتى تتضح الأمور ، فلا يقع بعض الناس في المحظور .. لكن قبل أن نفعل ذلك ، كان لزاماً أن نوفى موضوع الكوليسترول حقه ، وبقدر ما يسمح المجال .

الثلاثي القاتل



شكل (٥) أحد الشرايين التى تمر بالرقبة (كما هو موضح الى اليمين) لتغذى المخ. وقد ظهر تصلبه وضيقه واضحا قبل تفرعه الى شريانين صغيرين (الصورة مكبرة قليلا كما هو موضح بالمقياس المجاور)

شكل (٦) الغذاء دسم ووفير، والتنوع فى الطعام كثير، والشهية على مايرام. لكن كثرة الطعام بلاء عظيم، وهو من العوامل التى جعلت الأمريكيين من أكثر شعوب العالم إصابة بالأزمات القلبية

لاشك أن معظم الدراسات الكبيرة والمكلفة تتم فى الولايات المتحدة، لأنها دولة غنية وقادرة على تمويل البحوث. ولأن لديها جيشاً كبيراً من العلماء والأطباء والباحثين. ولأن مشاكلها مع مرض القلب هى أولى المشاكل بين كل الأمراض. فآخر إحصاء قدمته جمعية القلب الأمريكية يشير إلى وجود حوالى ١٧ مليون أمريكى يعيشون بقلوب غير سليمة (أى حوالى ٧٪ من السكان) يموت منهم مليون بالأزمات القلبية كل عام. وهى حصيلة تساوى حصيلة الموت من الحوادث ومن كل الأمراض الأخرى. ويعنى ذلك أن مرض القلب هو السفاح الأول الذى يقتل الأمريكيين، وغير الأمريكيين بطبيعة الحال.

وقد يتساءل هنا البعض معترضين ما شأننا نحن وشأن الأمريكيين وبحوثهم وأمراضهم وقلوبهم؟.. أليس من الأوفق أن نتحدث عن واقعنا نحن؟

وقد يبدو هذا الاعتراض وجيهاً ومقبولا، لكن العنصر الانسانى واحد فى كل زمان ومكان، وهو -بلاشك- قد اكتسب من المدنية الحديثة عادات جديدة قد نحسب أن فى ظاهرها نعمة، ولكن فى باطنها نقمة، ثم أن هذه العادات قد بدأت تنتقل إلينا فى عالمنا العربى خاصة، ودول العالم الثالث عامة.. والنتيجة أن الأزمات القلبية بدأت تتزايد تدريجياً، إذ كلما انغمسنا فى حضارة هذا العصر ورفاهيته، زادت مشاكلنا الصحية تبعاً لذلك.

ونحن فى ذلك لا ندعو إلى العودة لحياة الفقر والتقشف، ولا أن نهجر حضارة عصرنا، فهذا -فى حد ذاته- دعوة إلى التخلف، لكن ما نعنيه أن طرق الحياة العصرية أهم الأسباب الكامنة وراء الأزمات القلبية، أضف إلى ذلك أن الاستفادة من بحوث الأمريكان أو غيرهم فى هذا الميدان لا غبار عليها، فالعلم لا وطن له، ثم أن البحوث الكبرى ليست من نصيب الدول النامية بعد، ويوم تكون عندنا إحصائيات على نفس المستوى، فإن الرجوع إليها لاشك أجدى، لكنك تستطيع أن تعرف أن الأزمات القلبية فى الدول العربية بدأت تشكل عبئاً كبيراً على حكوماتها.. لهذا استفسر من أية وزارة صحة، أو معهد من معاهد القلب، أو مستشفى تخصصى لمعالجة الأزمات فى أية دولة عربية، تجد أن مايرد إليها سنوياً من حالات مرضى القلب فى ارتفاع ينذر بأخطار لابد من توضيح أسبابها فى هذا المجال.

«وكلوا واشربوا ولا تسرفوا»

هناك إذن أدلة قوية على أن تصلب الشرايين، وضيق أقطارها، ثم ما يتمخض عن ذلك من عبء زائد على القلب، وما يؤدى إليه من أزمات، انما مرده إلى الدهون والكوليسترول الزائد عن الحاجة، والزيادة



تأتي من الطعام ، والطعام من صنع الانسان واختياره ، وكلما زادت رفاهيته ، زاد تنوع طعامه ، وزاد نهمه ، وقد تكون أشهى الأطعمة عند البشر ، أغناها فى مادة الكوليسترول (شكل ٦) .. ومن هنا تبدأ المشكلة ، لتسير فى حلقات ، حتى تنتهى بترسيب فى جدر الشرايين ، وبها تبدأ متاعب القلب .

والواقع أن الشعب الأمريكى من أعظم الشعوب رفاهية فى تنوع الأطعمة ، خاصة تلك التي تحتوى على الكوليسترول ، ومن أجل هذا تنتشر بينهم أعلى نسبة من الأزمات القلبية ، وعلى العكس من ذلك يكون الشعب الياباني ، فرغم أنه قد أصبح من أغنى شعوب العالم ، وأكثره رفاهية ، إلا أنه يعيش على أطعمة أقل كثير فى الكوليسترول من الأطعمة الأمريكية ، ولهذا فإن الأزمات القلبية أقل بين اليابانيين ، أو هكذا تشير الإحصائيات التى جمعت فى هذا المجال .

وما من مريض يذهب الى الطبيب ، ويكتشف أن وزنه لا يتناسب مع طوله أو عمره ، فلابد من نصحه بالإقلال من كمية الطعام ، وخاصة الأطعمة الدسمة والغنية بالكوليسترول .. ذلك أن زيادة الوزن بعد سن الثلاثين غير مرغوب فيها ، لأن الزيادة تعنى دهونا مختزنة ، وتعنى أعباء جديدة على القلب والشرايين ، وتعنى إضافة أوعية وشعيرات دموية كثيرة تنتشر فى هذه الدهون لتعطيها وتأخذ منها ، حتى لقد قيل ان كل كيلو جرام من الدهن يحتاج الى تكوين حوالى ثلاثة آلاف متر من تلك الشعيرات ، فما بالنا بزيادة قد تصل الى ٥ أو ١٠ كيلو جرامات أو أكثر؟ .. فى هذه الحالة قد ينطبق عليها المثل « الفئران النحيفة تدفن السمينة » ــ وهى إشارة تعنى أن ذوى البدانة لا يعمرون !

على الانسان الذى يخشى من زيادة الكوليسترول فى دمائه ، أو الذين يثبت أن الكوليسترول فى دمائهم عالى التركيز ــ عليهم الإقلال ــ قدر المستطاع ــ من تناول أطعمة غنية بهذه المادة ، مثل المخ والكلية والكبد واللحوم الدسمة والجمبرى والدهون الحيوانية والبيض .. الخ (البيضة الواحدة تحتوى على حوالى ٢٧٥ ملليجرام كوليسترول !) وأن يستعيضوا عن ذلك جزئيا بالأسماك والدجاج والألبان أو مشتقاتها (على أن تكون منزوعة الدسم) واللحوم الحمراء قليلة الدهن والزيوت والدهون النباتية والفواكه والخضراوات .. الخ .

والواقع أن التجارب التى أجريت على الحيوانات تؤكد أن للكوليسترول دخلا فى تصلب الشرايين ، خاصة لو عاشت فى طعامها على الطريقة الأمريكية أو العصرية .. أضف الى ذلك أن كثيرين جدا من سكان الدول العربية الذين تيسرت حياتهم ، قد أخذوا عن الغرب عادات غذائية ، وهذا يفسر لنا ــ جزئياً ــ سبب الزيادة المضطردة فى الأزمات القلبية ــ لكن ليس الغذاء وحده هو المسئول عن حدوث أمراض القلب والشرايين ، بل هناك أيضا سبل الحياة العصرية ، وفيها يتشعب الحديث ويطول . ولهذا فسوف نفرد لها دراسة مستقلة .

لكن قبل أن ننهي هذه الدراسة التى كان لنتائج البحوث فيها النصيب الأكبر ، مع تركيزنا فيها على بعض النصائح « المستوردة » ، كان لابد أن نشير إلى أن لدينا مالو استرشدنا به ووعيناه ، لكان صحة وخيراً وبركة .. ففي القرآن الكريم « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » .. وفى الأحاديث النبوية « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه » .. وفي الأثر « المعدة بيت الداء والحِمْيَة أُسّ الدواء » .. « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع . وأن أكلنا لا نشبع » .. والحق أن هذه الحكم وغيرها تحوى مبادىء عامة تقى الجسم من كثير من الأمراض ، أو هى ما نطلق عليه اسم الطب الوقائى « فدرهم وقاية ، خير من قنطار علاج » .. وفى هذا الكفاية لقوم يدركون فيرشدون .

عبد المحسن صالح

حتى لا يفاجئنا المستقبل

السكان قنبلة موقوتة في عالمنا المعاصر

أعلنت الأمم المتحدة في يناير ١٩٨٦ أن عدد سكان العالم قد زاد ٧٩ مليون نسمة بنسبة ١,٧٪ خلال الفترة ما بين منتصف عام ١٩٨٤ ومنتصف عام ١٩٨٥ ، ليصل إلى رقم ٤,٨٤٢ مليار نسمة . ويثير ذلك في الأذهان القضايا المختلفة التي تتناول العلاقة بين السكان والبيئة ، وبين الإنسان والموارد وبين الزيادة المطردة في عدد السكان والآثار الاجتماعية والسياسية لذلك وبالذات في الدول النامية . وكل ذلك ينبه إلى ضرورة إهتمام الحكومات بموضوع السكان وبلورة سياسات سكانية ، تماما مثل اهتمامها بالسياسة الاقتصادية أو الاجتماعية .

بقلم: الدكتور علي الدين هلال

بالطبع لا توجد لدينا إحصاءات دقيقة عن تطور سكان العالم عبر مراحل التاريخ المختلفة ، ويقدر المؤرخون عدد السكان عند إكتشاف الزراعة بأنه قد تراوح بين ٥ ــ ٨ مليون نسمة وأنه عند مولد السيد المسيح كان حوالي ٣٠٠ مليون واستمر في الزيادة البطيئة ، فقد كانت الأمراض والأوبئة تفعل فعلها في القضاء على أعداد كبيرة من البشر . وفي عام ١٥٠٠ أصبح العدد ٦٠٠ مليون إنسان ، وفي عام ١٧٥٠ بلغ ٨٠٠ مليون . وبدأ معدل الزيادة في الارتفاع ، ففي عام ١٨٥٠ وصل العدد إلى ١٣٠٠ مليون (١,٣ بليون) ، وفي عام ١٩٠٠ إلى ١,٧ ثم ارتفع إلى ٢,٥ بليون في عام ١٩٥٠ ، وبعدها بخمس وعشرين سنة ، أي في عام ١٩٧٥ ، وصل عددنا إلى ٤ بليون وفي عام ١٩٨٢ أصبح العدد ٤,٨ بليون . وتبدو دلالة هذه الأرقام عندما نتأمل في عدد السنوات التي استغرقها البشر لكي يضاعفوا عددهم ، فإذا أخذنا بداية التاريخ الميلادي فإن البشرية استغرقت ٢٠٠ سنة لتحقق نفس الشيء ، واليوم فإنها تستغرق أقل من أربعين سنة .

ففي صباح كل يوم يولد حوالي ٢٢٠,٠٠٠ فم جديد ، وفي كل سنة يزداد العالم مابين ٧٦ ــ ٨٠ مليون نسمة .

وحسب تقديرات المتخصصين حول الزيادة السكانية فإنه يتوقع أن يصل عدد سكان العالم إلى ٦,٢ بليون في عام ٢٠٠٠ ، أي أن العالم سوف يشهد ٢ بليون إنسان جديد قبل أن يصل أطفال اليوم إلى سن العشرين . كما يتوقع أن يصل العدد إلى ٨,١ بليون في عام ٢٠٢٥ ، وإلى ٩,٨ بليون في عام ٢٠٥٠ .

السكان في الدول النامية

تتضح الدلالة السياسية لازدياد عدد السكان عندما نحلل توزيع هذه الزيادة بين القارات المختلفة ، وندرك أن هذه الزيادة تتركز في الدول النامية ، فوفقا للأرقام عن حقبة ١٩٧٥ ــ ١٩٨٥ فإن أعلى معدل للزيادة كان في أفريقيا بنسبة ٣٪ ليصل عدد سكانها إلى ٥٥٣ مليون ، تليها أمريكا الجنوبية بنسبة ٢,٣٪ ليصل عدد سكانها إلى ٣٦٩ مليون ، ثم القارة الآسيوية بنسبة ١,٧٪ ليصل عدد سكانها ٢,٨٢٤ بليون ، ثم أمريكا الشمالية

والوسطى بنسبة ١.٥٪ ليصل عدد سكانها ٤٠١ مليون . أما أقل نمو سكانى فقد كان فى أوربا بنسبة ٠.٤٪ ليصل عدد سكانها إلى ٤٩٢ مليون نسمة .

وإذا ترجمنا ذلك إلى أرقام محددة يمكن القول أن الحجم الأكبر من الزيادة التى تحدث سنويا يتم فى الدول النامية والفقيرة ، فمن بين الثمانين مليون طفل الذين يشهدهم العالم كل عام تقريبا فإن ٧٥ مليون منهم يولدون فى قارات أفريقيا وآسيا وأمريكا الوسطى والجنوبية ، أما العالم المتقدم والذى يستطيع موضوعيا إستيعاب اعداد أكبر عن البشر فإنه لايستقبل سنويا إلا حوالى ٢ مليون مولود . ويمكننا أن نتفهم النتائج المترتبة على ذلك إذا تذكرنا أن حوالى ثلاثة أرباع سكان العالم يعيشون فى دول الجنوب الفقير ، وأن أكثر من نصف سكان العالم يعيشون فى آسيا ، وأنه إذا استبعدنا اليابان وسنغافورة وهونج كونج فإن ٢ بليون إنسان آسيوى يعيشون على مساحة من الأرض أقل من مساحة أفريقيا .

ويمكن إرجاع ذلك إلى أن الدول الصناعية قد أنهت مرحلة التحول السكانية الخاصة بها ، وانتقلت من وضع شهدت فيه نسباً عالية للمواليد والوفيات ، كما حدث فى القرن الثامن عشر ، إلى مرحلة انقاص نسبة الوفيات نتيجة التقدم فى الخدمات الطبية ومكافحة الأوبئة ، إلى مرحلة إنقاص نسبة المواليد أيضا ، وهكذا فإن عدد سكان الدول المتقدمة سوف يتجه إلى الاستقرار دون زيادة تذكر .

فى مقابل ذلك فإن دول الجنوب مازالت فى قلب مرحلة التحول السكانى ، فبينما شهدت هذه الدول انخفاضا واضحا فى معدلات الوفيات فقد ظل معدل الزيادة فى المواليد كما هو ، ففى أفريقيا على سبيل المثال كان متوسط عمر الإنسان فى العشرينات لا يتجاوز ٢٧ سنة ، وفى عام١٩٤٥ إرتفع الى ٣٢ سنة ويصل الآن إلى حوالى ٤٤ سنة .

تنظيم الأسرة أم سياسة تنموية

إزاء هذه الأوضاع لجأ عدد من الدول النامية إلى إنشاء هيئات ومؤسسات لتنظيم الأسرة وتشجيع المواطنين على الحد من زيادة السكان وبهدف تنظيم الأسرة . وتراوحت مناهج وأنشطة هذه الهيئات بين المدخل الطبى والمدخل الاجتماعى للتعامل مع القضية .

أنصار المدخل الطبى ينظرون إلى المشكلة أساسا باعتبارها قضية توفر الوسائل الطبية لمنع الحمل ويتصورون أن جعل هذه الوسائل فى ميسور البشر سوف يجعلهم يقومون باستخدامها ويتحقق الهدف . ولكن سرعان ما يتبين أن التوافر أمر وأن الاستخدام أمر مختلف تماما ، وأن القضية ليست مسألة طبية ، ولكنها مسألة تتعلق بالقيم والعادات الاجتماعية السائدة وكذلك بمدى الاعتقاد فى إيقاف ذلك مع المعتقدات الدينية .

لذلك إنتقل الاهتمام بالموضوع من الدائرة الطبية إلى الدائرة الاجتماعية الأكثر إتساعا وشمولاً وازداد الادراك بأن قضية تنظيم الأسرة هى مسألة إجتماعية فى المقام الأول وأنها تتطلب تغييرات فى المفاهيم والمدارك السائدة .

● مُعدّل الزيادة السكانية ينبئ بأن العالم سيشهد ٢ بليون إنسان جديد قبل أن يبلغ أطفال اليوم سن العشرين

● زيادة عدد السكان وإن كانت تُمثل عبئاً اقتصادياً واجتماعياً إلا أنها بمثابة رأس مال يمكن توظيفه واستثماره

وجاء فريق ثالث ليطرح رأيا مؤداه أن ازدياد السكان لا يمكن مواجهته إلا بالاسراع بمعدلات التنمية والتعليم بحيث يرتفع مستوى معيشة البشر اقتصاديا ويزداد وعيهم إجتماعيا فقد لوحظ أن أعلى معدلات لزيادة النسل تكون بين الأكثر فقرا وجهلا وأنه كلما ازداد المستوى الاقتصادى أو التعليم ، قامت الأسرة بتنظيم عدد أعضائها .

وهكذا أدخل الموضوع فيما يشبه الدائرة المفرغة ، فالازدياد الكبير فى عدد السكان يفرض قيودا على جهود التنمية .. ويضع ضغوطا على كل الخدمات الاقتصادية والاجتماعية . من ناحية أخرى فإن المواجهة الحقيقية لهذا الازدياد لا تكون إلا بارتفاع معدلات التنمية فى كل جوانبها . وبسبب ذلك فإن جهود الدول النامية لم تسفر بعد عن نتائج واضحة فى هذا المجال واضطر بعضها إلى اللجوء إلى أساليب غير مقبولة شعبيا ، مثل التعقيم ، وهو ما أدى إلى هزيمة السيدة أنديرا غاندى فى انتخابات مارس ١٩٧٧ وتم العدول عن هذه السياسة .

السكان والسياسة

يمكن النظر لعدد السكان فى مجتمع ما بطريقتين ، فهو يمثل عبئا إقتصاديا وإجتماعيا يحتاج إلى خدمات ، وهو من ناحية أخرى بمثابة رأس مال يمكن توظيفه واستثماره ، والعنصر الحاكم فى هذا المجال هو شكل التنظيم الاجتماعى والاقتصادى . وهل يوفر للمواطنين فرصاً إنتاجية حقيقية أم أنه يستنزف مواردهم فى أعمال غير إنتاجية وغير مفيدة . ومن ثم لا يسهمون فى عملية التنمية .

وهناك اعتبارات سياسية داخلية وخارجية ، فازدياد عدد السكان غير المرتبط بالتنمية يقود فى أغلب الحالات إلى عدم الاستقرار الاجتماعى والسياسى ، وبعض الدول تنظر بعين القلق إلى التطورات السكانية لدى جيرانها فبعض المفكرين فى الأرجنتين قد دعوا إلى مضاعفة عدد السكان فى بلادهم خوفا من إحتمال ازدياد نفوذ البرازيل نتيجة تفوقها السكانى ، ونفس الشيء حدث فى الاتحاد السوفيتى مع دول أوربا الشرقية التى شجعت إزدياد السكان فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية لتعويض الجيل الذى استهلكته الحرب ، بل وقدمت هذه الحكومات حوافز مالية للأسر الكبيرة العدد . من ناحية أخرى أدركت الصين ضرورة التحكم فى عدد السكان وقامت بجهود خارقة لذلك ، أدت إلى خفض نسبة النمو السكانى إلى ١.٦٪ .

وبعد ...

إن قضية السكان لا يمكن النظر إليها على أنها مسألة أعداد فقط ، بل إنها ترتبط بتوزيع الأعداد بين الشمال الجنوب ، أى بين الدول المتقدمة صناعيا والدول النامية ، وكذلك بارتباط هذه الأعداد بالتكنولوجيا والموارد والبيئة المحيطة أو بآثارها على الاستقرار فى البلاد الفقيرة وتداعيات ذلك على العلاقات بين الدول والشعوب ومن مظاهرها قضية اللاجئين فى العالم واحتمالات قيام الدول التى تواجه مثل هذا الإنفجار السكانى بسياسات خارجية مغامرة وآثار ذلك على عدم الاستقرار الدولى .

النيل ليس النيل

شعر: حسن طلب

يَا أيّها النيلُ يارَجائى
قضيتَ شيئاً من القضاءِ
رَوَيْتَ غيرى بِحُرِّ مائى
شفيتَ خَصْمى .. فمن لِدائى ؟
لَيسَ النيلُ رجاءَ
فالسائِلُ فى هذا المجرىٰ
ليسَ الماءَ

يا أيُّها النيلُ يا وجُودِى
جاوَزْتَ حداً من الحدودِ
أُجريْتَ دمعى على خُدودِى
عانقتَ خُصمى .. فمن لِجيدِى ؟
نيلٌ كانَ هنا موجوداً
يوماً ..
كانَ الماءُ يغطِّى هذا الطَّمْىَ الناشِفَ ،
كان المجرَىٰ هذا الأُخْدودا

يا أيها النيلُ يامصيرى
أُتيْتَ أمْراً من الأُمورِ
غلَّبتَ غَيْبى على حُضورِى
نصرتَ خَصْمى .. فمن نَصيرى ؟
ما أَقْساهُ مصيراً !
فلكمْ يانيلُ تكلَّمتَ قليلاً
وصمتَّ كثيرا

يا أيها النيلُ يا صديقى
هضمتَ حقاً من الحقوقِ
قدَّمتَ غربى على شروقى
سقيتَ خصمى .. فمن لِريقى ؟
ما عادَ النيلُ صديقاً
فإذا شئتَ فدونَك والبحر :

اتَّخِذِ الماءَ المالحْ
واصطنعِ الأنبيقاً

يا أيها النيلُ يا عزيزى
هدمتَ رمزاً من الرموزِ
أظهرتَ بيدى على كنوزى
أجزْتَ خصمى فمن مُجيزى ؟
ليس النيلُ عزيزا
ما دامتْ صفقتُهُ عوجاء :
وقسمتُهُ ضيزى

يا أيها النيلُ يا عدوّى !
بلغتَ شأواً وأىَّ شأوِ
فضّلتَ بُعدى على دُنوّى
أوْهنتَ رُوحى .. فمن يُقوّى ؟

* * *

سامِحْنى يانيلُ ، وخذْ بيمينى
أنت أمامى وأنا المأمومْ
من غيرُكَ يا نيلُ سيَحْمينى
وأنا المنبَذُ المذمومْ ؟
كمِهتْ يا نيلُ عيونى
وطَعِمْتُ الزَّقُّوم
إن كنتُ خدعتُكَ أوخنتُكَ يا كلُّ يقينى
وسواكَ تهاويمْ
كم أنتَ عظيمٌ يا نيلُ بدونى !
وبدونَكَ يا نيلُ أنا محضُ يتيمْ

....

سامحنى
مِثلك ليس بجبّارٍ يا نيلُ ..
ومثلى ليسَ بمعصومْ





بقلم : الدكتور محمد البهي

مشيئة الإنسان

يقول الله تعالى في شأن طبيعة الانسان : « إِنَّا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج (أي من نطفة مختلطة من الذكورة والأنوثة) .. نبتليه (أي والغاية من خلقه هي : ابتلاؤه واختباره في اتجاهه في السلوك ، والاعتقاد ، والعمل) فجعلناه سميعا بصيرا (ولكي يمكن من أن يحقق هذه الغاية فيه ، جُعِل كائنا مُدرِكا عن طريق حواسه ، وبالأخص حاستي السمع والبصر) . إِنَّا هديناه السبيل (أي ولكي يساعد على استخدام إدراكه وعقله استخداما سليما كانت هداية الله في رسالة الرسل) : إِمَّا شاكرا ، وإِمَّا كفورا (وهو بعد إعداده بالعقل والادراك ، وبعد مساعدته بالهداية الالهية له المشيئة في الايمان بالله تعبيرا عن شكره ، كما أن المشيئة في الكفر به تعبير عن نكران فضل الله ونعمته عليه » (الانسان : ٢ ، ٣) .. فهاتان الآيتان تتحدثان عن ثلاث حقائق في الطبيعة البشرية :

الأولى : إنها طبيعة مختلطة مما للذكورة والأنوثة ، وهي حقيقة مادية نوعية .

والثانية : إنها طبيعة معدة بالادراك العقلي ، ومزودة بسبيل الرشد الانساني في اتخاذ المواقف المختلفة التي تعبر عن تميز الانسان دائما في سيادته في هذه الأرض وتفوقه على الكائنات الأخرى عليها ، وهي حقيقة عقلية أو معنوية .

والثالثة : إنه أضيف الى سبيل الرشد الطبيعي فيه ــ وهو العقل ــ نوع آخر من الهداية تتضمنه رسالة الله ، وهي حقيقة إلهية .

ويصور الحقيقة العقلية في الانسان ومنزلتها في اتقاء الأخطاء ، قوله تعالى في سورة الأعراف في مواجهة بني آدم جميعا : « يابني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشاً (ويقصد باللباس : العقل في ستر نقائص الانسان بإبعاده عن الزلل والأخطاء ، فهو زينة في الوقت نفسه .. كريش يتزين به الانسان ، لأنه طالما أنه من شأنه أن يقلل من أخطاء الانسان .. فإنه من غير شك يظهر الانسان في صورة جميلة مقبولة) ولباس التقوى ذلك خير (أي وهذا العقل في الانسان الذي يتقي به الأخطاء ما أمكن ، وهو أشبه باللباس في الستر .. هو خير من عند الله ونعمة من نعمه الكبرى) ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون (وهو لهذا : نعمة من نعم الله على بني آدم ويرجى منهم لذلك : أن يتذكروا هذه النعمة باستخدامها في وضعها الصحيح ، وعدم تعطيلها بالوقوع تحت تأثير الاتجاهات المادية التي تحل مستوى الانسان الى مستوى مادي بحت ، وتعزله عن العقل وحكمته فيه ، كما تعزله عن هداية الله وارشاده في رسالته (الأعراف : ٢٦) .

وهداية الله في رسالته إذن لا تقف من الانسان موقف الالزام والاكراه وإنما تقف منه موقف المساعد فقط عند طلب المعاونة . وهذا هو ما تسجله الآية الثالثة السابقة في سورة الانسان : « إِنَّا هديناه السبيل ، إِمَّا شاكرا ، وإِمَّا كفورا » . فوضع الانسان هنا إزاء هداية الله هو : وضع المختار بين الايمان والكفر بها .. هو وضع صاحب المشيئة .. هو وضع البعد عن الاكراه والالزام . ويؤيد هذا الوضع قوله تعالى : « لا إكراه في الدين » .

وهنا تبدو صلة الله بالانسان ، كما تبدو صلة الانسان في الايمان والكفر ، وفي العمل الصالح ، والسيء ، وفي استقامة السبيل في الحياة ، وارتكاب الجرائم والمعاصي فيها . فالانسان صاحب مشيئة مبدئية في ذلك كله . وهداية الله للانسان هي : في توفيقه الى الأخذ برسالته .. هي في مساعدته بالدليل على الانتفاع بها .. هي في إرسال الرسول بهذه الهداية : « قل : إن ضللت فإنما أضل على نفسي ، وإن اهتديت فبما يوحى إِلَيَّ ربي » (سبأ : ٥٠) .. « وقل : الحق من ربكم : فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » (الكهف : ١٩) .

وعندما اقترف آدم وزوجه حواء معصيتهما في الجنة اعترفا : بأنهما هما باشراها من أنفسهما : « قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا » (الأعراف : ٢٣) .. واعتبر سلوكهما معصية لأنهما خالفا فيه أمر الله فقط ، ولكنه لم يخرج عن كونه باختيارهما : « ويا آدم : أسكن أنت وزوجك الجنة ، فكلا من حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين (أي لنفسيكما) » (الأعراف : ١٩) .

والغاية من عقل الانسان التي تكمن في الابتلاء والاختبار ، تتحقق بالابتلاء بالخير والنعمة ، والشر والحرمان على السواء : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » (الأنبياء : ٣٥) .. « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم : أيُّهم أحسن عملا » (الكهف : ٧) .. « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات » .. (البقرة : ١٥٥) .. ومعنى ابتلاء الانسان واختباره : أن يوضع أمام متع الدنيا مرة ، وأمام الحرمان منها مرة أخرى ، ليعرف مدى قدرته على ضبط نفسه : هل سينجرف في تيار الترف والعبث بالمتع المادية إن واتته ، وهل سيضيق ذرعا بالحياة وتتملكه روح اليأس عندما يحرم منها ؟ ونداء عقله في الحالين ، هو : الصبر وضبط النفس ، وهو نفسه رسالة الله للانسان لأن أيا من الأمرين ــ اليسر ، والعسر ــ لا يدوم ، وإنما التعاقب بينهما هو قانون الحياة . والباقي للانسان أبدا : هو محافظته على مستوى إنسانيته ، باتباع عقله ، وهداية الله وهي تساوق العقل في طريقه الصحيح .



.. وهذه بيت لحم

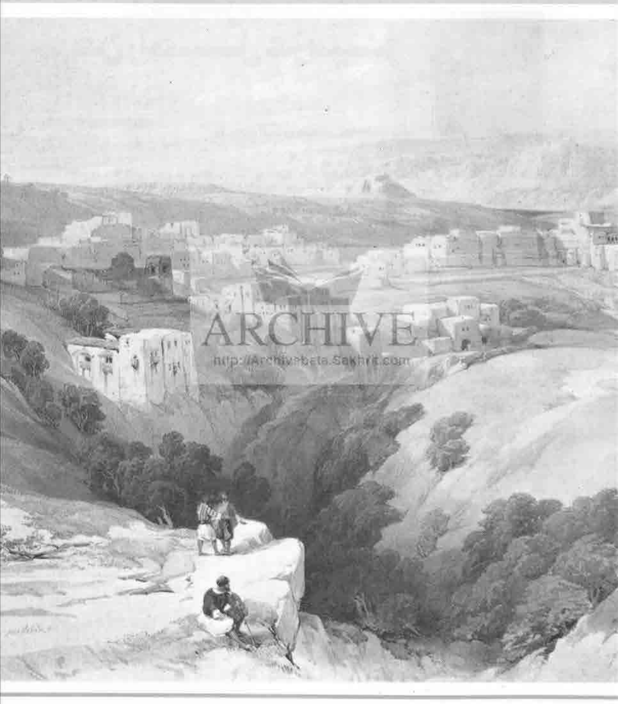
ها هنا من تراب فلسطين الطهور . حيث تقوم كتلة البناء الرئيسية في أقصى يسار المشهد ، انتبذت مريم مكاناً قصيا .. « فأجاءها المخاض الى جذع النخلة . قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً . فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا . وهزي اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيا .. سورة مريم : ٢٣ ــ ٢٥ » ..

فنحن الآن إذن ، أمام مشهد « بيت لحم » ، مسقط رأس سيدنا المسيح عيسى بن مريم عليه السلام .. ولكن الرحالة الاسكتلندى « روبرتس » الذى رسم هذا الليثوغراف عام ١٨٣٩ قد اقتصر لوحته على هذا القدر المحدود ، والأبنية المعدودة ، من حجم المدينة ومساحتها العامة .. وقد يصح القول أيضاً بأن المدينة ربما كانت فعلاً بهذا الحجم الضامر في ذلك الحين ، حيث سبق زيارة « روبرتس » لها بخمس سنوات ــ أي في عام ١٨٣٤ ــ أن وقع بالمدينة زلزال أتى على معظم أبنيتها ، فلم يبق إلا هذا القدر الضئيل من جسدها العام .

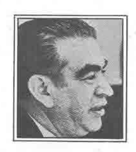
وإذا أمعن القارىء النظر ، كرة أخرى ، في موقع ميلاد السيد المسيح ، (في أقصى يسار المشهد) ، فلن يسهل عليه أن يتصور أن مهد رسول المحبة والسلام هذا ، كان السبب المباشر الذى انقدحت منه شرارة « حرب القرم » عام ١٨٥٣ ، ملتهمة في أوراها المسعور عشرات الالوف من أرواح الناس ، لغير ما أي سبب ذي بال ، سوى التناحر الطائفي المسيحي (بين اللاتين الكاثوليك من جهة ــ والروم الأرثوذكس من جهة أخرى) على ملكية ، أو خدمة الأماكن المسيحية المقدسة في فلسطين .. فلقد حدث ببساطة متناهية أن اختفت فجأة « نجمة المهد الفضية » من مكانها عام ١٨٥٢ .. قال اللاتين الكاثوليك المنتصرون عادة بفرنسا ، إن الروم الارثوذكس المنتصرين بدورهم بروسيا القيصرية ، هم الذين سرقوها .. ثم زاد اللاتين على ذلك بأن وضعوا نجمة جديدة مكان النجمة المفقودة .. اعتبرت روسيا القيصرية أن ذلك اعتداء كاثوليكى صارخ على حقوق الأرثوذكس في كنيسة المهد .. وفى إطار الدوافع والمنافع المادية الباطنة التي تشكل في الحقيقة جوهر « المسألة الشرقية » ، بكل ما انطوت عليه تلك المسألة من تذابح أوروبى استعماري شرس حول اغتنام أكبر قدر مستطاع من « تركة الرجل العثمانى المريض » حتى منذ ذلك الحين ، بادرت روسيا إلى توجيه مطالب مذلة للدولة العثمانية بأحقية الأرثوذكس وحدهم في كامل كنيسة المهد ، وبأن تكون روسيا هي حامية الأرثوذكس أينما وجدوا في الامبراطورية العثمانية .. اهتاجت فرنسا الكاثوليكية ، وجرّت وراءها سردينيا ، وحتى بريطانيا البروتستانتية ، ضد مطالب روسيا التي رفضتها الآستانة بطبيعة الحال .. واشتعلت حرب القرم !! ..

على أن أدل مثال على حديّة ، وجدية هذا التناحر الطائفى المزمن ، هو ما يتعلق بمفتاح « قيامة القدس » التي تعتبر أقدس مكان مسيحي إطلاقاً على سطح المعمور .. فلئلا يظل هذا التناحر الدموى قائماً حول أي الطوائف المسيحية يكون لها الشرف في حيازة مفتاح « كنيسة القيامة » ، وبالتالي شرف فتحها ، وإغلاقها ، يومياً ، فلقد رأت جميع هذه الطوائف أن خير حل لذلك النزاع هو أن يتسلم مسلمو القدس هذا المفتاح ، فعهد به إلى عائلة « نسيبة » المقدسية التي تحتفظ به منذ مئات السنين الغابرة ، وإلى عائلة « الجودة » المقدسية أيضاً التى يقوم أحد أبنائها بفتح الكنيسة صباحاً وإغلاقها مساء ، دون أن يتبدل هذا التقليد حتى في فترة الانتداب البريطانى على فلسطين ، وحتى يوم الناس هذا ..

بقلم: يوسف الخطيب



ذكريات عن راحل عزيز



بقلم : الدكتور عبد السلام العجيلي

تلقيت في نهاية العام المنصرم من صديقي الأستاذ و. رسالة يصف فيها حزنه لوفاة صديق مشترك لنا كلينا ، ويعدد فيها أسماء معارفنا وأصحابنا الذين طويت صفحات حياتهم في السنة الفائتة ، ويبثني فيها ألمه من أن الأيام لم تعد تحمل إليه غير أخبار فقد الأحبة والعشراء. أجبته على رسالته معزيا بصديقنا المشترك وبمن فقدناهم ، ومذكرا إياه بما لاأظنه يفوته من أن هذه سُنّة الحياة مع من هم في مثل عمرنا وفي مثل شأننا. وأضفت في جوابي بأن أمرنا في رحيل الذين تربطنا بهم أواصر المودة أو المعرفة عن هذه الدنيا كأمر ذلك الملك الذي رأى في منامه أن أسنانه تساقطت حتى لم تعد في فكيه سن واحدة. أقلقت الملك تلك الرؤيا فراح يبحث عن تعبيرها عند المفسرين. قصّها على المفسر الأول فخط هذا الخطوط على صفحة رمل بسطها على الأرض أمامه ، ثم قال للملك وقد ارتسمت على وجهه أمائر حزن بالغ : تعبير رؤياك يامالك الزمان بالغ الإيلام ، ولكن لابد لي من أصدقك القول فيه .. ستدفن أعزاءك كلهم بيدك ، لأنهم سيموتون جميعا في حياتك ! إستشاط الملك لهذا التعبير غضبا وأمر بزج المفسر في السجن وبأن يأتوا إليه بمفسر آخر أعاد عليه قص حلمه. بسط المفسر الجديد لفة أوراق أمامه وراح يكتب عليها أرقاما ويرسم أشكالا ، ويجمع ويطرح . ثم ما لبث أن رفع إلى الملك رأسه ووجهه يتألق سرورا وقال : عندي لك يا ملك الزمان بشرى عظيمة بهذه الرؤيا .. سيطول عمرك حتى يتجاوز أعمار كل الذين يحيطون بك . وستمتد حياتك إلى ما بعد مغادرة الآخرين هذه الدنيا !

نعم هذا أمرنا أمام فقد من سبقنا في الخروج من هذه الدنيا بين رفاق الدرب. يملأ الأسى قلوبنا ويتملكنا الحزن ، ولكن التفلسف في حالنا وحالهم جدير بأن يحمل الى نفوسنا بعض العزاء حين ندرك أن قدرنا سمح لنا بأن نكون شهود فقدهم. ولهذا كتبت لصديقي الأستاذ و. أعزيه وأقول إنه ما دام حيا فسيظل يتلقى أخبار رحيل من يعرفه ، فلا يستعجلن اليوم الذي ينقطع فيه عنه تلقي تلك الأخبار. كتبت هذا معزيا ، وأنا أعرف أن تعزيتي هذه لن تخفف شيئا من الحزن الذي يشعر به هو، والذي ساقه إلي أنا ، حين نعى الي في رسالته صديقنا العزيز الراحل.

والراحل العزيز الذي نعته لي رسالة صديقي أمرؤ ليس مجهولا عند الكثيرين من قراء هذه السطور. إنه ألبير أديب ، صاحب مجلة الأديب الذي رحل عن دنيانا في أواخر أيلول ـ سبتمبر من عام ١٩٨٥ الفائت . رحل بعد أن ظل شاهدا ممزقا بالحزن لما وقعت عليه عيناه في عشرة أعوام من الحرب الأهلية في بلده لبنان ، ومنكوبا بما أنزلت به تلك الحرب من خسارة في ما يملك ومن نوائب في ما آمن به وعمل له في الأربعين سنة الأخيرة من عمره ، أو أكثر من الأربعين. ولقد تناقلت مختلف الصحف والدوريات خبر مبارحة ألبير أديب لهذه الحياة ، وترحمت له ، وأقيمت له في بيروت حفلة أربعين عدد فيها الخطباء ما يعرفونه من مآثره. يكاد ما قيل فيه يحيط بكل جوانب حياته. إلا أن إنسانا مثل كاتب هذه السطور ، ربطته بألبير أديب عُرى مخالطة طويلة يظل يفتقد حرارة العاطفة الحميمة في كل ما قرأه عن صديقه الراحل ، فلا يجد مفرا من أن يستعيد بينه وبين نفسه ذكريات تلك المخالطة القديمة ولا من أن يترك لقلمه أن يفيض بالحديث عن بعض تلك الذكريات.

* * *

في يوم من أيام عام ١٩٤٨ حمل صديقي رياض طه ، وكان صحفيا ناشئا في أول الطريق التي قادته بعد ذلك الى أن يكون نقيب صحافة لبنان ثم انتهت به إلى مصرعه غيلة وهو في أوج نشاطه وقمة ما يرتجى منه ، أقول حمل صديقي رياض مخطوط أولى مجموعاتي القصصية إلى ألبير أديب لتظهر بين منشورات دار مجلة الأديب ، فرحب بها الرجل ورأى فيها نحوا جديدا في كتابة القصة العربية في ذلك الزمن. وكان أول لقاء لي بألبير أديب في مكتبه في محلة باب إدريس ، في ذلك البناء البسيط المطل على ما سمي بعدئذ بشارع البنوك في بيروت. لقيت فيه رجلا ربع القامة عريض المنكبين أسمر المحيا ، يتردد في كلامه بين لهجة أهل بيروت واللهجة المصرية . ويقطع أحاديثه بابتسامات تتراوح معانيها بين براءة الأطفال ومكر العابثين. كان لابد لي في زياراتي المتتالية لبيروت في تلك الأيام ، وبعد ظهور كتابي «بنت الساحرة» في منشورات دار مجلة الأديب ، من المرور بمكتب ألبير أديب ذاك أكثر من مرة في كل زيارة ، أحمل إليه فيها أشعاري وقصصي ومقالاتي ، وتجمعني المصادفات فيها بالمترددين عليه من ذوي الأسماء اللامعة من شيب وشبان ، ممن لم يكن يتاح لي لقاؤهم في دمشق التي أقيم فيها أحيانا أو أتردد عليها دوما. في ذلك المكتب التقيت بكمال جنبلاط والدكتور نقولا فياض وصلاح الأسير ، وسواهم ممن غادر أكثرهم هذه الدنيا وبقي أقلهم فيها. ومن ذلك المكتب استطعت أن أصل بما أكتبه الى القراء العرب في كل مكان ، إذ كانت مجلة الأديب مجلة المتأدبين العرب في كافة أقطارهم تتلاقى فيها أقلام الأدباء من المحيط إلى الخليج ، قبل أن يصبح هذا التعبير على كل لسان.

وعلى أن القصة كانت أول ما لفت نظر ألبير أديب الى شخصي وأول ما نشر لي ، فقد كان مصرا على اعتباري شاعرا ، فهو يسبق اسمي دوما في مجلته ، أو يلحقه ، بصفتي الشعرية. واستمر في ذلك حتى بعد أن توقفت أنا عن نظم الشعر أو عن نشره في الأديب وغير الأديب.

ذلك لأن ألبير أديب كان يقدم الشعر على سائر فنون الأدب ولأنه كان شاعرا قبل كل شيء ، مع أن أثره الشعري الوحيد كان ديوانه ، لمن ، في الشعر المنثور . كان شاعرا في نظرته إلى الحياة وفي سلوكه فيها ، وأن خفي ذلك عمن سمع به ولم يخالطه ، أو عمن خالطه ولم تكن له نظرة نافذة إلى دوافع تصرفاته ومكنونات نفسه . ساقه طبعه الشاعري إلى التخلي عن كل ما شغل به نفسه وتاقت إليه في أول حياته . من تنقل بين الوظائف المختلفة في مصر والسودان ولبنان ، ومن ممارسة للسياسة بعد ذلك في مجالات التنظيم والتنظير . ودفعه ذلك الطبع إلى إصدار مجلة مبتكرة في تكوينها وفي طموحاتها على الرغم من ادراكه أن تفرغه لهذه المجلة سيسد أمامه سبل الثراء والشهرة والنفوذ . أقنعه طبعه الشاعري ذلك بأن الثراء والشهرة والنفوذ ليست شيئا أمام أن يعمل الانسان بصمت فيما يؤمن به ويحبه . وما كان يؤمن به ألبير أديب ويحبه هو أن يجمع مثقفي العرب في مختلف مواطنهم في ساحة واحدة يتعارفون فيها فكريا ويتبارون فيها في الابداع ، ويجددون فيها في فنون الأدب دون أن يتنكروا في تجديدهم للغتهم وتراثهم الفكري . وهذه الساحة كانت مجلة الأديب .

وهكذا طلعت الأديب على القراء في بداية عام ١٩٤٢ حدثا فريدا في أناقة مظهرها وغنى محتـويـاتـها وبطرافة التجديد في تلك المحتويات . كنت لا أزال طالبا جامعيا حين فتنت بالجديد المبتكر الذي حملته هذه المجلة شكلا ومضمونا . فكان من الطبيعي بعد ذلك أن أغتبط بأن أصبحت واحدا من كتابها ، ثم صديقا لمنشئها وصاحبها . صداقة أتاحت لي أن أعرف عن كثب بأية روح شاعرية ومتصوفة كان ألبير أديب يحضن مجلته ، فيهيؤها ويصدرها في أشق الظروف عابرا بها الأزمات والمآزق . قليلون أولئك الذين علموا في أي عسر مادي كانت تعيش تلك المجلة الطائرة الشهرة الواسعة الانتشار في أوساط الفكر والثقافة . وقد ألجأت الضائقة ألبير أديب في ذات مرة إلى أن يبيع مكتبته الثمينة والعزيزة على نفسه . كي لا يتأخر يوما واحدا عن اصدار الأديب في موعدها المحدد . فعل ذلك دون أن يرفع صوته بالشكوى لأحد . وحين كان يذكر ذلك لأصدقائه كان يذكره والابتسامة تعلو شفتيه كأن تصرفه ذاك كان أمرا طبيعيا مغنمه فيه أكثر من خسارته .

رجوته في ذات مرة أن يلغي من مجلته زاوية كان يحيطها بإطار بين برقياته الأدبية ، في آخر الصفحات ، ويورد فيها أسماء من يرسلون إليه اشتراكاتهم بأكثر من قيمتها العادية ، معتبرا أياهم أنصارا للمجلة . قلت له : أما ترى فلانا ، وهو صاحب دار صحفية معروفة ، قد بنى دار مجلته ناطحة السحاب من هبات أثرياء معروفين ، ثم انقلب عليهم يهاجمهم في مجلته ؟ وأنت لأن إنسانا أرسل إليك بخمسة وعشرين ليرة بدلا من اثنتي عشرة ليرة تظل تثبت اسمه بحروف ثخينة ولعدة شهور على صفحات مجلتك كأنه أكبر المحسنين .. الخ هذه الزاوية أرجوك ! واستجاب ألبير أديب لإلحاحي أخيرا ، فألغى تلك الزاوية المؤطرة من آخر صفحات المجلة . وذلك بعد تردد واستحياء من أن يعتبر جاحدا للفضل وناكرا للجميل ..

وانتقل ألبير أديب بإدارة مجلته من ذلك البناء البسيط في محلة باب ادريس ، في قلب بيروت ، الى منزله في فرن الشباك في أول طريق الشام . كان دافعه إلى الانتقال حاجته إلى ضغط النفقات التي كانت تثقل كاهله . كما كان مدفوعا إليه برغبته في الابتعاد عما يصرفه عن التفرغ لمجلته ورسالتها . وهكذا اعتزل بانزوائه في داره المدينة وألوان النشاط والمخالطات فيها ، واعتزل بصورة خاصة رفاقه في التنظيمات السياسية ، وهي تنظيمات قومية بالدرجة الأولى . كان عنصرا فعالا في تأسيسها كما تولى فيها مراكز مرموقة . مساهمته في تلك التنظيمات كانت دوما مساهمة المنظر والمفكر . ففي عصبة العمل القومي كان مفوض دعايتها ، وفي الحزب التقدمي الاشتراكي الذى أسسه مع كمال جنبلاط كان أمينا للسر وكذلك كانت مساهمته في كتلة التحرر الوطني التي تزعمها عبد الحميد كرامي ، الزعيم الطرابلسي واللبناني الكبير . ومع ذلك فقد وجد ألبير أديب في النهاية أن السياسة كممارسة عملية ، بأجوائها العكرة وخلفياتها ومناوراتها ، أبعد ما تكون عن طبيعته الشاعرية وتجرده . فانزوى عنها بمجلته في منزله ، خالطا هذه المجلة بحياته الشخصية والعائلية .

لم ينقص هذا الانزواء شيئا من فائدة قراء الأديب ومتعتهم بمجلتهم . أما أصدقاء ألبير أديب الشخصيين فقد كسبوا به دفء الجو الحميم الذي أصبحت تحاط به لقاءاتهم به . وذلك في منزل تضفي عليه رعايتها زوجة كريمة وفاضلة وتترعرع فيه فتاتان موهوبتان فنا وأدبا ، رافق أولئك الأصدقاء نموهما الى أن أصبحت ندى ربة بيت كريم قضى فيه ألبير أديب أخريات أيامه ، والى أن نبغت هدى كعازفة بيانو مبدعة وشاعرة ملهمة باللغتين العربية والفرنسية . أما المنزل نفسه ، فعلى أنه كان مبعدا عن مركز المدينة ومقر نشاطات بيروت المختلفة ، من أدبية وغيرها ، فقد أصبح محجا لكل من يلم بالعاصمة اللبنانية من الكتاب والمستشرقين والمهتمين بالثقافة والفكر وشؤونهما ، الى أن وضعت الحرب الأهلية هذا المنزل في ذات يوم ، لدهشتنا وأسانا جميعا ، على خط التماس بين مختلف القوى المتناحرة في تلك الحرب .

زرت ألبير أديب في ذلك المنزل مرة في غمرة الأحداث فأشار لي في غرفة الجلوس إلى أعلى الجدار قريبا من السقف وقال : من هنا دخل الصاروخ ومن هناك خرج ، ولم يصب أحد منا بسوء والحمد لله ! كانت قذيفة صاروخية قد اخترقت داره ، قبل بضعة أيام ، في مستوى الطابق الرابع من العمارة وانفجرت خارج البناء . وقص عليّ أخبار أيام الرعب والحرمان والجوع التي مر بها وأسرته تحت التراشق بنيران الرشاشات والمدافع ، مهددة بالموت كل من يخطو خارج باب شقته في ذلك الحي . كما قص عليّ حكايات التعاطف التي تبدت من سكان عمارته والعمارات المجاورة ، على اختلاف مذاهبهم الدينية وأهوائهم السياسية ، في المحنة التي أجج نارها متحاربون أبعد ما يكونون عن الانسانية ودوافعها النبيلة . وظل ألبير أديب مصرا على البقاء بين أكداس الكتب والأوراق في داره في تلك المنطقة الخطرة ، فلم ينتقل منها الى منزل ابنته قرب الجامعة الأمريكية إلا حين أصبح البقاء في تلك الدار ضربا من الجنون أو اصرارا على الانتحار .

آخر عهدي بصاحب الأديب كان في منزل السيدة هدى أديب حداد في صيف عام ١٩٨١ ، في فترة هدوء طارئة بين المتحاربين في بيروت . كان صديقي الكبير والقديم وراء مكتبه يستعين بنظارته المعظمة في قراءة أصول المقالات التي يعدها لعدد جديد من المجلة . لم تعد الأديب تصدر منتظمة في أول كل شهر كما ظلت في الأربعين عاما الماضية . لقد حال دون انتظام صدورها ، لا كبر سن ألبير أديب ورجفة يديه وتضاؤل قدرته البصرية ، بل حال دون ذلك تناحر الأخوة وسوء حظ العرب وعجز ساستهم وقادتهم . حقا لقد بعدت هيئة هذا الشيخ الهم عن هيئة ألبير أديب كما رأيته أول مرة ، عندما كان في زهوة العمر رياضي التكوين يتفجر صحة وقوة ، إلا أني لم أر في نظرته التي أصبحت كابية بعض الشيء استسلاما ولا يأسا ، وإنما رأيت فيها الأسى والاشفاق مما يراه حل بجزء من الأمة التي أحبها وعمل لقيمها السامية .

وكان لابد لألبير أديب أن يموت ، كما لابد لكل منا أن يموت ، ولاسيما في مثل سنه المتقدمة ، كما كان لابد لنا من أن نحزن لفارقته إيانا . إلا أن الذي يؤسينا ، فوق الحزن الشديد ، هو أن يفارق الحياة مجاهد في ميدان الثقافة الرفيعة والقومية الصادقة ، مثل ألبير أديب في جده وتجرده ، وهو منكوب لا بداره وما يملكه فيها وبمجلته التي قصر عمره على رعايتها ، وإنما بآماله في رفعة قومه وعزتهم وفي استرداد ما ضاع من حقهم وما سلب من رقاع أرضهم .

بعد أربعة وأربعين يوما ـ ١١ أبريل ١٩٨٦ ـ سوف يكون المذنّب هالى فى أقرب نقطة إلى الأرض يمكنه أن يصل إليها ونستطيع جميعا أن نراه بالعين المجردة.



بقلم: المهندس سعد شعبان

منذ فجر التاريخ ارتبطت بعلم الفلك علوم أخرى كثيرة من أهمها لدى العرب «علم الهيئة». وفى بعض الأمم الأخرى كانت هناك علوم كثيرة أغلبها يمت إلى التنجيم بكثير من الأسباب.

سفينة الفضاء السوفيتية فيجا

سفينة الفضاء الامريكية ايسي ـ ٣



الاشعاعات الصادرة من نواة المذنب هالي

● العلماء يحددون إمكانية رؤية المذنب "هالي" بالعين المجردة خلال فبراير وأبريل ١٩٨٦

● التشاؤم من ظهوره وربطه بالكوارث والأوبئة قضية لاقدم لها ولاساق

في قديم الزمان احتكر المعلومات الضئيلة التي كانت معروفة عن أجرام الكون وظواهره ، نفر من الناس أغلبهم من كهنة الدين المسيحي . منهم من ادعى لنفسه حق الافتاء في شؤون الكون وظواهره ، وحرم على غيره البحث أو الاجتهاد أو الادلاء برأى فيها . إلى الحد الذي دفع بعض رجال الدين في العصور الوسطى الى إحراق الذين خالفوهم في الرأي بشأن كروية الأرض أو دوران الكواكب . فقد كان الاعتقاد الخاطيء المسلم به ، أن الأرض مركز الكون كله وأن ما سواها من كواكب ونجوم وشمس وقمر يدور حولها كمركز . ولقد اخذ رجال الكنيسة في أوروبا كل رأى مخالف لذلك ، واشتطوا في حكمهم على كل من سولت له نفسه معارضتهم ، إلى حد رميه بالكفر والحكم بحرقه ، نكالا لما



سولت له نفسه من اجتراء عليهم.

ولئن كان علم الفلك قد ظفر مؤخرا في أوربا مع النهضة العلمية والصناعية التي سادتها وشملت مختلف العلوم والفنون، فإن ذلك لم يكن التطور الوحيد الذي أصابه. فقد لقي هذا العلم على مختلف حلقات الحضارة دفعات قوية إلى الأمام. ومن أقدمها أفكار الصينيين قبل الميلاد بآلاف السنين، وتجارب الكلدانيين، وتطبيقات قدماء المصريين، واستنباطات الهنود واليونانيين. ومن بعد ذلك قياسات وتسجيلات العرب الذين ارتبطت بهم نظريات حديثة، وأسماء للأجرام والنجوم لم تكن معروفة قبلهم، وتناقلها عنهم غيرهم.

ولقد تحطمت مع الزمن الأفكار المشوشة التي تخبط فيها القدماء وأوضح العلم الحديث ما استغلق على الناس فهمه من ظواهر الكون بفضل رجال وهبوا حياتهم للبحث. ورغم ذلك فما زلنا ـ في القرن العشرين ـ نعاني حتى في حياتنا اليومية من عوائق التدجيل والتنجيم التي ارتبطت بعلم الفلك ظلما وبدون منطق أو علم.

انتهى الأمر إلى تقدم شمل العالم في نظرياته ووسائل تحقيقه على أيدى كثير من العلماء الأوروبيين في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي. فلقد حطم هؤلاء أفكاراً واهية ونظريات قديمة عاش في ظلماتها القدماء قبلهم حقبا طويلة منذ زمن بطليموس.

ومن أعلام من نادوا بالأفكار الفلكية الجديدة الفلكي البولندي «كوبرنيكس» والفلكي الدانمركي «تيخو براهي» والفيزيائي الإيطالي «جاليليو» والرياضي الألماني «كبلر» والرياضي الانجليزي «نيوتن» والفلكي الألماني «هرشل».

ويمكن القول بأن «نيقولاي كوبرنيكس» حمل لواء الثورة على الموروث القديم من الأفكار الفلكية الخاطئة. وأهم ما أعلنه في ثورته العلمية أنه نفى أن الأرض مركز للكون، وأن الشمس والسيارات والنجوم تدور حولها كما عرف الناس من قبله وفقا للنظام البطليموسي. ولقد فسر الحقيقة بأن الأرض ـ شأنها شأن السيارات الأخرى تدور حول نفسها وتدور حول الشمس ـ التي تعتبر مركزا لدوران الأرض مع سائر السيارات ـ وسماها «الأسرة الشمسية». ولم يجرؤ كوبرنيكس على إعلان آرائه خوفا من رجال الكنيسة ـ رغم أنه منهم ـ إلا بعد التحقق مما توصل إليه بنحو ثلاث عشرة سنة في كتاب أسماه «دوران الأجرام السماوية» نشره عام ١٥٤٣، ورغم أنه أتم تأليفه عام ١٥٣٠ ميلادية. وقدر له أن يتوفى في نفس العام.

إدموند هالى يشرب نفس الكأس

رغم رسوخ علم حركة السيارات الكونية على يدى «يوهانس كبلر» الذى وضع قوانين حركة السيارات. وعلى يدي «اسحق نيوتن» الذي قنن قوانين الجاذبية والتجاذب بين الأجرام الكونية، فقد ظلت ظلال الماضى تكبل كثيرا من العلماء وتدفعهم إلى الخشية من إعلان آرائهم. ووضح ذلك فيما توصل إليه الفلكي البريطاني «إدموند هالي» الذي كان له فضل اكتشاف «المذنب» الذي أطلق اسمه عليه. ولقد دلته دقة الملاحظة عندما درس حركة الأجرام السماوية الغريبة الشكل واستنتج أن المذنب الذي رصده الفلكيون في أعوام ١٥٣٠، ١٦٠٧ و١٦٨٢ هو مذنب واحد. يكون دورته كل ٧٦ سنة ولذلك تنبأ بظهوره في عام ١٧٥٨. وكان هذا التكهن يحمل في طياته تثبيتا لنظرية أستاذه «اسحق نيوتن» بشأن القانون العام للجاذبية الذي يحكم حركة الكواكب السيارة. كما يحمل برهانا علميا على صدق نظريات الفلكي الألماني «يوهانس كبلر» الذى يقرر فيها أن الكواكب والسيارات تدور على مدارات إهليليجية أى بيضاوية. ولذلك

> ● الاستعدادات في عصر الفضاء لرصد المذنَّب «هالي» ستكشف أسرارًا لم يعرفها أجدادنا

تضامنت أفكار «اسحق نيوتن» مع نظرية «إدموند هالي» وشجعه على إعلان استنتاجه عن ظهور المذنب.

ولقد تربص الناس لظهوره عام ١٧٥٨، فصدقت نبوءة «إدموند هالي» ولكنه كان قد توفي قبل ذلك ببضع سنوات. فأطلقوا على المذنب اسمه وصار لصيقا به.

ورغم وجود ملايين من المذنبات غيره في الكون إلا أن المذنب «هالي» تفرد بالشهرة لدى أهل الأرض لأنه يقترب اقترابا شديدا منها ويمكن أن يرى لبضعة أيام بالعين المجردة.

ويتميز مذنب هالي بأنه يستطيع الاقتراب من الأرض حتى يمكن رؤيته بالعين المجردة. ولقد اكتشف العلماء أن أول ظهور له كان عام ٢٤٠ قبل الميلاد وأنه حتى عام ١٩١٠ رؤي بالتأكيد ما يقرب من ٢٤ مرة.

ولقد وجد أن رساما ايطاليا يدعى «جيوتو» قد سجل صورة للمذنب على جدران أحد الكنائس عام ١٣٠١ ميلادية، وصور الفزع والهلع الذى أصاب الناس لغرابة شكله.

طبيعة المذنَّبات ودورانها

«المذنبات» أجسام مضيئة ونحن نراها من الأرض في بعض الظروف الشاذة في السماء، على أبعاد كبيرة تبلغ ملايين الكيلومترات وتتميز بأنها تجر خلفها ذيلا طويلا أقل لمعانا من رأسها. وقد يستمر ظهورها في السماء عدة أسابيع، وأحيانا عدة شهور.

وتظهر المذنبات كسيارات تدور حول الشمس في مدارات خاصة بها، حتى يكاد المتتبع لحركتها يظنها ستصطدم بالشمس، وهي في حركتها قد تقطع مدارات بعض كواكب المجموعة الشمسية وقد تدنو منها، ويميزها عن سيارات المجموعة الشمسية أي الكواكب، الذيل الذى يمتد منها إلى عدة آلاف، وأحيانا عدة ملايين من الكيلومترات. ولذلك سماها بعض العامة «النجمة ذات الشعور». والمذنب يتكون أساسا من ثلاثة أجزاء هي:

ـ النــواة
ـ الــرأس
ـ الذيــل

والنواة تتكون من مادة صلبة تماثل مادة الشهب فهى ليست مواد مشتعلة ذاتيا، ولكن تنعكس عليها أشعة الشمس، كما أن جزيئاتها لها القدرة على امتصاص قدر كبير من الأشعة فوق البنفسجية من الشمس، وإعادة إشعاعها في صورة الألوان المختلفة التى نراها

منبعثة منها. وفي خلال عملية الامتصاص والاشعاع، تتفكك بعض هذه الجزئيات ويصدر منها الضوء.

ويحيط الرأس بالنواة، وهو يمثل الوعاء الذى تتجمع فيه إشعاعات النواة. وتتركز فيه الأضواء المنبعثة من تفكك جزيئاتها.

ومن الرأس يبدأ الذيل ممتدا فى الفضاء بعيدا عنها مكونا الشكل المميز للمذنب.

وقد يطول الذيل أو يقصر. وتظهر فيه الانعكاسات المنطلقة أو الصادرة من الرأس.

ويكون دوران المذنب حول الشمس على مدار خاص ولا يمكن أن يرى عندما يقترب منها. ولكنه يتميز أنه يجر الذيل خلفه أو يدفعه أمامه باستمرار، فى الناحية البعيدة عن الشمس. بمعنى أن الذيل يمتد باستمرار فى الناحية البعيدة عن الشمس. ممتدا على الخط الواصل من الشمس الى رأس المذنب.

ومن الملاحظ أن الذيل يزيد طوله عندما يقترب المذنب من الشمس: بينما يقل حجم الرأس، وقد يبلغ طول الذيل حدا خياليا: فمذنب «فينسلر» الذى ظهر عام ١٩٣٧، بلغ طول ذيله أربعة ملايين كيلو متر بينما بلغ طول المذنب الكبير، الذى ظهر عام ١٨٤٣ ما يقرب من ٢٨٠ مليون كيلو متر.

ومادة الذيل خفيفة للغاية، بل شفافة الى الدرجة التى يمكن رؤيتها به فى حالة عدم وجود الذيل. ولقد مر أكثر من ثلاث مرات ذيل من ذيول المذنبات بالأرض، ولم ينتج عن ذلك أى آثار.

ولقد لاحظ العالم «برنارد» تغيرا لونيا طفيفا فى السماء نهارا عند مرور ذيل المذنب هالي بالأرض فى ١٩ مايو ١٩١٠. بيد أنه تعدد من قبل ذلك مرور ذيول بعض المذنبات بالأرض دون ملاحظة شيء ظاهر.

وأحيانا ينقسم ذيل المذنب إلى ذيول ثانوية. كما حدث فى مذنب «دوناتى» الذى ظهر عام ١٨٥٨، فقد تفرع ذيله إلى ثلاثة ذيول ثانوية. وكما حدث فى المذنب «شيسوكس» الذى ظهر عام ١٧٤٤، وانقسم ذيله إلى ستة ذيول ثانوية.

ومن البديهى أن المذنبات ترى ليلا بوضوح، ويمكن تصويرها وتمييز ذيلها، ولكن من المذنبات ما يمكن تمييزه فى وضح النهار كما كانت الحال بالنسبة للمذنب الكبير عام ١٨٤٣، ١٨٨٢.

وفى كل عام تكتشف مذنبات عديدة، وبالتلسكوبات الحديثة يكاد يندر عدم رؤية أحدها أو أكثر كل ليلة، على أن أكبر عدد اكتشف خلال عام واحد كان عام ١٩٣٩،



الفلكي البريطاني ادموند هالي

حيث تم اكتشاف اثنى عشر مذنبا، وعادة يطلق عليها أسماء مكتشفيها.

ولقد عرف عدد كبير من المذنبات إلى الآن، من أهمها مذنب «إنكى» الذى قطع مدار كوكب المشترى. ومذنب «بيالا» الذى قطع مدار كوكب زحل، ومذنب «بروك». ثم أخيرا مذنب «هالي» الذى رآه آباؤنا وأجدادنا فى مايو ١٩١٠ بالعين المجردة، والذى رصدته بعض المراصد الفلكية بوضوح ومنها مرصد حلوان بالقاهرة.

ولقد تجمع وقت اقتراب مذنب «هالي» من الأرض عام ١٩١٠ علماء كثيرون لمحاولة قياس شيء ما أو مشاهدة أى ظاهرة تفيد الدراسة فلم يثبت لهم إلا أن مادة ذيله خفيفة، لا تحجب النجوم خلفها، وكتلتها بسيطة للغاية.

ومذنب «هالي» يمتد مداره ذو الشكل البيضاوى الذى تقع الشمس في إحدى بؤرتيه، الى خارج مدار كوكب «نبتون»، ويتم دورته حول الشمس فى مدة ٧٥ عاما و١١ شهرا على وجه التقريب.

ولكن ليست كل المذنبات ذات دورة متكررة حول الشمس. فمنها ما يظهر بين كواكب المجموعة الشمسية مرة واحدة. ثم يختفى فى الفضاء لأن لها مدارات تغوص فى الفضاء الشاسع عدة مئات أو آلاف من السنوات.

مصدر المذنبات

المذنبات إذن أجرام كونية لا هى بالكواكب، ولا هى بالنجوم، وقد لاحظ العلماء أن مداراتها تميل على مدارات كواكب المجموعة الشمسية بزوايا مختلفة، تتراوح بين (٠، ٩٠°) فتخبط كثيرون منهم فى رد المذنبات إلى أصلها. وتفسير وجودها. فمنهم من رجح السبب باقتراب الشمس قديما من سديم من السدم المشهورة، فانفصلت منه المذنبات، ولكن ثبت خطأ هذا التفسير، لأنه لو صح ذلك لأتتنا المذنبات من اتجاه واحد، بينما الحقيقة أنها تأتى من اتجاهات متعددة.

ورجح آخرون أن تكون المذنبات قد لفظتها براكين كواكب كبيرة كالمشترى وزحل. ولقد ثبت خطأ ذلك لأن دراسة سطح هذه الكواكب لم يثبت منها وجود براكين. وإفلاتها من جاذبية هذه الكواكب ذات الأحجام الكبيرة صعب للغاية.

وظن آخرون أن مصدرها يكون من الشمس، تقذف بها مثلما تقذف بألسنتها المندلعة. لكن دحض هذا التفسير أيضا لأن مثل هذه الاندلاعات لابد أن ترتد إلى الشمس نفسها. ولا تنفصل عنها لتدور حولها.

وأخيرا ظهر تفسير مقنع للعالم الفلكى الهولندى «جان أوورت» عام ١٩٥٠. والذى أطلق عليه اسم «نظرية الثلاجة الكونية». وموجز هذه النظرية أن المذنبات توجد متجمدة فى تجمع هائل خارج المجموعة الشمسية على أبعاد تتراوح بين ١٠٠,٠٠٠ : ١٥٠,٠٠٠ وحدة فلكية (الوحدة الفلكية هى المسافة بين الأرض والشمس وتعادل ١٤٩ مليون كيلو متر تقريبا). ومعنى ذلك أنها توجد فى حالة تجمد فى حشد يشبه السحابة داخل المجرة التى تحوى مجموعتنا الشمسية. ويقدر عدد المذنبات فى هذه السحابة التى أطلق عليها (سحابة أوورت) بما يقرب من ١٠٠ مليون مذنب، وتترك بعض المذنبات هذه السحابة عندما تنجذب نحو بعض الكواكب الكبيرة أو النجوم كشمسنا مثلا. وتتحرك لتدور حولها ثم تعود من حيث أتت إلى مكان تجمعها. ولم يستطع «أوورت» أن يعلل سبب الايقاع المنتظم لدوران بعض المذنبات كمذنب «إينك» الذي يكرر دورته كل ٣,٣ سنة، ومذنب «هالى» الذي يكررها كل ٧٦,١ سنة، ولكنه فسر تكوين مادة المذنب تفسيرا يبدو منطقيا. وهو أن المذنب عندما ينجذب نحو المجموعة الشمسية ويصبح على بعد يقرب من ٤٨٠ مليون كيلو مترا منها، فإن حرارة الشمس تبدأ فى تحويل الثلوج المائية المتجمدة فى النواة إلى بخار، وبالتالى تتحرر الذرات الصلبة وتتطاير مع بخار الماء على هيئة سحب من الغبار تحلق حول النواة مكونة الهالة التى تحيط برأس المذنب. وكلما اقترب المذنب من الشمس فإن الرياح الشمسية المتأينة والتى يطلق عليها اسم



« البلازما » والتى تصل فى سرعتها الى ما يقرب من ٤٨٠ كيلو مترا فى الثانية تدفع بالذرات المتأينة أى المشحونة كهربيا والموجودة فى الرأس بعيدا عن اتجاه الشمس . فتكون ذيل المذنب ، ولذلك يظهر الذيل شفافا وهو لذلك ليس ثابت الطول فهو يتزايد حتى يبلغ أقصاه عندما يكون رأس المذنب أقرب ما يمكن للشمس . فإذا ابتعد المذنب عن الشمس يبدأ طوله فى التناقص . ويبدو هذا التفسير مقبولا عن طريقة تكوين المذنبات . وعلى ضوئه تمكن العلماء من دراسة تكوين مادتها كيماويا بالتحليل الطيفى ، وتوفر لديهم الاعتقاد بأن رأس المذنب يعتبر بمثابة المصنع الكيماوى لكل أجزائه وأن ذرات النواة تتحول الى مركبات كيماوية وأيونات متكهربة من الماء والغبار الكونى .

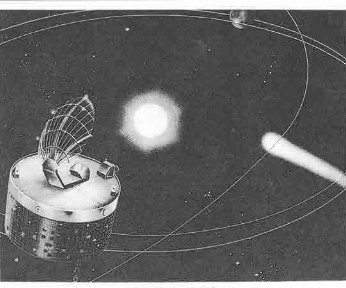
من ذلك يمكننا أن نخلص الى أن مادة المذنَّبات ـ دوناً عن سائر الأجرام الكونية ـ تتكون من غازات متجمدة يختلط بها الغبار الكونى . وأنها أثناء دورانها تتحول بالتسامى الى غازات متطايرة تكون الهالة والذيل الشفاف .

ولقد ثبت صحة هذه النظرية خلال يناير عام ١٩٨٦ إذ راقب لفيف من العلماء المذنب هالي وقاموا بتصويره من طائرة نقل عسكرية عليها منظار طيفى وتلسكوب قطره ١٠٠ سنتيمتر طوال شهر ديسمبر ١٩٨٥ . وقدر هؤلاء العلماء أن المذنب يفقد أربعة أطنان من الماء فى الثانية الواحدة نتيجة لارتفاع درجة الحرارة .

كما كشفت الصور التى استقبلت من سفينة الفضاء الأمريكية « بيونير » فى يناير ١٩٨٦ أن المذنب يتكون من كرة كربونية مغطاة بالثلج .

حركة هالـي فى الفضاء

من المتوقع أن يصل المذنب هالي الى أقرب نقطة من الشمس يوم ٩ فبراير ١٩٨٦ ومن المقدر وقتئذ أن يعكس المذنب كميات من الضوء تزيد بما يتراوح بين ٣٠ ، ١٠٠ مرة عن الكمية التي يعكسها حاليا . ولذلك يمكن رؤية المذنب


سفينة الفضاء اليابانية بلانت

بالعين المجردة فى النصف الأول من شهر فبراير . كما سيكون أقرب ما يمكن من الأرض يوم ١١ ابريل ١٩٨٦ .

ولقد استطاعت كثير من المراصد الفلكية الأرضية أن ترصد بدء اقترابه بوضوح منذ شهر نوفمبر ١٩٨٥ . ويمكن أن يستمر ذلك حتى شهر مايو ١٩٨٦ . وإن كانت بعض المراصد الفلكية مثل مرصد جبل بالومار فى الولايات المتحدة قد سجل اقترابه منذ أكتوبر ١٩٨٢ وهو حاليا يشق طريقه إلينا بسرعة مذهلة تقطع مئات الكيلو مترات كل ساعة . ولو تطلعنا الى مدار المذنب « هالي » فى جولته بين كواكب منظومتنا الشمسية فسنجد أنه قد بدأ رحلة الاقتراب من الأرض منذ عام ١٩٤٨ حيث بلغ النقطة القصوى على هذا المدار . ولكي نتصور مدى اتساع أبعاد هذا المدار فإن هذه النقطة تبعد ٥,٢٥ مليار كيلو مترا من الشمس .

وسرعة المذنَّب على مداره ليست سرعة ثابتة ، فهى تزيد باضطراد كلما اقترب من الشمس ، ولذلك فهو يقع تحت تأثير قانون التجاذب العام مع الأجرام الكونية التى يتحرك وسطها . وفى عام ١٩٨٥ تجاوز « هالى » كوكبى « نبتون وأورانوس » وبدأ يدور حول كوكب « زحل » ويستعد للدخول فى مجال التجاذب مع كوكب « المشترى » . ولأن هذا الكوكب هو أكبر كواكب منظومتنا الشمسية حجما ، إذ يبلغ حجمه قدر حجم الأرض ١٣٠٠ مرة ، فقد تعارف الفلكيون على تسميته باسم « عقبة المذنَّبات » .

وفى فبراير وأبريل عام ١٩٨٦ عندما يكون المذنب « هالى » واضحا فى السماء ويمكن تمييزه بالعين المجردة .. عندئذ فإن سرعته ستكون حوالى أربعة ملايين كيلو مترا فى اليوم .

المذنَّبات .. والأوهام .. والتجارة

ارتبط ظهور المذنَّبات على مر التاريخ فى أذهان كثير من الناس بقدر هائل من الخرافات ، وربط عامة الناس بين ظهوره وحدوث الكوارث كالفيضانات والزلازل والقحط وظهور الأمراض . حتى بلغ الأمر أن استغل بعض الجشعين هذا الجهل عام ١٩١٠ وباعوا للناس أقراصا تقيهم الأمراض الخبيثة التى يجلبها المذنَّب الذي اقترب ذيله من الأرض آنذاك اقترابا شديدا .

وسبب هذه المزاعم الخاطئة هو تزامن أحداث عالمية حزينة مع وقت ظهور المذنَّب « هالي » فقد مات أحد القواد الرومانيين عام ١٢ قبل الميلاد ، وعندما عاد المذنَّب للظهور عام ٦٤ ميلادية حذر أحد مشاهير المؤرخين من أن ظهوره لابد أن يصاحبه دمار وحرب ، فسقطت بعد شهور قليلة مدينة (القدس) . وفى العصور الوسطى وفى عام ١٠٦٦ ميلادية ظهر « هالى » وسقط مع ظهوره عرش بريطانيا بهزيمة الملك هارولد ، واعتلاء غليوم العرش . بينما فى عام ١٤٥٦ ميلادية كانت جيوش

العثمانيين الأتراك تغزو بلغراد وظهر المذنب في السماء كالسيف المسلول وتشاءم منه الأوروبيون وتصوروا ذيله كأنه سيف وأطلقوا عليه اسم « سيف العثمانيين » . وفي عام ١٦٠٧ ميلادية ظهر « هالي » وقت أن كان المستوطنون الأمريكيون يقاسون أشد الأهوال على أيدي السكان الأصليين من الهنود الحمر . ومع ظهور المذنب هالي عام ١٩١٠ سقط عرش الملك إدوارد السابع في بريطانيا بموته .

ولقد ورد ذكر المذنبات عامة في كثير من المراجع التاريخية كالإلياذة « هوميروس » حيث وصفت بأنها نجوم ذات شعور تسقط منها الأوبئة والجرب ! . أما في المراجع العربية فقد ذكرت في كتاب « الكامل في التاريخ » لابن الأثير الذي سجل به أحداث عام ٢٢٢ هجرية التي كانت توافق عام ٨٣٨ ميلادية وقال فيها « في هذه السنة ظهر على يسار القبلة كوكب بقي يرى نحو أربعين ليلة وله ذنب كان طويلا جدا . فهال الناس ذلك وعظم عليهم وتطيروا منه » .

ووصفها « ابن إياس » في تاريخ أحداث عام ٨٦٠ هـ الموافقة ١٤٥٦ ميلادية « ظهر في السماء نجم بذنب طويل جدا من جهة الشرق ودام يطلع نحوا من شهرين وزاد الكلام السيىء بسببه » .

ولأن مثل هذه الخرافات لا تستند إلى علم ولا منطق وتتلاعب بعقول البسطاء فقد برع بعض الجشعين في استغلال الفرصة وباعوا للناس قرب ظهور المذنب حجبوبا تقيهم المرض والأوبئة التي زعموا أن المذنب يجلبها منه .

واليوم ولأننا نعيش عصر الفضاء فإنه يصعب أن يروج أحد هذه الأوهام والخرافات لأنه قد مضى أوانها . غير أن بعض الأذكياء استغلوا فرصة قرب ظهوره عام ١٩٨٦ ليبيعوا للشباب فانلات « تي شيرت » وحقائب ومضارب تنس عليها رسوم تمثل المذنب وذيله الطويل . كما راجت سوق بيع المناظير المقربة « التلسكوبات » الصغيرة الحجم لتستخدم بواسطة الهواة ، وبدأت بعض شركات السياحة في الولايات المتحدة واليابان تعلن عن تنظيم رحلات جوية بطائرات جامبو العملاقة للطيران على ارتفاعات تسمح بمشاهدة المذنب من السماء .

ولأن قضية التطير والتشاؤم لا يرضى عنها الإسلام ولا يرضى عن ربطها بالظواهر الكونية . فإننا نذكر أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم نهى عن التشاؤم من ظهور الأجرام الكونية . وعلق على كسوف الشمس وخسوف القمر وما حدث من تزامن كسوف الشمس مع وفاة ابنه إبراهيم . فقال ﷺ « الشمس والقمر آيتان من آيات الله . لا ينكسفان لموت أحد أو لحياته . فإذا رأيتموهما فادعوا الله وصلوا » .

هالي في عصر الفضاء

لقد كانت آخر مرة ظهر فيها « هالي » لأهل الأرض عام ١٩١٠ ، ولكنه في عام ١٩٨٦ يزور الأرض والأمور عليها قد تغيرت تماما . فقد دخلت البشرية عصر الفضاء منذ ما يقرب من ٢٨ عاما وأصبح للعلماء وسائلهم التي تختلف تماما عما كان يستخدمه آباؤهم وأجدادهم من أجهزة للرصد الفلكي والتحليل الضوئي ، والقياس العلمي بكل أبعاده .

ولأن تاريخ ظهور المذنب معروف مسبقا بادرت كثير من الدول المتقدمة في الأبحاث الفضائية إلى الاستعداد لهذا الحدث العلمي النادر منذ سنوات . فبعضها أقام مراصد أرضية فلكية جديدة تماما كما حدث في استراليا وبعضها طور عدسات ومرايا مراصده القائمة حاليا كما حدث في الولايات المتحدة . وتحفز أكثر من ٨٠٠ عالم في شتى بقاع الأرض للتعاون بالقيام بمهام مختلفة لرصد المذنب هالي وتظموا أمورهم في مؤتمر عقد عام ١٩٨٤ في بودابست .

ولكن الأهم من ذلك أن الدول المتقدمة في مضمار الفضاء أطلق بعضها أقمارا صناعية أو سفن فضاء للتصوير القمر ورصد أبعاده وتحليل الضوء الصادر من مكوناته عن قرب من الفضاء . ولا غرابة في ذلك فقد سبق إطلاق مرصد فلكي كامل على متن معمل الفضاء الأمريكي سكاي لاب عام ١٩٧٣ وظل يرصد الأجرام الكونية ، وكان وقتها يدور على مقربة من الشمس مذنب آخر اسمه « كهوتيك » ، قام برصده وتسجيل بيانات علمية عنه . واليوم أصبحت الأقمار الصناعية وسفن الفضاء قادرة على احتواء عديد من الأجهزة العلمية التي تخدم هذا الغرض .

وإذا استعرضنا الجهود الدولية التي أعدتها الدول المتقدمة فضائيا فسنجد أن قصب السبق قد انعقد للاتحاد السوفيتي الذي أطلق سفينتي فضاء : الأولى « فيجا — ١ » (VEGA – I) في ديسمبر ١٩٨٤ والثانية لحقتها لكي تقتربا لمهمة خاصة إلى كوكب الزهرة ثم تتحولا بعد ذلك في أواسط شهر يونيو ١٩٨٥ لتكونا على مقربة من المذنب هالي في مارس ١٩٨٦ ، حتى تصبحا على بعد ١٠،٠٠٠ كيلو مترا منه . ولا شك أن مثل هذا البعد سيتيح للسوفييت التقاط عديد من الصور التي يمكن أن تغني البحث العلمي وتكشف النقاب عن مكونات المذنب .

وكذلك فعلت الولايات المتحدة ، بتوجيه السفينة الفضائية « بيونير » التي تحلق في الفضاء بين الكواكب منذ عام ١٩٧٨ ، لتقترب من المذنب هالي في شهر فبراير ١٩٨٦ . وسيقوم جهاز الطيف في هذه السفينة بتحليل الأضواء الصادرة من رأس المذنب وهالته وذيله بالأشعة تحت البنفسجية . كما وجهت الولايات المتحدة السفينة « أيسي — ٣ » في سبتمبر ١٩٨٥ لنفس الغرض . وربما يستطيع المرصد الفلكي الأمريكي المقرر إطلاقه في أغسطس عام ١٩٨٦ من اللحاق بالمذنب وتصويره في رحلة ابتعاده عن الشمس .

أما اليابان فقد أطلقت قمرين صناعيين في أغسطس ١٩٨٥ باسم « بلانت أ ، ب » لقياس شدة الرياح الشمسية المتأينة والتي تلفح مادة ذيل المذنب وتطوحه بعيدا عن الرأس . كما قامت منظمة أبحاث الفضاء الأوروبية « ايسا » بإطلاق سفينة فضاء أوروبية تحت اسم (جيوتو) — نسبة إلى الرسام الايطالي الذي أشرنا إليه — لتخترق ذيله على بعد ٥٠٠ كيلو متر من رأسه في يومي ١٢ ، ١٣ فبراير ١٩٨٦ .

كما أن هناك جهدا بذلته ألمانيا الاتحادية ، فقد أطلقت قمرا صناعيا في يناير ١٩٨٥ قام بتجربة فريدة هي ذر محتويات ربع عبوات مملوءة بمسحوق الباريوم المشع المخلوط بذرات النحاس لكي تكون مذنبا صناعيا على ارتفاع ١٠٠ ألف كيلو متر . وقام قمران آخران أحدهما بريطاني والآخر أمريكي بتصوير الأشعاعات الصادرة منه ودراسة تأثرها بالرياح الشمسية . كل ذلك في إطار الاستعداد للمذنب هالي عندما يهل على الأرض .

لذلك فإن الاستعدادات لرصد « هالي » في عصر الفضاء قد اختلفت تماما عما كان يتبعه أجدادنا . كما أن بعض الدول قد تضافرت جهودها لتقوية أو تجديد عدسات مراصدها الفلكية الأرضية لنفس الغرض .

لذلك ليس عجبا أن تكشف هذه الجهود عن مزيد من أسرار الكون بعد أن يتم تحليل ما يتجمع منها من معلومات عن المذنب « هالي » .

سعد شعبان

عضو لجنة الفضاء بأكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا بالقاهرة — عضو لجنة الفضاء باتحاد الطيران الدولي بباريس

خواطر تسر الخاطر



بقلم: زكريا تامر

لماذا ضحك طه حسين؟

زعموا أن الأديب المصري الدكتور طه حسين كان يضحك بفرح حقيقي وهو يحتضر. فقيل له: «أتحب الموت إلى هذا الحد؟».

قال طه حسين: «لاشيء أكرهه كالموت».

فقيل له: «إذن لماذا تضحك وأنت توشك أن تموت؟ هل المسألة مسألة شجاعة نادرة؟».

قال طه حسين: «لاضحك بلا سبب. وأنا ضحكت وأضحك لسببين لا لسبب واحد».

فسئل عنهما بفضول. فأجاب: «السبب الأول هو أني في بداية حياتي كنت أستطيع أن أكون أعمى أو مبصراً، فآثرت أن أحيا أعمى، وعشت حياتي من غير أن أبصر وجوه من يؤلفون كتبا أشد ضررا من طاعون. ولو أبصرتها لصرت نزيل سجون ولما صرت أديبا شهيرا. أما السبب الثاني فهو أني كنت أظن أني سأعيش مئة سنة. فاذا ظني مخطئ، وإذا بي أعيش ٨٤ سنة فقط. ونجوت من ذلك اليوم الذي يعاقب فيه القارئ القتيل، ويبجل الأديب القاتل، ويكتب اسمه في سجل الخالدين».

وبدا على وجه طه حسين زهو أغضب المحيطين به. فقالوا له متسائلين بنزق: «هل رأيت نساء جميلات؟ سماء زرقاء؟ أغصان أشجار ترتجف؟ طيوراً تطير؟ قمراً؟ نجوما؟ نهراً؟ عشبا أخضر؟ أمواج بحر؟ شارعا مبتلا بمطر ربيع مغمورا بضياء شمس؟ غيمة بيضاء؟ خبزا ساخنا؟ أنت ترفض الجبل لأن ذبابة حطت عليه، ولايضر الأشجار إذا صنعت مشنقة من خشبها، فالمسؤولية مسؤولية الأيدي الصانعة وليست مسؤولية الأشجار».

ويقال إن طه حسين لم يكترث بما سمع، وتابع ضحكه حتى مات. ويقال أيضا إنه قد أنصت لما قيل له ثم مات حزنا على مافقده.

النار والعقرب

نار اشتهرت بحبها لقراءة الكتب الفكرية الرصينة الجادة، قابلت عقربا ذاع صيت آرائها الحكيمة.

قالت النار للعقرب: «أنت تلسعين وتميتين ضحاياك بسمك».

قالت العقرب بهزء: «ماقلتيه ليس سراً عسكريا. وهو معروف أكثر مما ينبغي».

قالت النار: «ما قلته مجرد تمهيد لسؤال لا أعرف جوابه».

قالت العقرب: «وما هو ذلك السؤال الذي تجهلين جوابه؟».

قالت النار: «سؤالي هو: لماذا تقتلين ما دمت لاتأكلين ضحاياك؟».

قالت العقرب: «أنا أقتل بسمي كل من أظن أنه يهدد حياتي، ومن المؤكد أنه يحق لكل مخلوق الدفاع عن نفسه وبمختلف الوسائل والأسلحة».

فبدت النار كأنها اقتنعت بما سمعته، ولكنها لاحظت أن العقرب حزينة حزنا غريبا، فسألتها بحنو: «مابك؟».

فتنهدت العقرب بأسى، وقالت: «تذكرت أني عقرب تنتمي الى جيل متخلف من العقارب». فبهتت النار، وقالت: «وهل في عالم العقارب أيضا تخلف وتقدم؟».

قالت العقرب: «في المستقبل، ستظهر عقارب متطورة، لاتختلف في المظهر عن أكابر الناس، وستتميز بأنها إذا لم تجد من تقتله فإنها تقتل نفسها بسمها».

قالت النار: «من الجلي أنك غريبة الأطوار ومشتتة التفكير. سألتك عن سلوك العقارب فإذا بك تتحدثين عن أدباء».

فقالت العقرب للنار: «أنا معروفة بتفكيري المنظم، ولكنك أنت التي لاتسمعين جيدا وتحتاجين الى علاج طبي سريع. أنا حدثتك عن عقارب، فإذا بك تدعين أني تحدثت عن أدباء».

وتبادلت النار والعقرب الاتهامات، ولم تصلا إلى اتفاق.

نحن العُزل

القطط المريضة تكتب وصاياها بأيد غير مرتعشة . وتقصد المستشفيات تشجيعاً للعلم . ودعما للعصاميين من الأطباء المفترسين .

الجائعون يقصدون مالكي الطعام طالبين الشهادة أو النصر .

الأدباء يقصدون دور النشر خجلين كأن نتاجهم الابن غير الشرعي .

أما نحن العزل الذين مازلنا نتصف بقليل من الصدق والفضول ، فنقصد أبا معشر الفلكي مستغيثين ، واثقين بأنه الوحيد القادر على تلبية استغاثتنا ، فلم يطردنا أو يزدرينا خفية مثلما يفعل مع الناس بعض الطارئين من ذوي المناصب ، بل رحب بنا بحرارة . وقال لنا : «احكوا عما تشاؤون ، واسألوا أي سؤال ، وستكون خبرتي في التنجيم وتفسير المنامات خادما مطيعا لكم» .

لم نبادر الى الكلام فورا ، فمن تهطل فوقه القنابل والصواريخ والقوانين والقيود لايشبه من تهطل فوقه أمطار الربيع ، ولذا فقد تريثنا وفكرنا فيما سنقوله على الرغم من اننا سبق لنا أن ناقشنا مطولاً ما نريد قوله . واتفقت آراؤنا وتوحدت حتى بات صوت كل واحد منا هو أصواتنا كافة .

ولما تكلمنا ، قلنا لأبي معشر الفلكي باكتئاب : «نحن نزرع القمح ، ولكننا في موسم الحصاد لانظفر إلاّ بقشر البصل ، فمن المسؤول ؟» .

قال أبو معشر : «اسألوا التراب ، فهو وحده الذي يعرف الجواب» .

قلنا : «نحن نبتهج حين نأكل حتى الشبع ، وحين نحكي من دون أن نسجن ، وحين ننام تحت سقف . فمتى نعرف ذلك الفرح العظيم الذى يجعلنا نحس بأن الكرة الأرضية أصغر من قبضة رضيع ، وبأن مايجري في شراييننا ليس دماً أحمر حارا إنما هو غناء وموسيقى ؟» .

فابتسم أبو معشر ابتسامة ساخرة ، وقال : «لكل أمة فرحها الخاص بها والمستمد من أحوالها ، والفرح المسموح به حيث ولدتم ليس أكثر من كلام جميل مطبوع على ورق مصقول ، ولاوجود له حقيقيا . ومن يطمح الى نيل ماهو غير موجود يفترسه الاخفاق والشقاء» .

قلنا : «بيوتنا خاوية ، جيوبنا خاوية ، رؤوسنا خاوية ، قلوبنا خاوية» .

فقال أبو معشر : «الخاوي أفضل من الملآن ، فالخروف حين يكون هزيلا ، ينتقم من آكليه إذ يفسد شهيتهم ، ويضطرون الى مضغ لحمه على مضض» .

قلنا : «أولادنا كسالى لايحبون مدارسهم ، ويبيعون كتبهم الدراسية ، ويشترون بثمنها سكاكين» .

فقال أبو معشر : «إنهم يعرفون الواقع أكثر منكم» .

قلنا : «وهم يأبون اطاعة نصائحنا وتوجيهاتنا وارشاداتنا» .

فقال أبو معشر : «لاتكونوا قساة معهم لأنهم سيُرغمون في المستقبل على إطاعة ما لايطاع ومن لايطاع» .

قلنا : «وزوجاتنا يطالبن بالمساواة» .

فقال أبو معشر : «سيندمن بعد الفوز» .

قلنا : «ما الفوارق بين الأحياء والموتى ؟» .

فقال أبو معشر بتأنيب : «هذا سؤال لايليق بكم أن تسألوه لأنكم أبناء مجتمعات تفخر بأنها لاتعترف بالفوارق بين الأجناس والألوان والطبقات» .

قلنا : «ماذا نفعل كي نظفر بالطمأنينة والراحة ؟» .

فقال أبو معشر : «لاتطلبوا مالا ينال . فاذا مشيتم تعبت أقدامكم واهترأت أحذيتكم ، وإذا قعدتم تعبت رؤوسكم ، وإذا نمتم اتهمتم بالتخاذل والتهرب من أداء واجبكم تجاه الوطن» .

قلنا : «في كل ليلة نرى مناماً واحداً لايتبدّل . نرى أننا نطير في الهواء بلا أجنحة ، فما تفسيره ؟» .

فقال أبو معشر : «عما قريب ، ستفرض عليكم ضرائب جديدة بحجة شراء المزيد من الطائرات لحماية سماء البلاد» .

قلنا : «متى ننبذ التناحر ونتحد ؟» .

فقال أبو معشر : «ما الفائدة من الحياة اذا ربحتم الوئام والاتحاد وخسرتم رضى الأعداء ؟» .

قلنا : «من هو المسئول الظالم ؟» .

فقال لنا أبو معشر : «ماذا قلتم ؟ لم أسمع سؤالكم» . فكررنا سؤالنا . ولكن أبا معشر قال لنا : «لن أستطيع سماعه لأني في كثير من الأحيان أصاب بصمم مباغت» .

قلنا : «انصحنا نصح العالم الصديق» .

فقال أبو معشر بثقة ودون تردد : «اشتروا خياما وتأهبوا لما سيأتي» .

الشوقيّات

الصحافي : «مابك غاضب غضباً شديدا ؟ أنت غاضب الى حد أنك انتزعت طربوشك عن رأسك وقذفته على الأرض ودعسته بقدميك» .

أحمد شوقي : «لو كان في مقدوري لقذفت أيضا رأسي معه» .

الصحافي : «وما سبب غضبك ؟ أأنت غاضب من الخنوع العربي السائد ؟» .

أحمد شوقي : «ما تتكلم عنه هو مشكلات تخص الأحياء ، وأنا ميت ومشكلاتي مشكلات ميت» .

الصحافي : «وماهي مشكلاتك ؟ كنت أعتقد أن الموتى هم بلا مشكلات» .

أحمد شوقي : «مشكلاتى كلها نابعة من أنه لا وجود في دنيا العرب لشيء اسمه العدل» .

الصحافي : «سأجرؤ على مخالفتك في الرأي ، فالعدل مهيمن في البلاد العربية قاطبة» .

أحمد شوقي : «وأين هو ذلك العدل الذي تتحدث عنه ؟ أمن العدل أن أسمى أميراً للشعراء ؟» .

الصحافي : «هذا لقب نلته عن جدارة ، وتليق به ويليق بك» .

أحمد شوقي : «العدل يتطلب أن أسمى ملكاً للشعراء ولاسيما أن ماينشر حاليا من هراء يسمى شعراً ، وترشحه الصحف لنيل جوائز عالمية . وما يثير حنقي هو أن هذا الهراء هو كتابات غلمان مازالوا تلامذة في مدارس لاتعلم سوى الجهل والادعاء» .

الصحافي : «هل أفهم من كلامك أنك تعني الشعر الحديث ؟» .

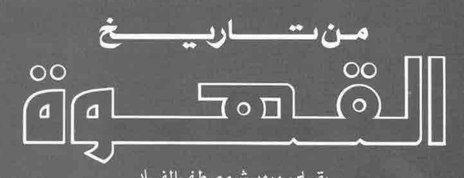
أحمد شوقي : «شعركم الحديث يصلح لأن يكون حديث حشاشين فقط» .

الصحافي : «موقفك المعادي للشعر الحديث غير مستغرب ، فأنت من أنصار الشعر التقليدي الموزون المقفى» .

أحمد شوقي : «وحتى شعركم الموزون المقفى يميت الميت قرفاً فهو مملوءٌ بالضجيج والصياح والصفير والنعيق والنعيب والبعيق» .

الصحافي : «مادمت سلبياً تجاه الحياة الأدبية العربية الى هذا الحد ، فلابد من أن يكون ماسمعته عنك هو مجرد شائعة» .

أحمد شوقي : «أنا أرغب حقاً في العودة الى الحياة كي أختطف طائرة يكون ركابها كلهم من الشعراء» .



من تاريخ القهوة

بقلم: درويش مصطفى الفار

من منطلق الحفاظ على التراث والبحث في أصوله والتعرف على مسيرته خلال القرون، خصص متحف قطر الوطني ركنا خاصا للقهوة العربية واهتم بتجميع المراجع، من مطبوع أو مخطوط مما يتعلق بتاريخ هذا الشراب العربي الطهور... وذلك لأن للعرب مع القهوة شأن، أي شأن، فهم الذين عرفوا خواصها حيث تقول أرجح الروايات أو الأساطير، إن راعي غنم عربي يسمى (خالدي) قد اكتشفها في منطقة كيفا بالحبشة في حوالى منتصف القرن التاسع الميلادي.. بينما كان يرعى غنمه هنالك...



دلة من نحاس مصنوعة في الهند



يقول الفقيه الشيخ عبد القادر بن محمد الأنصاري الحنبلي، وهو من علماء اليمن في القرن العاشر للهجرة، في كتابه «عمدة الصفوة في حل القهوة» مانقتبس منه: وأما مبدأها، فقال الشيخ شهاب الدين ابن عبد الغفار. إن الأخبار قد وردت علينا بمصر أوائل هذا القرن، بأنه قد شاع في اليمن شراب يقال له القهوة تستعمله المشايخ الصوفية وغيرهم للاستعانة به على السهر في الأذكار التي يعملونها على طريقتهم المشهورة. وان ظهورها وانتشارها كان على يد المفتي جمال الدين أبي عبدالله محمد بن سعيد المعروف بالذبحاني. وسبب اظهاره لها أنه كان عرض له أمر اقتضى الخروج من عدن الى بر العجم فأقام به مدة فوجد أهله يستعملون شرابا اسمه القهوة. وقال العلامة فخر الدين بن أبي يزيد المكي. إنه يقال إن أول من أنشأها وأشاعها بأرض اليمن الشيخ العارف بالله علي بن عمر الشاذلي».

ولعل لذلك يرجع اطلاق البدو في سينا والصحراء الشرقية بمصر إسم «الشاذلي» على القهوة الى يومنا هذا...

ولا ندري لماذا أطلق العرب كلمة «قهوة» على هذا الشراب الطهور. فالقهوة كما جاء في المحيط للفيروز بادي وفي فقه اللغة



ملكة بريطانيا في معرض أدوات القهوة بمتحف قطر الوطني



من أدوات صنع القهوة العربية ، الدلة النحاسية ، الجبنة الفخارية السودانية ، الهاون ، المقلاة ، المحمسة ، والعمْرة التي يحمل فيها البدوي فناجيله كالتي توجد إلى اليمين أماماً وبجانبها حب الهيل والبن والزعفران .



دلّة فضية من الكويت

دلّة نحاسية مصنوعة يدوياً في الشام



دلّة نحاسية من طراز (رسلان)



دلّة نحاسية عمانية مصنوعة يدوياً

للثعالبى نقلا عن الكسائى إنما هى اسم من أسماء الخمر!!!

ونقل الأتراك القهوة عن العرب ، وأشاعوها في اوروبا ، بعد أن سموها بلكنتهم « كاهفا ».

وظهرت كلمة (كوفى) فى اللغة الانجليزية سنة ١٥٩٨ م .

وافتتح أول مقهى فى لندن سنة ١٦٥٢ وفى بوسطن بأمريكا سنة ١٦٨٩ ... ولقد ظلت اليمن المصدر الوحيد للبن حتى القرن السابع عشر إذ بدأت زراعته فى سرنديب (سيريلانكا) سنة ١٦٥٨ ، وفى جاوة وغيرها من الأرخبيل الأندونوسي سنة ١٦٩٦ ، وفى هاييتى وسان دومنجو سنة ١٧١٥ وفى سورينام سنة ١٧١٨ وفى جزر المارتنيك سنة ١٧٢٣ وفى البرازيل (وهى الآن زعيمة إنتاج البن فى العالم) سنة ١٧٢٧ وفى جامايكا سنة ١٧٣٠ وفى كوبا سنة ١٧٤٨ وفى المكسيك سنة ١٧٩٠ وفى جزر هاواى سنة ١٨٢٥ وفى السلفادور سنة ١٨٤٠ ...

ومن طريف مايروى أن الحكومة الفرنسية سنة ١٨٢٠ ، أرسلت ثلاث شجيرات بن من تلك التى كانوا يستنبتونها في بيوت زجاجية بحديقة النبات فى باريس لزراعتها فى جزر الأنتيل . وهلكت ثنتان من الثلاث وبقيت واحدة ، فأخذ الربان (دكليو) يتقاسم مع الشجيرة الباقية نصيبه من الماء حتى تمكن من الوصول بها حية الى الأنتيال حيث زرعها .

ويسمى علماء النبات شجيرة القهوة (كافيا أرابيكا) وهي الأصل الذى عرف فى اليمن . وهنالك نوع آخر أشد مقاومة للآفات وأغزر محصولا هو (كافيا روبوستا) ، كما أن هنالك نوعا يسمى (كافيا ليبيريكا) نسبة الى جمهورية ليبيريا بغرب افريقيا .

والروبوستا هى التى تغمر الأسواق على الرغم من أنها ليست فى جمال ولا نكهة قهوة الأرابيكا اليمانية الأصل ...

وجاء فى تاج العروس أن (البن) بضم الباء ، كلمة مولدة استعملها أصحاب العقاقير . وقد وردت فى كلام داود الحكيم : قال هو ثمر شجر باليمن يغرس حبه فى آذار وينمو ويقطف فى آب .

فهل المقصود بذلك هو (بن) القهوة؟ تلك مسألة تحتاج الى زيادة فى التحرى والاستقصاء العلمى ...

فنجد الناس بين النيل والخليج ، فى الصحراء الشرقية المصرية (والسودانية) وفى شبه جزيرة سينا وفى فلسطين والأردن وسوريا والعراق والمملكة العربية السعودية واليمن (بشطريها) وعمان والامارات العربية المتحدة وقطر والبحرين والكويت يهتمون بالقهوة

من تاريخ القهوة

أكثر من إهتمامهم بالشاى . بينما نجد العرب فيما بين النيل والمحيط الأطلسى يعنيهم شرب الشاى الممزوج بالنعناع أكثر من القهوة .

وفى البلاد العربية الشاربة للقهوة ، نجد أيضا شيئاً من إختلاف . ففيما بين مصر والسودان ، نجد اخواننا العبابدة والبشاريين ، يضيفون الى قهوتهم الشئ الكثير من التوابل كالقرنفل والقرفة والزنجبيل وحتى الفلفل الأسود . حتى لتكاد قهوتهم أن تكون مرقا !!!

وهم كذلك يختلفون عن بقية العرب ... فإذا أقبل المساء وأناخت القافلة تجد كل رجل يجمع حطبا ويوقد نارا ، ويحمس قهوته ويطحنها ثم يغليها فى (الجبنة) المصنوعة من الفخار أو الصفيح ، ثم يجلس وحده منفردا ليشرب قهوته .

بينما نجد القوم فى غير ديار العبابدة والبشاريين ، يحافظون على شرب القهوة فى جماعة ، ولا يضاف إليها إلا حب الهيل (أو القناد) مع قليل من القرنفل (المسمار) والزعفران . وقد يضيف البعض شيئا من دهن الورد .

وكلما ازداد المرء قربا من الشاطئ العربى للخليج يجد أن نسبة (الهيل) أو (القناد) تزداد فى القهوة . حتى أنك لترى القهوة هنالك صفراء لونها فاقع تسر الشاربين ، بينما هى أصلا سمراء بنية فى ماعدا أقصى المشرق العربى . ويصنع القوم قهوتهم فى وعاء من النحاس الأصفر يسمونه (الدلة) أو (البكرج) وهى صناعة يدوية اشتهرت بها كثير من المدن العربية كدمشق الشام والعقبة فى الأردن وعمان والمنطقة الشرقية من السعودية .

وللقهوة آداب وتقاليد مرعية ...

فلا تتعامل فى شربها إلا بيدك اليمنى أخذا وإعطاء ...

وفى منطقة الخليج خاصة لايتوقف الساقى عن صب القهوة للضيف حتى يعيد له الفنجال الفارغ (بيده اليمنى) بعد هزه عدة مرات . أما فى ماعدا منطقة الخليج فان للضيف ثلاثة فناجيل تباعا ....

وليس من اللياقة أن تملأ فنجال القهوة للضيف أو تضع فيه سكرا . ولقد اكتشف البدوى فى صحرائه بالتجربة والممارسة أمورا تتعلق بشرب القهوة لم يدركها العلم إلا حديثا . ومن ذلك :

١ ــ أن حفظ البن أخضر لمدة طويلة يزيد نضج المواد الفعالة فيه وذلك خير من حفظه محمصا أو مطحونا .

٢ ــ أن شرب كمية القهوة على هيئة جرعات صغيرة متتابعة أفضل من شرب تلك الكمية جرعة واحدة كما يفعل الفرنجة !!

٣ ــ أن تحضير القهوة تحميصا وطحنا وغليا وشربا فى حلقة واحدة أفضل من تباعد العمليات تلك ...

وكان العلماء يظنون الى عهد قريب أن المادة الفعالة فى القهوة هى (الكافائين) أو (القهوين) ولكن أبحاثا تجرى فى أستراليا تشير الى وجود مادة فعالة أخرى لم يتم تحديدها بعد .

ومن عجب أن القوم الذين علموا بقية خلق الله شرب القهوة ، وأولئك هم أهل اليمن يفضلون شرب مغلى (قشور البن) ويقولون إنها أزكى شرابا ... وهنا نعود الى كتاب عمدة الصفوة . ونستزيد منه اقتباسا حيث يقول ....

« إن أول ظهور القهوة بمصر ، فى حارة الجامع الأزهر ، فى العشر الأوائل من القرن العاشر (الهجرى) ، وكانت تشرب فى نفس الجامع (برواق اليمن) كل ليلة اثنين وجمعة ، ويضعونها فى ماجور كبير من الفخار الأحمر ، ويأخذ منها النقيب بسكرجة صغيرة ويسقيها الأيمن فالأيمن » ، ثم يقول بعد سطور : ــ « ثم حدث عليها الإنكار بمكة الشريفة فى سنة سبعة عشر وتسعمائة فقام الأمير (فايربك) بإغراء من الشيخ شمس الدين الخطيب فى مكة المكرمة باصدار أمر بإبطالها ومنع الناس من شربها ، ثم جاء قرار من السلطان بالقاهرة بإباحتها مرة أخرى » ، ثم يقول : ــ « وبلغ الشيخ العارف بالله محمد بن عراق لما قدم الى مكة المكرمة فى ذى القعدة سنة ٩٣٢ ، أنه كان يفعل فى بيوت القهوة (المقاهى) أشياء من المنكرات ، فأشار على الحكام بإبطال بيوتها ، ولكنه لم يقل بحرامها ذاتها ... ولما توفى الشيخ بمكة فى خامس صفر سنة ٩٣٣ رجع الحال لما كان عليه !!! وفى سنة ٩٣٩ أفتى الشيخ شهاب الدين السنباطى الشافعى بحرمتها ... وفى سنة ٩٤١ خرج قوم الى بيوتها وكسروا أوانيها وضربوا جماعة ممن كان هناك ، فقامت لذلك فتنة واحتاج الأمر الى استفتاء ... فأفتى الشيخ محمد بن الياس الحنفى بحلها بعد أن جربها واكتشف أنها لاتضر ولا تسكر ... ولكن حدث سنة ٩٤٥ أن داهم (صاحب العسس) جماعة فى بيوت القهوة واعتقلهم ليلة وأطلق سراحهم بعد أن جلد كل واحد منهم (سبع عشرة) ضربة !!! ثم لم يلبثوا أن ظهر الحق وعاد الحال لما كان عليه أولا ، بعد يومين !!! وفى سنة ٩٥٠ ورد الى مكة المكرمة صحبة ركب الحج الشامى مرسوم من السلطات بمنع القهوة وإبطالها ولكن بيوت القهوة تعددت على غير مبالاة من الولاة وشربت فى تلك السنة جهارا ودام استمرارها !!!

وكذلك منعت بالقاهرة مرارا فلم تطل المدة ، وعلا منارها ، ولم يزل أمرها ظاهرا وتعداد بيوتها وافيا مشتهرا ، ويشربها العلماء والصلحاء وأماثل الفقهاء ويقر عليها أهل الافتاء والتدريس ، ويواظب على شربها من وصف بالفضل وكل رئيس بالجامع الأزهر والبقاع وفى سائر الأيام والأوقات !!! »

هذه مجرد شذرات من تاريخ القهوة . ولاجدال فى أن تاريخها جزء من تراثنا العربى الشعبى ، يحتاج ، الى مؤلف شامل يلم بأطراف قصتها عبر القرون ...

فهل نطمع فى أن يتصدى نفر من الباحثين لكتابة قصة القهوة خلال التاريخ بطريقة جديدة تجمع بين عقلانية العلم ورقة الأدب وجمال الفن ... لو كان الأمر بيدى لمنحت أعلى شهادة جامعية عربية لمن يتصدى لكتابة هذه القصة ولخلعت عليه أرفع الجوائز ...

وهل تطمع فى أن يعود الوطن العربى ، وخاصة فى الركن الجنوبى الغربى لشبه الجزيرة العربية ، الى زراعة القهوة (العربية) الأصيلة ، بدلا من سيطرة غير العرب اليوم على سوق القهوة العالمى ؟؟

ولاننس فى الختام أن نذكر أن للقهوة اليوم (منظمة) تقوم على توزيع انتاجها ، وتجارتها عالميا ، وهى تشبه منظمة (الأوبك) بالنسبة للنفط ، وتسمى منظمة (الايكو) ، وهى نفس المنظمة التى تحكم على كل زيادة فى محصول القهوة (بالاعدام) حرقا أو إغراقا فى أعماق البحار : حتى لاتنخفض أسعارها !!!

درويش مصطفى الفار

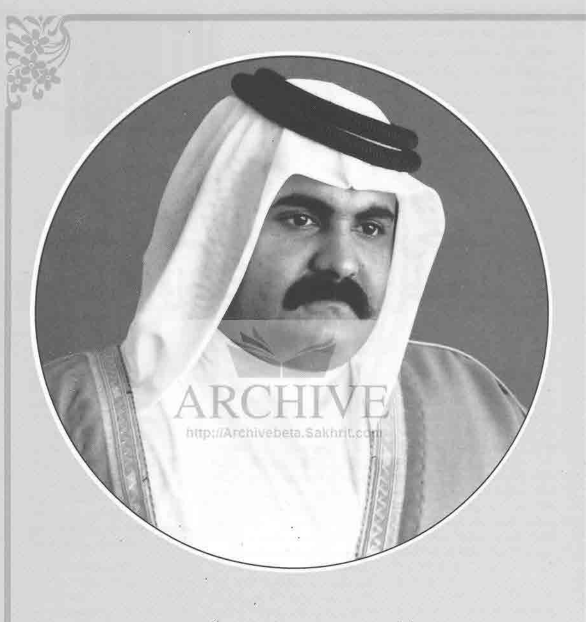


٢٢
إن مسئولية القيام بواجباتنا
تحقيقاً لأهدافنا الوطنية والقومية
مسئولية جماعية يتحملها الشعب
والحكومة جنباً إلى جنب .
ولا يمكن متابعة جهودنا المشتركة
البناءة في سبيل تحقيق تلك
الأهداف إلا بمواصلة ممارستنا هذه
المسئولية ممارسة إيجابية واعية
في جو من التضامن المخلص الذي
يسود بحمد الله مجتمعنا
كأسرة واحدة متماسكة تماسك
البنيان يشد بعضه بعضاً
من كلمات سمو أمير البلاد المفدى
الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني
بمناسبة افتتاح الدور العادي الرابع عشر
لمجلس الشورى "١٤ من صفر سنة ١٤٠٦هـ
الموافق ٢٨ من أكتوبر سنة ١٩٨٥م"
١٤ عاماً على انطلاقة الخير



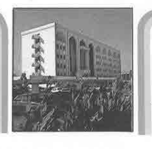
حضرة صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني

أمير دولة قطر



سمو الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني

ولي العهد ووزير الدفاع والقائد العام للقوات المسلحة



٢٢
فبراير

تتميز سياسة قطر الخارجية ، بوضوح مقاصدها وأهدافها ، ناهيك عن وضوح مبادئها ومنطلقاتها ، وتنبع هذه المبادىء والمنطلقات ــ كما حددها حضرة صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني أمير البلاد المفدى ، وكما جاءت خطوطها الرئيسية في النظام الأساسي المؤقت والمعدل للحكم ــ من التزام دولة قطر القومي بوحدة المصير والهدف للأمة العربية وللشعوب الاسلامية ، وتوثيق جسور التعاون والصداقة مع جميع الدول والشعوب المحبة للسلام في المجال الدولي ، على أساس ميثاق منظمة الأمم المتحدة .

سياسة قطر الخارجية نجاح واضح على كل صعيد

على الصعيد الخليجي ، أرسى النظام الأساسي المؤقت والمعدل للحكم ، بدولة قطر دعائم هذه السياسة التي تنطلق من نقطة الارتكاز الطبيعية جغرافيا وسياسيا وتاريخيا وحضاريا ، ألا وهي منطقة الخليج العربي ، الى العمق العربي والبعد الاسلامي فالمجال الدولي .

ومن المرتكز الخليجي هذا ، ثم الارتباط العربي العضوي ، والتضامن الاسلامي ، تتكون الصيغة ، وتتشكل اللغة التى تتحدث بها دولة قطر مع دول العالم ، وتقيم على أساسها علاقاتها بهذه الدول .

وقد حدد سمو أمير البلاد المفدى ، سياسة قطر نحو مجلس التعاون لدول الخليج العربية ، بقوله : « إنه لمما يدعو الى الاغتباط حقا ، أن الجهود التي نبذلها وتبذلها شقيقاتنا دول الخليج العربية الأخرى ، في سبيل إدراك هدفنا المشترك ، في رفع مستوياتنا جميعا ، في كل مجال ، أصبحت بطبيعة الحال ، أكثر فعالية ، وأطيب نتاجا ، منذ أن غدت تلك الجهود ، تتضافر في إطار مجلس التعاون وأنظمته ، من أجل بلوغ الهدف ، وليس من شك في أن ما أنجزه هذا المجلس من خلال التعاون الايجابي البناء بين دوله ، كان الحافز لنجاحه في توطيد أركانه في خدمة غاياته النبيلة الوطنية والقومية والاقليمية والدولية على حد سواء .

المجال العربي

وتنطلق سياسة قطر الخارجية في المجال العربي ، من ايمان الدولة العميق بارتباطها الجذرى والأصيل بتراث الأمة العربية ، والتحامها بمصيرها ومستقبلها . ومن هنا كان حرص هذه السياسة على توحيد المواقف ، وضم الصفوف .. وتجاوز الخلافات الهامشية ، لمعالجة قضايا الأمة العربية ، ومجابهة التحديات الخطيرة التي تواجهها ، وفي مكان الصدارة منها القضية الفلسطينية ، التي توليها دولة قطر كل عنايتها وجل اهتمامها . فلا يكاد خطاب لسمو أمير البلاد المفدى في المناسبات الهامة ، يخلو من الاشارة الى القضية الفلسطينية ، باعتبارها قضية العرب الأولى ، التي تستوجب منهم حشد الطاقات ، وجمع الصفوف ، من أجل استخلاص الحق المهدور في فلسطين العربية ، وقد حدد سمو الأمير سياسة البلاد من القضية الفلسطينية بقوله :

« لقد استقر اجماع العالم على أن قضية فلسطين الشقيقة العربية هي محور مشاكل الشرق الأوسط ، وأن حلها حلا عادلا شاملا هو وحده الكفيل بضمان الاستقرار والأمان في منطقتنا وبالتالى الأمن والسلام الدوليين ، الأمر الذى أصبحت معه هذه القضية تحتل قمة الاهتمامات الدولية . وطبيعى أن تكون هذه القضية ، من باب أولى ، شغلنا الشاغل وأن يكون لها مكان الصدارة في تفكيرنا ، بوصفها قضيتنا العربية المصيرية الأولى » .

من هذا التحديد ، يتضح أن موقف السياسة الخارجية لدولة قطر من القضية الفلسطينية ، انما يقوم على الايمان المطلق بوجوب استرجاع الأراضى العربية المحتلة وفي مقدمتها القدس الشريف ، واسترداد الحقوق الوطنية المشروعة للشعب العربي الفلسطيني ، ومنها حقه في تقرير مصيره ، واقامة دولته المستقلة على أرضه ..

اما بالنسبة للقضايا العربية الأخرى ، فإن السياسة الخارجية لدولة قطر انتهجت على الدوام ، موقف التأييد والداعم لهذه القضايا على الصعيد الدولي ، والدعوة الى التضامن العربي لمساندة هذه القضايا وايجاد الحلول العملية والسريعة لها ، فبالنسبة للبنان الشقيق ، تنبع سياسة قطر الخارجية من الايمان بعروبة لبنان واستقلاله ووحدة أراضيه ، وتسعى الدولة فى هذا المجال ، وبالتنسيق مع دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية ، الى توفير كافة الظروف



سمو أمير البلاد المفدى في اللقاء السادس لقادة مجلس التعاون لدول الخليج العربية الذى عقد في سلطنة عمان



سمو أمير البلاد المفدى الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني مع الرئيس الفرنسي ميتران أثناء الزيارة الهامة لفرنسا ويبدو في الصورة سعادة الشيخ عبد العزيز بن خليفة آل ثاني وزير المالية والبترول ، وسعادة الشيخ أحمد بن سيف آل ثاني وزير الدولة للشؤون الخارجية ، ورئيس الوزراء الفرنسي

والأجواء ، لكي يسترد لبنان وحدته وعافيته ، ولكي يعود لبنان سيرته الأولى ، وطناً للمحبة بين أبنائه ، وواحة للسلام والديمقراطية والتقدم ، وإن من مواطن اعتزاز السياسة الخارجية لدولة قطر وفخرها ، ما تبذله من طاقات وامكانيات لنجدة الشعبين الشقيقين الفلسطيني واللبناني ، في مواجهتهما للعدوان الاسرائيلي الغاشم ، وفي حرصها المخلص على نصرة اخوانها المجاهدين بما يشدّ أزرهم ويخفّف من معاناتهم الناجمة عن الهجمة الصهيونية الشرسة .

وبالنسبة للتضامن العربي ، فان لدولة قطر ، موقف ثابت من هذه المسألة ، حيث تعتبر التضامن العربي ، الباب الذي تدخل منه الأمة العربية الى الوحدة والقوة والنهضة الحقيقية ، وقد أعرب سمو امير البلاد المفدى عن هذا الموقف بقوله : « إننا ونحن نطالب المجتمع الدولي بالقيام بواجبه ، وتحمّل مسؤولياته في الحفاظ على قيمه ومبادئه ، وصون أمنه وسلامته ، لايمكن أنْ نُغفل حقيقة أن خلافاتنا فيما بيننا ، كانت ولا تزال من شأنها أن تؤدي للأسف الشديد ، الى تفككنا على نحو هوّن على اسرائيل مواصلة ارتكاب آثامها ، وعلى المجتمع الدولي السكوت على تماديها اللاإنساني في اقتراف هذه الآثام . »

وفي اطار جامعة الدول العربية ، فإن دولة قطر تلعب دوراً نشطاً ، لترجمة هذا الموقف الى قرارات عملية ، من شأنها استعادة التضامن العربي ، وتجاوز الخلافات الهامشية بين بعض الدول الأعضاء في الجامعة ، من أجل الانصراف الى معالجة القضايا العربية المصيرية والجوهرية .

الساحة الاسلامية

إن أحد الملامح الأساسية لسياسة قطر الخارجية ، هو الملمح الاسلامي ، حيث تؤيد هذه السياسة الى أبعد الحدود قضايا الشعوب الاسلامية الشقيقة باعتبار دولة قطر دولة عربية ، ترتبط بأمتها الاسلامية ارتباطاً وثيقاً تاريخياً ومصيرياً ، وفي هذا المجال قال حضرة صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني : « إن أمتنا الاسلامية ، تنعم بحمد الله بوفرة من مقومات القوة الذاتية التي تتمثل فيما تملكه من الطاقات البشرية والاقتصادية والفكرية والروحية والاستراتيجية ، ولا شك في ان امتلاكها هذه الطاقات ، مايكفل لها اعتلاء المكان اللائق بها في الصف الأول من أمم العالم ، قوةً ومَنعة وارتقاءً . » وقال سموه « إنه ليس هناك من سبيل للنهوض بالأمة الاسلامية إلاّ ، بتضامننا الشامل وتوحيد صفنا ، أداءً لواجبنا المقدس ، واجب الارتفاع الى مستوى مسؤولياتنا العظام ازاء الأخطار الجسام التي تحيط بنا من كل حدب وصوب . »

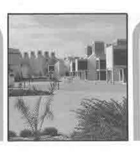
وبالنسبة للنزاع العراقي الايراني ، ترى دولة قطر ـ كشقيقاتها في مجلس التعاون لدول الخليج العربية ـ أن الحرب التي دخلت عامها السادس بين البلدين المسلمين والجارين ، تشكل استنزافاً لطاقاتهما ، وهدراً لاطائل من ورائه لقدرات منطقة الخليج بأسرها ، كذلك دعت دولة قطر وسعت السياسة القطرية على الدوام لوقف هذه الحرب المدمرة ، وعودة علاقات الاخوة والجوار الى العراق وايران .

الساحة الدولية

وعلى صعيد الساحة الدولية ، فإن دولة قطر التزمت على الدوام بمبادئ وأهداف الأمم المتحدة ، وميثاق حركة عدم الانحياز ، وساندت بقوة قضايا الشعوب المقهورة والمستعمرة والمبتلاة بالنظم العنصرية ، وعملت السياسة الخارجية لدولة قطر بثبات على تحرير طاقات الشعوب في العالم الثالث وثرواتها لصالح تقدم ابنائها ونهوض مجتمعاتها . .

زيارات سمو الأمير

وأخيراً .. لا آخراً .. فان الزيارات التي قام بها سمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني لكل من تركيا وبريطانيا وفرنسا ، في العام الماضي ، ثم زيارة الرئيس التركي كنعان ايفرين لدولة قطر في ٢٢ من شهر يناير الماضي ، انما جاءت لتكرس نجاح السياسة الخارجية لدولة قطر ، وتمكنها من بناء علاقات بناءة وايجابية مع هذه الدول الثلاث التي تحتل مواقع مؤثرة على صعيد السياسة الدولية .



لقد شهد بلدنا الحبيب « قطر » فى السنوات الأخيرة ، نهضة حقيقية شاملة ، وقد تجلت مظاهر هذه النهضة فى كل القطاعات والميادين ، فنحن نستطيع أن نلمسها في ميدان الصناعة كما نلمسها في ميدان العمران ، ونستطيع أن نتعرف على ملامحها العامة فى مجال الإدارة والتنظيم بنفس القدر الذى نستطيع أن نتعرف عليها به في مجال الإعلام والعلاقات الخارجية والأنشطة الدولية .

النهضة التربوية التعليمية المعاصرة في قطر

بقلم
الشيخ محمد بن حمد آل ثاني
وزير التربية والتعليم

وليس من شك في أن ميدان التربية والتعليم ، يعد واحداً من أهم الميادين التى تجلت فيها مظاهر النهضة القطرية المعاصرة كأوضح ما تكون . فهذا الميدان دون غيره ، هو الذى يتعلق مباشرة ببناء الإنسان القطرى عقليا ووجدانيا وثقافيا . وقد أدركت « دولة قطر » هذه الحقيقة منذ بواكير نهضتها المعاصرة ، فعمل حضرة صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثانى أمير البلاد المفدى وولى عهده الأمين سمو الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني ، على توفير كافة الإمكانات المادية والمعنوية من أجل تشييد صرح التربية والتعليم على دعائم وأسس راسخة ، حتى يمكن الوصول بالإنسان القطرى إلى ما يستحقه وما يراد له من دور حيوى وفعال فى نهضة بلاده .

وفى سبيل تحقيق هذه الغايات ، قامت استراتيجية التربية والتعليم فى قطر ، على مبادىء هامة أساسية ، تتمثل فى ضرورة مواكبة التطور العلمى والتكنولوجى والثقافى الذى يشهده العالم المتقدم فى الغرب ، والحرص على الاستفادة بثقافات الأمم الأخرى والاطلاع على تجارب الشعوب والانفتاح على كافة الخبرات الدولية المتاحة ، مع مراعاة التقاليد الاسلامية العريقة التى يعيشها مجتمعنا العربى المسلم ، ويتخذ منها مصدرا مباشرا لقيمه ومثله العليا .

وعلى هدى من هذه الاستراتيجية التربوية الشاملة ، مضت مسيرة العمل التربوى فى بلدنا الحبيب ، فاستطاعت فى أعوام معدودة أن تحقق نهضة تعليمية فعلية بالقياس إلى الزمن القصير الذى يشكل عمر هذه المسيرة .

وربما كانت الأرقام أقدر على تجسيد هذه النهضة التعليمية التى تمت فى زمن قياسى ، فبينما نجد أن التعليم بنظمه العصرية المعروفة لم يبدأ فى « قطر » إلا فى مطلع الخمسينيات بمدرسة واحدة وأعداد متواضعة جدا من البنين ، سنفاجأ بأن عدد الطلاب والطالبات فى مراحل التعليم المختلفة قد وصل مجموعه فى العام الدراسى الحالى ١٩٨٥ — ١٩٨٦ إلى ٥٢٧٨٨ طالبا وطالبة ، موزعين على النحو التالى :

- المرحلة الابتدائية : ٣٢١٧٠ تلميذا وتلميذة ، عدد القطريين منهم ١٧٩٥٧ تلميذا وتلميذة ، أى بنسبة ٥٥,٨٪ .

- المرحلة الاعدادية : ١٢٣١٦ تلميذا وتلميذة ، عدد القطريين منهم ٧٨٧٧ تلميذا وتلميذة ، أى بنسبة ٦٣,٩٪ .

- المرحلة الثانوية : ٧٥٩٩ طالبا وطالبة ، عدد القطريين منهم ٤٦٨٨ طالبا وطالبة ، أى بنسبة ٦١,٧٪ .

وفضلا عن ذلك ، فقد تم التوسع النوعى فى عملية التعليم ، فأنشىء المعهد الدينى وأنشئت مدرسة الصناعة ومدرسة التجارة ، التى وصل أعداد طلابها فى العام الدراسى الحالى ١٩٨٥/١٩٨٦ إلى :

- المعهد الدينى : ٤١٤ طالباً من بينهم ١١٩ قطرياً أى بنسبة ٢٨,٨٪ .

- مدرسة الصناعة : ١٧٦ طالباً من بينهم ١٦٥ قطرياً أى بنسبة ٩٣,٨٪ .



احتفالات يوم العلم

• مدرسة التجارة : ١١٣ طالباً من بينهم ٩٢ قطرياً أي بنسبة ٨١،٤٪ .

ويقوم الآن على تسيير هذه الثورة التعليمية الكبرى ٣٨٢٥ مدرساً ومدرسة ، من بينهم ١٤١٣ من القطريين ، ومعهم ١١٨٠ إدارياً وإدارية ، من بينهم ٦٣٤ من القطريين ، فضلا عن ٢٥٢٦ عاملا وعاملة في خدمة مرافق الوزارة المختلفة .

أما عن البعثات التعليمية القطرية في الخارج ، فقد جرى تنظيمها بحيث تلائم تخصصات أعضائها حاجات البيئة ، وقد وصل عدد المبعوثين والمبعوثات في العام الحالي إلى ١٠٠٣ عضواً في البلاد العربية والأوربية ، بينهم ٧٣٥ مبعوثاً و٢١٨ مبعوثة .

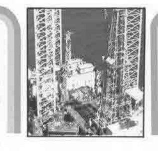
ولاشك في أن مثل هذه العملية التربوية الضخمة نسبيا ، تحتاج إلى إمكانات مادية هائلة ، والدولة تحرص كل الحرص على توفير هذه الإمكانات ، فقد وصلت ميزانية التربية والتعليم للعام الدراسي الحالي إلى ١٠١٢٣٥٨٩٠٠ ريال قطري ، أي أن متوسط تكلفة الطالب بلغت في هذه الميزانية ٢٠٥١١ ريالاً قطرياً في العام .

وفوق ذلك كله ، فقد روعيت شمولية العملية التربوية ، بحيث لا يقتصر التعليم على الصغار المتدرجين من المرحلة الابتدائية إلى الاعدادية إلى الثانوية فحسب ، بل لقد امتد أيضا ليشمل تعليم الكبار ومحو أمية الأميين منهم ، حيث بلغ عدد الدارسين من الكبار في العام الدراسي الحالي ٦٧٥٩ دارساً ودارسة ، من بينهم ٣٩٥٦ من الذكور و٢٨٠٣ من الإناث ، ولعل الاصرار على محو أمية الكبار ، لم يأت إلا من خلال إيمان عميق بحق من فاتهم قطار التعليم في الماضي ، في أن يلحقوا بغيرهم ويدخلوا إلى عالم النور ودنيا المعرفة .

ولم تكن رعاية المعوقين بأقل حظا ، فقد قامت الوزارة على تدريبهم وإعدادهم لمواجهة الحياة بأفضل النظم والأساليب الحديثة ، حتى يتمكنوا من أن يكونوا أعضاء نافعين في مجتمعهم ، قادرين على تجاوز مشكلاتهم وقهر ظروفهم ، وقد أنشئت لهذا الغرض مدرستان ، إحداهما للبنين والأخرى للبنات .

فإذا تركنا ذلك إلى ما حققه التعليم العالي من خلال جامعة قطر من سد الكثير من حاجات البيئة ، وإلى ما تقوم به إدارات الوزارة وأقسامها المختلفة من نشاط متصل في سبيل خدمة العملية التربوية ، من توفير لأحدث الوسائل السمعية والبصرية ومن تدريب مهني ، ومن دار للكتب ومكتبات مدرسية تحرص على تثقيف الطلاب وتزويدهم بما يناسب أعمارهم من مناهل المعرفة ، لعرفنا جانبا آخر من الجهد الكبير الذي تقوم به وزارة التربية لاستكمال أوجه النهضة التربوية المعاصرة ، تحت رعاية حضرة صاحب السمو أمير البلاد المفدى الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني ، وولي عهده الأمين سمو الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني ، جزاهما الله عن وطنهما ومواطنيهما خير الجزاء ، بما قدماه ويقدمانه من رعاية دائمة ودعم متصل للنهضة التربوية التعليمية القطرية .

محمد بن حمد آل ثاني



٢٢ فبراير

تهدف السياسة المالية لدولة قطر إلى تكريس كافة الجهود لمضاعفة برامج التنمية ، وذلك بالتوظيف الأمثل للعائدات البترولية فى الأنشطة الاقتصادية ، بهدف تكوين قاعدة انتاجية متنوعة وموسعة ، تضمن استمرار ونمو الدخل الذي يحقق مردودا أفضل نتيجة للخطوات الهامة التى تخطوها البلاد على سلم الاكتفاء الذاتى .

الملامح الرئيسيّة للسّياسة المَاليّة والبترولِيّة في قطر

والواقع أن الدور الهام الذى تقوم به وزارة المالية والبترول فى دولة قطر يتلخص فى تولى مسؤولية الإشراف على السياسة المالية فى البلاد ، وتوجيه الشؤون البترولية فى الدولة والمساهمة ـ من خلال الصلاحية الواسعة ـ فى موضوع خطط الإنفاق العام وطرق التمويل وبرامج الاستثمار ، ومراجعة مشروعات الميزانية لوزارات ومؤسسات الدولة ومراقبة تنفيذها وإعداد الحساب الختامى لها ، وهذا إضافة إلى تنظيم التعاون الفنى مع المنظمات الدولية المتخصصة ، ورعاية الحقوق المترتبة للدولة ، وتنفيذ التزاماتها المرتبطة بها فى معاملاتها الدولية .

ومن واقع هذا الدور نجد أن تفاصيل بيان الموازنة العامة لدولة قطر الذى أصدره معالى الشيخ عبدالعزيز بن خليفة آل ثانى وزير المالية والبترول فى ٢٤ ابريل ١٩٨٥ ، يوضح أهم المرتكزات الأساسية والملامح الرئيسية للميزانية ، التى قدمت ـ فى مجملها ـ خلال العام الماضى رؤية دقيقة للواقع الاقتصادى وأثر الاقتصاد العالمى عليه ، وكيف تأثر دخل الدولة من البترول ـ السلعة الرئيسية ـ نتيجة للعرض والطلب وانخفاض الأسعار بسبب التخمة النفطية وعوامل أخرى عديدة ..

وقد روعى فى تلك الموازنة عند إعدادها ـ فى ذلك الوقت ـ أن يكون تقدير أرقامها على أسس واقعية ، تقوم على التحفظ فى تقدير الإيرادات وضغط النفقات وترشيدها دون الإخلال بمستوى الخدمات والإنتاج ، مع تنشيط القطاع الخاص .. إدراكا من الدولة لما لذلك من أهمية قصوى على مسيرة الاقتصاد القطرى ..

ويمكننا أن نلخص أهم بنود الموازنة العامة (١٤٠٥/ ١٤٠٦ هـ) فى التالى :

• بلغت الإيرادات الحكومية المقدرة ٩٧٣٧ مليون ريال في حين بلغت المصروفات العامة المقدرة ١٥،٦٠٧ مليون ريال ، يضاف إليها التزامات خارج الموازنة مقدرة بمبلغ ١٤٤١ مليون ريال .

• أولت الحكومة المشروعات الرئيسية العامة عناية خاصة ، باعتبارها المحرك الرئيسى لعجلة الاقتصاد الوطنى ، فتم رصد مبلغ ٣٨٠٠ مليون ريال لتلك المشروعات ، يضاف إليها مشروعات خارج الموازنة تبلغ قيمتها ١٣٤١ مليون ريال للمؤسسة العامة القطرية للبترول والشركات والمؤسسات المساهم بها وقروض للاسكان وقروض عقارية ، وبذلك يصبح الاجمالى ٥١٤١ مليون ريال .

• روعى فى تحديد مخصصات المشروعات الرئيسية توزيعها على عدد كبير من المشروعات التى تخدم البيئة القطرية من ناحية ، وأن تكون عاملا مساعدا على تنشيط الحركة الاقتصادية فى البلاد من ناحية أخرى ، حيث تم التركيز على المشروعات التى لا تحتاج إلى تخصصات أو خبرات نادرة حتى تكون الأولوية فى تنفيذها للمقاولين المحليين .

• حظيت كافة الأنشطة المختلفة فى الدولة من اسكان ومبان عامة وصحة وتعليم وطرق ونقل ومواصلات وكهرباء ومياه وزراعة وصناعة وأمن ودفاع بالاهتمام البالغ حيث رصد لكل نشاط ما يناسبه من اعتمادات ، استكمالا لمشروعات تحت التنفيذ ، أو ابتداء لمشاريع جديدة ذات أولوية ، إضافة لمشاريع التنمية والتطوير التى تشهدها البلاد منذ سنوات .

السياسة البترولية

إن الاقتصاد القطرى يعتمد أساسا على استغلال البترول والغاز الطبيعى ، وما يدور حول ذلك من صناعات تكميلية ..

والسياسة التى تتبعها البلاد فى هذا المجال هي سياسة بترولية وطنية بتوجيه من سمو

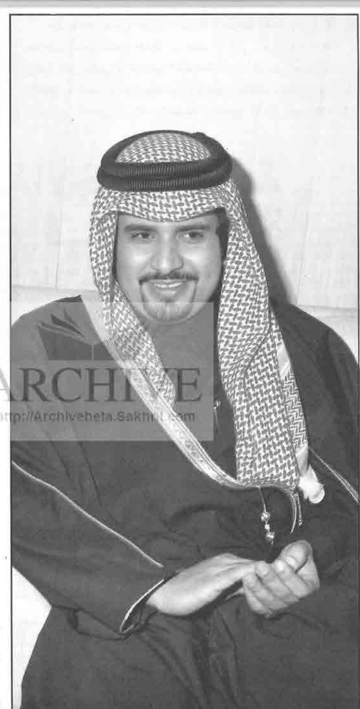
أمير البلاد المفدى الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني..

فمنذ أن أصدر قائد المسيرة قراره التاريخي الذي يقضي بالسيطرة الوطنية الكاملة على ثروات البلاد الطبيعية وعلى رأسها البترول والغاز الطبيعي . حظي قطاع البترول بأهمية خاصة في مجال بناء الاقتصاد السليم الذي يعتمد على أنجح الوسائل من المصادر البشرية والموارد الطبيعية التي نملكها .

وقد استهدفت السياسة النفطية في دولة قطر في السنوات الأخيرة إنشاء الشركات الوطنية ومشروعات المنتجات البترولية من أجل رفع مستوى معيشة المواطنين والانطلاق السريع بمناهج التنمية الشاملة لتواكب ركب التقدم العالمي في مجال التصنيع .. كما أدت تلك السياسة الرشيدة الى قيام الصناعات التكميلية كالتكرير والأسمدة الكيماوية والغاز الطبيعي وتصنيعه ومجمع البتروكيماويات ومشروع حقل الشمال للغاز الطبيعي . وهذا إضافة الى حرص دولة قطر على تنمية الثروة البترولية بتشجيع عمليات البحث والتنقيب لتحقيق المزيد من الخير والرخاء .

وقد شهدت أوضاع صناعة النفط والغاز في دولة قطر في مطلع عام ١٩٨٤ ونهايته حدثين ايجابيين بارزين تمثل أولهما في إنشاء مصفاة مسيعيد بطاقة انتاجية قدرها ٦٣ ألف برميل يوميا : أما الحدث الثاني فقد تمثل في البدء بتنفيذ مشروع حقل الشمال بهدف استغلال احتياطياته الكبيرة من الغاز الطبيعي . وقد كان من ثمار الإنجاز الأول تحقيق الاكتفاء الذاتي من المنتجات البترولية . إضافة الى أن المصفاة توفر فائضا للتصدير الخارجي .. أما الانجاز الثاني وهو حقل الشمال فهو يعتبر أكبر تجمع منفرد للغاز الطبيعي غير المصاحب يتم اكتشافه حتى وقتنا الراهن : وهناك جهد متواصل يبذل الآن لتنفيذ هذا المشروع الحيوي الهام الذي سيكون دعامة جديدة للاقتصاد الوطني ، وضمانا لمستقبل البلاد وخيرها ، فالمرحلة الأولى من انتاج هذا المشروع ، من المتوقع أن تبدأ في نهاية عام ١٩٨٨ ..

ومن كل ذلك وغيره تتضح أمامنا معالم السياسة البترولية لدولة قطر ، التي تركز على خطط التنمية في البلاد وتكريس جزء من الدخل القومي للبحوث التقنية ، من أجل تطوير المجتمع وترشيد استهلاكه : وتطوير وتعميق أواصر التنسيق والتعاون على كافة المستويات العربية والإسلامية والدولية ، حتى يتحقق للبلاد ما تهدف إليه من خير لأبنائها وخير للعالم أجمع .



سعادة الشيخ عبدالعزيز بن خليفة آل ثاني وزير المالية والبترول

٢٢
فبراير



منذ بداية المسيرة المباركة المشرقة فى دولتنا الفتية بقيادة حضرة صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثانى أمير البلاد المفدى ، ودولة قطر تمضى فى خططها الطموحة ألتى تركز على أهمية تحقيق التنمية الاقتصادية والإجتماعية وتوجيه الطاقات البشرية والمادية من أجل تحقيق الارتقاء والنهضة والتطور الأمثل فى البلاد .



التّنمية الاجْتماعِيّة في مَسِيرة التطوّر وَالنهْضة

بقلم : علي بن أحمد الأنصاري
وزير العمل والشئون الاجتماعية

لقد أولت دولة قطر قدرا كبيرا من الاهتمام للتنمية الاجتماعية ، باعتبارها من المعالم الرئيسية فى التقدم والتطور ، فقامت وزارة العمل والشؤون الاجتماعية بتوظيف كافة الإمكانات والوسائل الحيوية الكفيلة بانطلاق الطاقات البشرية والقدرات المادية إلى أقصى حد ممكن . محققة بذلك خطوات هامة جديدة من أجل توفير شتى الخدمات الإجتماعية للمجتمع القطرى الكريم .

وإذا مانظرنا إلى ماتم خلال السنوات الماضية من أجل توفير كافة الخدمات الاجتماعية لكل مواطن ومقيم على أرضنا الطيبة ، لوجدنا أنه — وبكل المقاييس — يعتبر عملا قياسيا . استهدف فى المقام الأول والأخير تحقيق كل مايمكن تحقيقه فى المجال الاجتماعى حتى يواكب المواطن القطرى تطورات هذا العصر . وحتى تنطلق كل طاقات الإنتاج لتساهم بدورها الهام فى كافة مجالات النهضة والتطور التى تجرى فى البلاد .

ومنذ البداية ، كان لزاما علينا أن نهتم بتطوير أجهزة الوزارة حتى تواكب هذا التحول الاجتماعى الكبير ، وحتى تتمكن من ملاحقة المتطلبات الجديدة فى المجال الاجتماعى .

ومن واقع هذا الإهتمام المتزايد بعمليات الاصلاح الإدارى والتنمية الادارية ، تم تطوير إدارات الوزارة وتعزيز الأقسام التابعة لها ووضع الضوابط الكفيلة بتنظيم سير العمل فيها ، وكان صدور القانون رقم (٨) لسنة ١٩٨٢ هو التتويج القانونى لتنظيم وزارة العمل والشؤون الإجتماعية بتحديد أهدافها وصلاحيتها ونظامها الداخلى ، بصورة تكفل تيسير وتنسيق العمل الادارى فى الوزارة حتى تقوم بمسئولياتها على أكمل وجه .

توفير القوى العاملة

لقد أولت الدولة اهتماما خاصا بشؤون العمل والعمال ، وأصدرت عدة قوانين وتشريعات لخدمة المواطنين على مختلف مستوياتهم وتأمين حياة آمنة ومستقرة لهم ، ولهذا اهتمت الوزارة بإنشاء إدارة العمل لتوفير القوى العاملة فى البلاد وتدعيم العلاقات الودية بين العمال وأصحاب الأعمال ، وأصبحت تلك الإدارة مكونة من ثلاثة أقسام : قسم الاستخدام الذى يصدر بطاقات العمل وترشيح العمال فى الشركات والمؤسسات العاملة فى البلاد .. وقسم السلامة والصحة المهنية الذى يقوم بالتفتيش الدورى على المؤسسات والشركات العاملة فى البلاد للتأكد من سلامة العمال وصحتهم ضد أمراض المهنة ووسائل الوقاية من مخاطر العمل ، ويتم ذلك — بالطبع — بالتعاون مع الجهات المختصة فى وزارة الصحة .. ثم قسم التفتيش العمالى الذى يقوم بالعمل على حل القضايا والمنازعات العمالية وفقا لأحكام قانون العمل ، ويقوم بتنظيم طلبات استقدام العمالة العربية والأجنبية التى بلغت فى العام الماضى ٢٤١٦ طلبا ، وفى إطار احتياجات البلاد من تلك العمالة ، عقدت الوزارة خمس اتفاقيات للتعاون الفعال بين قطر وشقيقاتها العربيات وذلك مع مصر وتونس والمغرب والسودان والصومال .. أما بالنسبة لطلبات إعارة العمال

من مؤسسة إلى أخرى فيتم ذلك طبقا لقانون تنظيم دخول إقامة الأجانب في قطر.

الرعاية الاجتماعية

ومن منطلق ايمان دولة قطر بأن الاصلاح الاجتماعي هو ركيزة التطور الحضاري، أصبحت المفاهيم والمبادىء الاجتماعية التي تم إرساؤها في البلاد بمثابة ثورة في التشريع الاجتماعي، بحيث وضعت وطننا الغالي في مقدمة الدول التي توفر لمواطنيها قسطا موفورا من الخدمات والرعاية الاجتماعية.

وقد بلغت جملة مبالغ المساعدات الاجتماعية التي قدمتها الوزارة في العام الماضي حوالي ٧٩ مليون ريال شملت ٧٠٥٠ حالة، كما أن المكتبين الفرعيين والمراكز الاجتماعية التابعة لهما في كل من مدينتي الخور والشمال يقومان بتنفيذ سياسة الوزارة وتقديم الخدمات الاجتماعية للمواطنين في أماكن اقامتهم الدائمة.

وقد زود قسم المساعدات الاجتماعية بالمحققين والمحققات ذوي الكفاءة، وأنشىء مركز التدريب والتأهيل الاجتماعي للسيدات القطريات.. وانتشرت في كل انحاء البلاد مكاتب الخدمات الاجتماعية ومراكز التدريب على الحرف والمهارات للمرأة القطرية التي لم تنل حظا وافرا من التعليم، وذلك لرفع كفاءتها واعدادها للمساهمة في مسيرة النهضة والتنمية. وقد تم تخريج الدفعة الثالثة بالنسبة لمركز الدوحة والدفعة الثانية لمركزي الخور والشمال، وأقيمت المعارض لعرض إنتاج الخريجات وتسويقها، ولاقت تلك المعارض إقبالا من قبل المواطنات.

وحتى يتم تحسين مستوى الأداء لخدمة الرعاية الاجتماعية التي تقدمها الدولة للفئات المحتاجة كالأرامل والمطلقات والأيتام والمعوقين والعجزة وغيرهم، اهتمت الوزارة بتدعيم الجهاز الوظيفي والاداري المشرف على خدمة الرعاية الاجتماعية. كما تعاونت الوزارة مع بعض المواطنين من ذوي المكانة المرموقة المتطوعين بإنشاء جمعية لرعاية المعوقين لكي توفر لهم أكبر قدر من الرعاية الصحية والاجتماعية والنفسية.

الإسكان الشعبي

ومن أجل تحقيق الاستقرار للمواطنين وفرت الدولة للمواطن القطري المسكن الصحي المناسب، وبحيث يلائم حجم أسرته وتقاليدها وعاداتها الاجتماعية. وقد قامت إدارة الاسكان الشعبي في الوزارة بدورها في هذا المجال الهام بتطبيق قانون الانتفاع بنظام المساكن الشعبية لذوي الدخل المحدود، إضافة إلى دراسة الحالة الاجتماعية. وتقوم الدولة بتقديم عدة تسهيلات ومزايا للمواطنين تتمثل في منح المنتفع قطعة أرض بدون مقابل وقرض بدون فوائد، يسدد المنتفع قيمته على أقساط تتراوح مدتها مابين ٢٠ ـ ٢٥ سنة حسب دخل المنتفع، بالإضافة إلى إعداد الخرائط والإشراف والتنفيذ وتوصيل كافة الخدمات الضرورية كالكهرباء والماء والمجاري والهاتف بدون مقابل وإعطاء منحة للتأثيث قيمتها عشرون الف ريال قطري.. وقد بلغت المساكن التي وزعت خلال العام الماضي ٥٥٩ مسكنا شعبيا بالمجان، وبلغت المساكن الشعبية والمجانية التي قيد الإنشاء حاليا والتي ستوزع قريبا ٦٣٥ مسكنا.

وفي مجال التعاونيات تولي الدولة اهتماما كبيرا بالحركة التعاونية في البلاد وتقدم المساعدات الممكنة لها، كما تقوم بالدعوة لإنشاء وتأسيس جمعيات تعاونية جديدة في كافة المناطق، ونتيجة لتلك السياسة انتشرت هذه الجمعيات في أماكن عديدة وأصبح عددها هذا العام عشر جمعيات تعاونية تعمل بكل طاقاتها لتقدم خدماتها للجمهور. ويجري العمل الآن في تحضير جمعية الهلال في منطقة النعيجة وتحضير جمعية أخرى في الوكرة.

العلاقات الدولية

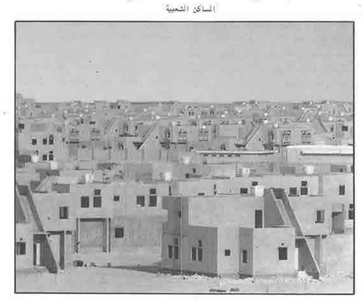
وتسعى الوزارة من خلال مشاركتها في اللقاءات العربية والدولية إلى إسماع صوت قطر إلى العالم الخارجي من خلال التواجد والمشاركة في المؤتمرات والندوات والحلقات الدراسية واللجان التي تقع ضمن اختصاصها. وتحرص على الاستفادة من هذه اللقاءات وما تتيحه من فرص للاطلاع على تجارب الدول الأخرى في مجالات العمل والشؤون الاجتماعية والإسكان الشعبي والتعاونيات..

وقد انضمت دولة قطر إلى العديد من الهيئات والمنظمات العربية والدولية العاملة في المجال الاجتماعي، وشاركت الوزارة خلال العام الماضي في عدة مؤتمرات واجتماعات هامة. كما أن هناك تعاونا مثمرا ومستمرا بين أجهزة الوزارة وغيرها من الجهات العالمية، من أجل التشاور والبحث والاطلاع والدراسة في كل مايفيد الأجهزة المعنية.

ومن كل ذلك وغيره نجد أن وزارة العمل والشؤون الاجتماعية تقوم بدورها الحيوي في البلاد في ظل رعاية وقيادة قائد المسيرة حضرة صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني أمير البلاد المفدى، وولي عهده الأمين سمو الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني، ونسأل الله جميعا أن يوفقنا لخدمة هذا البلد الغالي.

علي بن أحمد الأنصاري

المساكن الشعبية





٢٢ فبراير

بدأت الدولة العصرية فى قطر بتولى حضرة صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثانى أمير البلاد المفدى مقاليد حكمها فى ٢٢ فبراير عام ١٩٧٢م ، بعد أن كان قد تم استقلالها فى ٣ سبتمبر عام ١٩٧١ ، فقد بدأ المجتمع القطرى بعد هذين الحدثين خطوات التحول الى مجتمع حديث .. فمقومات الدولة كانت قد توفرت فى المجتمع القطرى منذ منتصف القرن التاسع عشر وكانت المؤسسات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية قائمة وموجودة ، ولكنها كانت فى مرحلة النمو وفى حاجة الى مايدفعها الى مسايرة العصر والعمل بخطى توائم متطلباته .

الصحافة القطرية في ركب التقدم

بقلم : عبد الله صادق
مدير إدارة المطبوعات والنشر

وسوف نقصر حديثنا هنا على احدى مؤسسات المجتمع القطرى وهى الصحافة لنرى ماحققته من تطور خلال سنوات باعتبار أنها مرآة المجتمع ، تنعكس عليها وتظهر فيها جميع متغيراته ، ولنرى من خلالها مالحق المجتمع القطرى من تقدم خلال تلك الفترة .

ولقد بدأت الصحافة خطواتها الأولى عام ١٩٦١ صحافة حكومية وشبه حكومية ، فقد صدرت فى ذلك التاريخ مجلة « المشعل » عن شركة نفط قطر ، وكانت عبارة عن نشرة تهتم بشئون البترول . وفى عام ١٩٦٤ صدرت مجلة « تجارة قطر » عن غرفة تجارة قطر ، وكانت أيضا نشرة تحمل أخباراً اقتصادية .

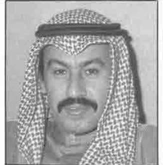
وفى عام ١٩٦٩ صدرت مجلة « الدوحة » وكانت أشبه بنشرة تهتم ببرامج الاذاعة والتلفزيون . وفى عام ١٩٧٠ صدرت أول مجلة أهلية باللغة العربية هى مجلة « العروبة » وكانت بدايتها قوية إذ عالجت موضوعات سياسية واجتماعية وثقافية متنوعة ، وصدرت فى نفس العام مجلة « جلف نيوز » باللغة الانجليزية عن نفس الدار التى تصدر « العروبة » وكانت تحمل أخبارا محلية وعربية وعالمية وبعض الأبواب . وفى نفس العام صدرت مجلة « التربية » عن اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم التابعة لوزارة التربية والتعليم وكانت على شكل نشرة تهتم بشئون التعليم .

وفى حقبة السبعينات وماتلاها تضافرت عدة عوامل محلية وخارجية لتلقى بانعكاسها على الصحافة القطرية كماً ونوعاً ، شكلاً ومضموناً ، فقد شهدت أوائل السبعينات الانسحاب البريطانى من منطقة الخليج العربية واستقلال قطر فى ٣ سبتمبر عام ١٩٧١ ، كما تولى حكمها فى ٢٢ فبراير من العام الذى تلاه حضرة صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثانى والذى يؤمن ايمانا عميقا برسالة الصحافة ودورها الذى طالما مد إليها يد المعاونة والمساندة والتشجيع ، والذى بدأ بناء قطر الحديثة على أسس من التخطيط السليم والتنويع لمصادر الدخل والاستغلال الأمثل لثروات البلاد وما نتج عن ذلك من حركة اقتصادية ناشطة ، كذلك بدأت طلائع المتعلمين من أبناء البلاد يتولون قيادة العمل فى جميع المجالات ، وأنشئت الجامعة وانتشرت معاهد التعليم فى جميع التخصصات فى أنحاء قطر ، كما صدر أيضا فى تلك الفترة قانون المطبوعات والنشر رقم (٨) لسنة ١٩٧٩ الذى أرسى القواعد للحرية المسئولة للصحافة القطرية .

وفى عقد السبعينات أيضا حدث أول انتصار للعرب على اسرائيل فى حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ والذى شاركت فيه دول الخليج العربية بسلاح البترول والذى أصبح بعدها سلاحاً له ثقله فى موازين السياسة العالمية ، كذلك بدأت الدول الصناعية فى نفس الفترة حربا اقتصادية مضادة تستهدف تحجيم دور النفط وأثره على مجريات السياسة الدولية ، بل إن الأمر تعدى ذلك الى التهديد باحتلال آبار البترول فى الخليج .

وفى هذا العقد ــ أيضا ــ اشتعلت الحرب الأهلية اللبنانية ، ورأينا عقب ذلك الحرب بين الشقيقتين المسلمتين العراق وايران ، وكان لابد لتلك العوامل أن تؤثر فى الصحافة فتطور ماكان قائما وظهر جيل جديد منفعل بتلك الأحداث مستوعباً لابعادها متفاعلا معها .

وفى خلال فترة السبعينات ظهرت فى دولة قطر أربع صحف يومية هى جريدة العرب



عيسى غانم الكوارى
وزير الاعلام



محمد عبد الرحمن الخليق
وكيل وزارة الاعلام



الصحف والمجلات القطرية

والراية والجلف تايمز والخليج اليوم . كما صدرت حوالى إثنتى عشر مطبوعة صحفية مابين أسبوعية وشهرية وفصلية ، الى جانب ماكان قائما من قبل ، وهى الدوحة والتربية والمشعل وتجارة قطر والعهد والجوهرة وأسواق الخليج وديارنا والعالم والأمة والصقر والدورى ومجلة الريان ومجلة قطر الطبية وصوت الجامعة ومجلة الجامعة ومجلة الشئون البلدية ومطبوعة هذه قطر ودليل المرشد ومجلة أخبار الأسبوع التى ستصدر بمشيئة الله خلال الأيام القادمة .

وتتميز بعض تلك المجلات باتجاهها للتخصص سواء فى الثقافة أو الشوءون الدينية أو غير ذلك فمجلة الدوحة أدبية فكرية،ومجلة الأمة تعالج الشئون الاسلامية،وأسواق الخليج وتجارة قطر تعالج الشئون الاقتصادية والجوهرة مجلة نسائية والمشعل وديارنا والعالم متخصصة فى شئون البترول والصقر والدورى مطبوعات صحفية رياضية ومجلة صوت الجامعة والجامعية تعالجان شئون الجامعة ومجلة الشئون البلدية تتعرض لشئون البلديات ومجلة الريان مجلة علمية ومجلة قطر الطبية تتعرض لشئون الطب والعلاج ومطبوعة هذه قطر ودليل المرشد تقدم معلومات سياحية .

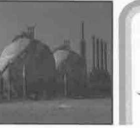
ومن الظواهر التى لمسناها خلال السنوات الماضية خروج الصحافة القطرية من النطاق المحلى الى النطاق الخليجى العربى الاسلامى ، أبرز مثال على ذلك مجلة الدوحة والأمة والصقر والتى توزع كل واحدة منها فى جميع أنحاء الوطن العربى والعالم الاسلامى ، ويتلهف القراء على اقتنائها لما تحمله من مادة فكرية متميزة . كذلك ارتفاع أرقام توزيع هذه المجلات بصورة متناسبة بحيث أصبحت كل منها توزع حوالى مائة الف نسخة شهريا . كذلك مالحق المطبوعات الصحفية التى كانت تصدر قبل الفترة التى نتحدث عنها من تطور ، فمجلة الدوحة التى كانت أشبه بنشرة لبرامج الاذاعة والتلفزيون أصبحت ملتقى الابداع والفكر فى العالم العربى ومنبرا رفيعا لأبرز أدباء وشعراء وعلماء ومفكرى لغة الضاد ، ومجلة المشعل التى كانت نشرة للعلاقات العامة أصبحت مجلة متخصصة تتوافر فيها كل مقومات المطبوعة الصحفية من حيث الشكل والمضمون . ويصدق ذلك بالنسبة لمجلة التربية .

وقد لحقت الأجهزة التحريرية والفنية العاملة فى الصحف عدة تطورات . فلقد كانت الصحف تعتمد فى بدايات النشأة على عدد محدود من المحررين المتفرغين بينما كان الاعتماد الأكبر على محررين غير متفرغين وأصبح الآن لكل مطبوعة صحفية جهازها التحريرى المتفرغ .

وبينما كانت غالبية المطبوعات الصحفية تقوم بطباعة أعدادها فى المطابع الأهلية الموجودة فى البلاد أصبح الآن لكل مطبوعة صحفية مطابعها الخاصة والتى تستورد لها بصفة مستمرة أحدث آلات الطباعة . كذلك فإن طرحها للمسائل. والقضايا التى تهم الوطن والمواطن أصبح يتسم بجرأة التناول .

وبعد أن كانت مؤسسات إصدار الصحف منشآت صغيرة الحجم ضئيلة رأس المال أصبحت الآن مؤسسات كبيرة تحتوى الى جانب إصدارها للصحف على شركات للاعلان والتوزيع .

ومما يجدر ذكره فى النهاية أن الصحافة وإن كانت قد نشأت حكومية إلا أنها أصبحت الآن صحافة أهلية . فالقطاع الخاص هو الذى يتولى اصدار غالبية المطبوعات الصحفية ، وقد كان ذلك حافزا للصحافة لكى تكون موصلا حيا لنبض المواطن القطرى ومعبراً أمينا عما فى صدره وحافزاً حضاريا لكل مسئول كى يؤدى واجبه فى سبيل رفعة وطننا العزيز.



٢٢ فبراير

يمثل حقل الشمال ـــ الذى تم اكتشافه فى السنوات الأخيرة ـــ أكبر تجمع منفرد للغاز الطبيعى فى العالم حتي الآن ، حيث تقدر احتياطياته المثبتة بحوالى مائة وخمسين ترليون قدم مكعب (٤,٢ ترليون متر مكعب) من الغاز الطبيعى غير المصاحب ، أى الذى لايرتبط انتاجه بانتاج النفط الخام ، كما أن الاحتياطيات المحتملة لانتاج حقل الشمال من الغاز الطبيعى غير المصاحب تقدر حاليا بحوالى ثلاثمائة وثمانين ترليون قدم كعب ، « ١٠,٧ ترليون متر مكعب » .

مُستقبَل الغاز الطّبيعيّ في قطر

بقلم : الدكتور محيى الدين على عشماوي

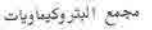
تتقدم دولة قطر دول العالم قاطبة فى أكبر مشروع حيوى لانتاج وتصنيع الغاز الطبيعى ، أحد مصادر الطاقة فى عصرنا الحديث ، والذى لاغنى لدول العالم عنه ـــ بجانب مصادر الطاقة الأخرى ـــ فى تنمية صناعاتها ، وتغذية مشروعاتها على مدى السنوات القادمة .

ويرجع تاريخ اكتشاف حقل الشمال إلى عام ١٩٧١م حيث تم اكتشافه فى مجال عمليات الاستكشاف والتنقيب عن النفط الخام والغاز الطبيعى وانتاجهما واستغلالهما فى التصدير والصناعات الهيدروكربونية للحصول على العائد والدخل القومى الذى يستخدم فى تنمية اقتصاديات البلاد وتحقيق طموحات وآمال الشعب القطري والأجيال المقبلة فى التقدم والرفاهية والازدهار ، وبناء دولة قطر الحديثة ودعم مسيرتها بين دول العالم على قدم وساق .

ويقع حقل الشمال فى المنطقة البحرية الواقعة إلى الشمال الشرقى من دولة قطر . وتبلغ مساحة هذا الحقل (٦٠٠٠) ستة آلاف كيلومتر مربع (حوالى ٢٣٠٠ ميل مربع) . وقد تم اكتشاف الغاز الطبيعى غير المصاحب فى مساحة هذا الحقل فى إحدى الطبقات التى تقع تحت البحر فى الأعماق والتى يطلق عليها اسم (طبقة الخف) .

وقبل أن نتطرق إلى بيان طرق وكيفية استغلال حقل الشمال ، يجدر بنا أولا أن نتعرف على أهمية الغاز الطبيعى كمصدر عالمي للطاقة ومستقبل هذا المصدر فى القرن الحالى والقرن القادم .

ومن المعروف أن استعمال الغاز الطبيعى كمصدر للطاقة المقارنة مع النفط قد بدأ متأخرا بعض الوقت ، نظرا لما كان يلاقيه من مشاكل خاصة بعمليات النقل والتخزين ، وهذه كانت عمليات فنية معقدة وتحتاج إلى تكاليف كثيرة نسبيا إذا ماقورنت بعمليات نقل وتخزين النفط الخام ، إلا أن الأمر قد تغير والحال قد اختلف منذ أمكن فنيا التغلب على هذه المشاكل والقيام بعمليات تسييل الغاز الطبيعى ونقله فى أنابيب عبر شبكات ضخمة تقطع مسافات طويلة بين القارات المختلفة بريا وبحريا كما هو الحال الآن بالنسبة لنقل الغاز الطبيعى المسال من سيبيريا فى الاتحاد السوفيتى إلى أوروبا الغربية بأنابيب برية ، ونقل الغاز الطبيعى المسال من الجزائر إلى ايطاليا بأنابيب بحرية تمر فى قاع البحر الأبيض المتوسط .


مجمع البتروكيماويات





خريطة توضح موقع حقل الشمال

كما أن ارتفاع أسعار النفط بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ واستمرار هذا الارتفاع بالنسبة لسعر البرميل من النفط الخام والذى وصل فى وقت من الأوقات إلى ٣٤ دولارا للبرميل الواحد ، هذا الارتفاع ، دفع الدول المستهلكة للنفط والشركات الموزعة له إلى الاهتمام بالغاز الطبيعى والتحول إلى انتاجه واستغلاله كمصدر ثان للطاقة أرخص من النفط الخام ، وذلك بجانب مصادر الطاقة البديلة الأخرى ، كالفحم والطاقة الشمسية والطاقة النووية التى بذلت جهود كبيرة وأموال طائلة فى الأبحاث الخاصة بها بغرض التقليل من الاعتماد على النفط الخام كمصدر رئيسى للطاقة . وهكذا بدأ دخول الغاز الطبيعى كمصدر هام من مصادر الطاقة ، وبدأ انتاجه على مستوى كبير واستغلاله ، وأصبح يغطى مايقرب من خمس احتياجات الطاقة العالمية ، ثم تزايدت الحاجة إلى استخدامه من القطاع الصناعى والقطاع التجارى وقطاع الاسكان وتوليد الكهرباء وغير ذلك من القطاعات التى يستخدم فيها الغاز الطبيعى فى تغذية البتروكيماويات وانتاج الطاقة .

وتبين الاحصائيات عن تطور استخدام الغاز الطبيعى وتزايد الاعتماد عليه كمصدر للطاقة مايلى :

١ ـ الولايات المتحدة الأمريكية وقد تزايد استعمال الغاز الطبيعى فيها إلى نسبة ٢٨ ٪ بالنسبة لقطاع الاسكان ، وإلى ٢٩ ٪ بالنسبة لقطاع الصناعة ، وإلى ١٦ ٪ بالنسبة لقطاع توليد الكهرباء . ويقدر إجمالى ماتستهلكه من الغاز الطبيعى سنويا مايقرب من ٥٧٠ بليون متر مكعب .

٢ ـ اليابان : ويقدر اجمالى ماتستهلكه سنويا من الغاز الطبيعى كمصدر للطاقة حوالى ٢٦ بليون متر مكعب ، تستخدم منها نسبة ٧٠ ٪ فى توليد الكهرباء ، ونسبة ٣٠ ٪ فى قطاع الصناعة والقطاع المنزلى والقطاع التجارى .

٣ ـ دول أوروبا الشرقية : ويقدر اجمالى ماتستهلكه سنويا من الغاز الطبيعى حوالى ٤٦٠ بليون متر مكعب ، تستخدم فى قطاع الاسكان والصناعة وتوليد الكهرباء .

٤ ـ دول الشرق الأوسط : ويقدر اجمالى ماتستهلكه من الغاز الطبيعى سنويا بحوالى ٣٩ بليون متر مكعب ، تستخدم فى الاستعمال المنزلى وتوليد الطاقة الكهربائية وتحلية مياه البحر والوقود الصناعى والصناعات البتروكيماوية وصناعة الأسمدة وتسييل الغاز .

وتتضح أهمية الاعتماد على الغاز الطبيعى فى القطاع الصناعى إذا ماعلمنا أنه يستخدم كلقيم تصنيع فى انتاج الأسمدة كالأمونيا واليوريا ، كما يستخلص منه البروبان والبيوتان ، والتى تستعمل كوقود أو كلقيمات صناعية لصناعة البتروكيماويات والبلاستيك والمطاط الصناعى وغيره ، كما يستخدم الغاز الطبيعى لانتاج الألومنيوم والحديد والفولاذ والاسمنت والزجاج ، وكوقود فى توليد الكهرباء ، وفى مصافى البترول ومحطات ازالة ملوحة مياه البحر بالاضافة إلى الاستعمالات فى القطاع المنزلى بغرض التبريد والتدفئة والطهى وغير ذلك .

ولقد تطورت وسائل نقل الغاز الطبيعى المسال من مناطق انتاجه إلى مناطق استهلاكه واستخدامه وذلك بصناعة شاحنات النقل البرية وعربات السكك الحديدية والأنابيب الواسعة وكذلك الاسطوانات المحمولة ذات السعة الكبيرة ، والتى صممت خصيصا لنقل الغاز المسال إلى مسافات بعيدة بسهولة ويسر وبتكاليف نقل معقولة .

ومن هذا المنطلق بدأت دول العالم تتجه إلى الحصول على الغاز الطبيعى لاستخدامه كمصدر للطاقة ، وبدأت الحاجة تزداد إليه كمصدر هام يتناسب فى تكلفة انتاجه وتخزينه ونقله واستهلاكه مع الحاجة اليه فى القطاعات المختلفة ، وذلك بالمقارنة مع مصادر الطاقة الأخرى .

كما ازدادت تجارة الغاز الطبيعى وامتدت فى كل أرجاء المعمورة فشملت الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الغربية وأوروبا الشرقية ودول الشرق الأقصى والشرق الأوسط . وارتفعت نسبة عدد الدول المستوردة للغاز ، حيث بلغت حوالى ٢٥ دولة بالمقارنة مع الدول المصدرة للغاز ، والتى بلغت حوالى ١٦ دولة ، منها ثلاث دول عربية هى الجزائر وليبيا والامارات العربية المتحدة ، وستصبح فى الصدارة الآن دولة قطر عند بدء الانتاج والتصدير من غاز حقل الشمال .

وسيشهد النصف الثانى من عقد الثمانينات ازدهاراً كبيراً فى تجارة الغاز الطبيعى ، وستزداد حاجة الدول الأوربية واليابان وبعض دول آسيا وأفريقيا إلى الغاز

مستقبل الغاز الطبيعي في قطر

الطبيعي ، الذى سيصبح مصدراً رئيسيا للطاقة يتميز بالنظافة وعدم وجود آثار ضارة بالبيئة عند استخدامه فى الصناعة ، بالاضافة إلى سهولة نقله وتخزينه ومناسبة تسعيره بالمقارنة مع مصادر الطاقة الأخرى .

ومن كل هذه العوامل السابق ذكرها أصبحت الآفاق مفتوحة أمام الغاز القطرى غير المصاحب والذى سينتج من حقل الشمال ويصدر إلى دول العالم ومناطق الاستهلاك الرئيسية التى سترتبط مع دولة قطر بعقود طويلة الأجل تتعلق بتسويق الغاز المنتج من حقل الشمال .

ولقد قامت الدولة بالخطوات الفعالة اللازمة لتطوير حقل الشمال ، ومن أجل ذلك اتخذت الخطوات التالية :

١ ــ قامت بعمل الدراسات الفنية والاقتصادية المتعلقة بتنمية حقل الشمال واستغلال الغاز المنتج منه وذلك بالاستعانة بالخبرات العالمية المتخصصة والخبرات والكوادر القطرية التى تعمل فى مجال البترول والغاز الطبيعي فى المناطق البرية والمناطق البحرية بدولة قطر .

٢ ــ تشكيل لجنة تسيير مشروع حقل الشمال برئاسة معالي الشيخ عبدالعزيز بن خليفة آل ثاني ، وزير المالية والبترول ورئيس مجلس ادارة المؤسسة العامة القطرية للبترول ، وقد تحددت اختصاصات هذه اللجنة بالاشراف على كافة الشؤون التنفيذية الخاصة بمشروع حقل الشمال وأعمال المراقبة واجراءات التنسيق الشامل بين المؤسسة العامة القطرية للبترول وشركة قطر للغاز .

٣ ــ تأسيس شركة قطر للغاز المسال المحدودة (قطر للغاز) وذلك بمقتضى المرسوم الأميري رقم ٤٤ لسنة ١٩٨٤ الصادر فى الأول من نوفمبر ١٩٨٤ ، كشركة مساهمة قطرية وبرأسمال قدره خمسمائة مليون ريال قطرى . وتمتلك المؤسسة العامة القطرية للبترول ٨٥ ٪ من رأسمال الشركة . وشركة البترول البريطانية ٧,٥ ٪ ، والشركة الفرنسية للبترول ٧,٥ ٪ . وقد حددت أغراض هذه الشركة بانشاء وتملك وتشغيل مصنع تسييل الغاز والمنشآت المتعلقة به فى أم سعيد ، وكذلك تسويق وتصدير الغاز المنتج ويترأس مجلس ادارة هذه الشركة معالي الشيخ عبدالعزيز بن خليفة آل ثاني .

٤ ــ وقد اشتمل مشروع حقل الشمال على مشروعين رئيسيين هما :

مشروع تنمية الحقل واستخلاص السوائل

ويتضمن هذا المشروع اقامة المنشآت والمرافق اللازمة لانتاج ٢٤٠٠ مليون مكعب قدم فى اليوم من الغاز الطبيعي من المنطقة المغمورة على بعد حوالى سبعين كيلومتراً من الشاطىء ونقله إلى أم سعيد ومعالجته لانتاج مايزيد عن خمسة ملايين طن فى السنة من المكثفات والنافثا والبيوتان والبروبان ، بالاضافة إلى حوالى ٢ بليون قدم مكعب فى اليوم من الغاز الخفيف و ١٤٠ ألف طن فى السنة من الكبريت .

• مشروع الغاز الطبيعي المسال

ويهدف هذا المشروع إلى اقامة المنشآت اللازمة لانتاج وتصدير ستة ملايين طن سنويا من الغاز الطبيعي المسال . وتشرف على هذا المشروع شركة قطر للغاز المسال المحدودة (قطر للغاز) .

وختاما ... فانه يمكن تلخيص أهم النتائج التى ستعود من استغلال حقل الشمال لانتاج الغاز الطبيعي فيما يلى :

١ ــ زيادة دخل الدولة القومى من عائدات بيع وتصدير الغاز الطبيعي المنتج ، بجانب دخلها من بيع وتصدير النفط الخام ، وبذلك يتم دعم اقتصاد الدولة فى المستقبل القريب والبعيد وتعزيز مسيرة التنمية الشاملة للبلاد .

٢ ــ انتاج الغاز الخفيف اللازم لتلبية الاحتياجات المحلية المتزايدة ولاستخدامه كوقود فى قطاعات صناعة الأسمدة والأسمنت والحديد والصلب والبتروكيماويات واحتياجات قطاعات البترول وتكريره وتوليد الكهرباء وتحلية المياه وغيرها .

٣ ــ انتاج المكثفات والنافثا والبيوتان والبروبان والكبريت وتصديرها إلى الأسواق العالمية وزيادة الدخل القومى من عائداتها .

٤ ــ فتح الباب أمام مشاركة الشركات القطرية الوطنية فى عمليات إقامة المنشآت والمرافق وخطوط الأنابيب وجميع الأعمال والتسهيلات الخاصة بانتاج وتصنيع وتسييل ونقل وتخزين وتصدير الغاز المنتج ، وذلك بما يعود بالنفع الكبير والخير الزائد على القطاع الخاص الوطني فى دولة قطر ويؤدى إلى انتعاشه .

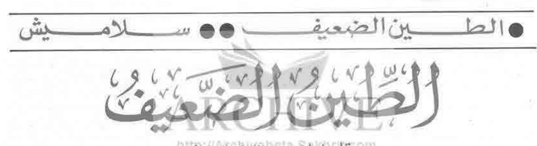
٥ ــ فتح الباب أمام الشباب القطرى للعمل والتدريب واكتساب المهارات اللازمة فى مجال إنتاج وصناعة الغاز الطبيعي ، وكذلك المشاركة فى تنفيذ وتشغيل مرافق ومنشآت وتسهيلات ومصنع تسييل الغاز وهذا المشروع الكبير الهام .

إن الأمل الكبير معقود على هذا المشروع الكبير الذى سيدفع بدولة قطر إلى الأمام ويجعلها تتصدر مكانها المرموق فى هذا الحقل بجانب ماحققته من انجازات عظيمة فى شتى المجالات منذ استقلالها .

مجمع الأسمدة الكيماوية



الكلمة الحية لا تموت بل تزدهر وتزداد نجماً لأمع الأيام
وهذه مختارات ثقافية حية من الصحف العربية القديمة



بقلم: إبراهيم عبد القادر المازني

ولقد قال لي مرة طبيب حاذق شكوت إليه أني لا أهدأ — إن بنائي كله من الأعصاب . وأن جسمي ليس أكثر من شبكة أعصاب ركبت لها العظام لتمسكها ووضع لي هنا قلب وهناك معدة إلى آخر ذلك . ثم كسي هذا كله جلدا رقيقا ليمكن أن يقال إن هذا جسم إنسان . ولكن المهم هو هذه الأعصاب . فإذا كنت أشكو شيئا في بعض الأحيان فيحسن بي أن أعرف أنه من الأعصاب ليس إلا ، « فأرحها حين تتعب . تعد كما كانت فإنها متينة » .

سألني صديق عن شيء لماذا أفعله أو أتركه — فقد نسيت — فكان مما أذكر أني قلته له إني أعيش الآن كما أحب لا كما يجب ، فقد جاوزت الأربعين ، والذي بقي لي من العمر ستفسده الشيخوخة المتهدمة لا محالة حين ترتفع بي السن فلا يبقى لي حينئذ من لذة الحياة إلا الوجود بمجرده لو أن هذا يفيد متعة ، فمن حقي في هذه الفترة — التي أرجو أن تطول قبل أن يدركني الذوى والذبول — أن أعتصر من الحياة كل ما يدخل في الطوق اعتصاره من المتع واللذاذات ، فأنا أقرأ ما أشتهي ، وأذهب إلى حيث أريه . وأجالس من آنس به . ولا أبالي من غضب ممن رضي ، فما في الحياة فسحة لمبالاة ذلك ، وأطلق نفسي على السجية كلما وسعني ذلك ، وليس للناس عليّ أكثر من أن أؤدي واجباتي فيما عدا هذا .

ودخل عليّ وأنا أقول هذا لصديقي شاب مهذب فحيا وقال إنه يقرأ الآن ديواني ، ففزعت ولكني ابتسمت له وقلت « كان الله في عونك . ومن الذي ابتلاك به ... » .

فأهمل السؤال وجوابه وأقبل علي يسألني : « إنك تكتب بسرعة » فقلت « إن الذي أعرفه أني أكتب في غرفة تحيط بها جدران من الحجارة لا تنفذ العين منها على خلاف ما كان يصنع ديماس الذي كان يكتب على ما يقال في دكان فيجيء الناس وينظرون إليه من وراء الزجاج .. أريد أن أعرف يا صاحبي ماذا تعني بالسرعة » .

قال « أعني أنك تكتب إلى مجلات كذا وكذا وكذا .. وتكتب في صحيفة يومية أيضاً .. هذا كثير .. فمتى تستطيع أن تكتب كل ذلك .. إنه نشاط عجيب .. » .

فقلت « جواب السؤال أني أكتب وأنا

الطِّينُ الضَّعِيفُ

نائم . فالذى تقرأه لى هو أضغاث أحلامى .. وأما النشاط يا صاحبى فذاك أنى مازلت فى شبابي » ..

فتركني وهو يقول إنه يدرس ما أكتب وإنه ينوى أن ينشر بحثا . فاستعذت بالله وحاولت أن أصرفه عن هذا العناء الباطل فما أفلحت . فتوجهت إلى الله عسى أن يصرف عنى هذا السوء بطريقة ما .. وهل كثير على الله أن يشاء أن تشب النار فى كتبى التى عند هذا الشاب ، أو تنقلب الدواة كلما همّ بالكتابة ، أو تجمد أصابعه أو يحدث له غير ذلك من أسباب التعويق والتعطيل ؟

وانفض هذا المجلس ، ولكن خاطرا ثقيلا ألح عليّ وظل يدور فى نفسى ، ذلك أن كل من ألقاهم من إخواني يذكرون هذا النشاط ولا يكتمون تعجبهم . فلم يسعنى إلا أن أتعجب مثلهم وإلا أن أسائل نفسى : « أكان هذا يبدو لهم منى مستغربا لو أنهم كانوا يروننى شابا فى العشرين من عمري مثلا ؟ أتراهم يستغربون لأنى فى ظنهم خلفت شبابى ورائى فالمنتظر من مثلى فى اعتقادهم هو الفتور .. » ولم يعجبنى هذا التأويل فإنه ثقيل على النفس ، وآثرت أن أقول إنهم معدومو النشاط ولذلك يتعجبون لى ثم إنى لا أحس إلا أنى مازلت شابا ، والعبرة بالاحساس لا بهذه الشعرات البيضاء التى يقول عنها ابن الرومى إنها تزيد ولا تبيد فهى مثل نار الحريق .. وما قيمة هذه الشعرات .. لقد ابيضت وأنا فى العشرين من عمرى ، وكنت يومئذ بها فرحا مزهوا ، كنت أعدها مظهراً للرجولة ومدعاة للاحترام ، فماذا حدث حتى صرت أبغضها . أولا أبغضها وإنما أنظر إليها فى المرآة فأزوم ، وتقول شفتاى « هممممم » .. ثم أنى أرانى أجلد من أبناء العشرين ، وأصبر على العناء والجهد ، وأقدر على العمل والحركة ، وأحسن تلقيا للحياة ، وأسرع استجابة لدواعيها ، فما قيمة هذا الذى تطالعنى به المرايا ؟ وما حاجتى أنا إلى المرايا ؟ ومتى كنت أنظر فيها حتى أنظر فيها اليوم ؟ كلا .. إن أمامى بإذن الله حياة طويلة وليست الحياة أن أظل باقيا فى الدنيا والسلام ، وإنما هى أن أظل قادرا على العمل وكفؤا للأعباء ، وهذا ما أعتقد أنه سيكون شأنى فما أشعر بدبيب الفتور ولا أرى أية علامة على ابتداء النضوب .

وضحكت وأنا أقول ذلك فقد تذكرت أنى قلت مرة لصاحب كان يحدثنى فى هذا الموضوع أو يسائلنى على الأصح ، هل تعرف حكاية الذى أراد أن يتزوج بنت السلطان .. لقد زعموا أن رجلا من الغوغاء زعم أنه سيتزوج بنت السلطان ، فلما سألوه كيف يتسنى له ذلك : قال المسألة بسيطة فقد رضيت أنا بزواجها ولم يبق إلا أن يرضى السلطان . وكذلك أنا فقد عزمت أن أعيش إلى التسعين والمائة أيضا وأنا موافق على ذلك وراض بهذه القسمة وليس باقيا إلا أن يمالئني الحظ ويساعفنى القدر .. » .

ويتفق لى كثيرا أن أقف بالسيارة حيث يطيب لى الوقوف ، ويسرنى حين أفعل ذلك أن أنظر إلى الناس وهم يروحون ويغدون وأنا أتأمل ما يكون منهم وكيف يمشون وكيف يتحدثون ويميل بعضهم على بعض وكيف يذهلون عما يكون أمامهم لأن ماهم فيه من الحديث يستغرقهم فيصطدمون أو يحدث غير ذلك مما يضحك ويشرح صدر المتفرج . وأنظر أيضا إلى الفتيات وهنّ يمشين وعيونهن دائرات فى الرجال فإذا نظروا إليهن أغضين كأنما كن ينظرن عفوا ، إلى آخر ما لا يسع المرء إلا أن يراه فى الطريق . فحدث يوما أنى اشتريت شيئا من دكان ثم دخلت السيارة وقعدت فيها وشرعت أدخن وأجيل عينى فى الناس فكان الرجال يمضون ويمرون بى ولا يعيروننى التفاتا . أما الشبان فكانت عيونهم ترمقنى خلسة . وأما الفتيات فكن يحدقن فى وجهى صراحة ، فكنت أبتسم مسرورا بهذه المناظر ، فمرت بى فتاتان بارعتا الجمال فلما بلغتا حيث كنت وقفا مالت إحداها على الأخرى جدا وهمست وهي تنظر إلى : « ده عجوز » ومن الغريب أنى سمعت الهمسة الخافتة على بعد مترين ، وأحسب أنى ما كنت لأسمع ما تقول لو أنها صاحت بأعلى صوت ، « ما أحلاه وأجمله وأبرع شبابه » وأكبر الظن أن الترام كان يمر حينئذ فيغرق هذا الثناء بضجته فيفوتنى ما يسرنى ، أو تسقط عمارة فيفزع الناس ويذهلون ويشغل الخلق بذلك وأنا فى جملتهم .. وأنا أتكلم أولا ثم أفكر بعد ذلك ، والأولى العكس . ولكن هذا ما أصنع غير عامد . فلما سمعت الهمسة الثقيلة رأيتنى أصيح بالفتاتين « فشرت . فشرتما . فشرتن » فضحكتا وتثنتا وذهبتا تعدوان .

ولم يسوئنى قول الفتاة إنى « عجوز » فما كانت سنها تزيد على الرابعة عشرة وأنا فوق الأربعين بسنوات فهى طفلة بالقياس إلى وليس فى وسعها إلا أن تحس هذا الفرق . وغير منتظر أن تدرك أن صباها صبى جسم لا أكثر ، وأن شبابها الذى تزهى به طراوة ولين وملاسة ونعومة وعزيت نفسى بلهجة المتشفى به بأنها ستفقد ذلك كله حين تناهز الأربعين وأنها لن تجد يومئذ عوضاً عما فاتها وأن نفسها ستسبق جسمها إلى الذوى . على حين أظل أنا فيما أرجو شاب النفس لا يضيرنى أن الزمن يكون قد حفر على وجهى وجلدى أخاديد عميقة . ومن العدل أن تباهى الفتاة وتزهى بما لا عوض عنه وليس من الانصاف أن أنكر عليها ذلك أو أكرهه منها .

ثم رجعت أقول لنفسى ولكن ما قيمة شباب النفس وحده .. ؟ ما جدواه إذا فقد الجسم شبابه .. ؟ وتذكرت أبياتاً من قصيدة طويلة كنت قلتها منذ عشرين عاماً ولم أنشرها ــ بل نشرت بضع مئات منها فى صحيفة أسبوعية ــ

أيـــهـــا الـــطـــيـــنُ مـــا تـــرى بك أبغى
لست ــ فـــيمـــا أرى ــ لشـــيء كفـــاء
إن طلبتُ السمـــــــاء قلت لـــــى الأر
ض ــ أو الأرض كنتَ لـــى عصَّـــاء

إلى آخر هذا الهراء .. ولم يكن هذا الطين يستعصى عليه شيء يومئذ . وما قلت ذلك إلا فى ساعة فتور شديد جعلني كاليائس أو انسياقا مع المعانى التى ولدتها روح القصيدة وأنا أنظمها . ولم يكن يخطر لى أنى سأذكر هذه الأبيات التى رميتها وأهملتها حتى مرت الفتاتان بعد عشرين عاماً ونظرت إحداهما ــ وأحلاهما ــ إلى الشيب فى فودى وقالت وهى تميل على صاحبتها « ده عجوز » .

وإنى لأحس الحياة ثقيلة الوطأة على كاهل الصبر .. وإنى لأعود فى الليل إلى دارى فتقول لى زوجتى ألا تستريح ؟ فأقول كلا .. لا راحة لحي .. وأمضى إلى مكتبى وأجلس إليه وأهم بالكتابة فأرى النعاس يثنى رأسى على صدرى ، فأنهض متبرماً ، ساخطاً على هذه البلادة . وأقول لنفسى وأنا أرتمى على الفراش أترى لو كنت فى مجلس لهو وطرب أكنت أفتر هذا الفتور ؟

ويغلبنى النوم قبل أن أسمع جواب النفس .. وإنى ليكون أمامى الطعام الجيد المشتهى فأمد إليه يدى محاذراً وأتناول منه مترفقاً وعلى قدر مخافة الكظة أو الانتفاخ ، ولم أكن أبالى ذلك قبل سنوات .. وإنى لأهم بزيارة الصديق فيصدنى أن درجات سلمه كثيرة فأرتد

وألعن أصحاب العمائر الذين لا يتخذون المصاعد ..

ولم يرضني هذا السخط على نفسي فقلت وأين هذا الفتور؟ ومن ذا الذي لا يكل أحياناً؟. إنني أعمل كالحمار بالليل والنهار وأكتب في اليوم الواحد فصولا ثلاثة أو أربعة لأكثر من صحيفة واحدة. وأقطع بالسيارة أكثر من خمسين كيلو في نهاري، وأسهر إلى منتصف الليل، ثم أقوم في الفجر مع الديكة والعصافير وأقصد إلى مكتبي وأروح أدق على آلة الكتابة حتى لقد غير جاري غرفة نومه لكثرة ما أزعجه وأطير النوم عنه في الصباح الباكر.. وأنا أجالس الناس وأحادثهم وأفعل ما يفعله المرء بشبابه ولا أراني أكل أو أعيى أو أمل أو أفتر.. وإن رأسي لدائب لا يكف عن العمل في يقظة أو نوم، ولو كنت أقيد ما يدور في نفسي لوسعني أن أملأ الدنيا كلاماً، ولكن المصيبة أنني لا أقيد شيئاً وأنني أنسى، فالذي يبقى لي لا يعدل جزءاً من مائة مما يخطر لي، وإذا كانت لي شكاة فتلك أنني أفتر ولا أراني أقنع بما أستطيع وما يدخل في وسعي. ولقد قال لي مرة طبيب حاذق شكوت إليه أنني لا أهدأ — إن بنائي كله من الأعصاب، وأن جسمي ليس أكثر من شبكة أعصاب ركبت لها العظام لتمسكها ووضع لي هنا قلب وهناك معدة إلى آخر ذلك، ثم كسي هذا كله جلداً رقيقاً ليمكن أن يقال إن هذا جسم إنسان، ولكن المهم هو هذه الأعصاب، فإذا كنت أشكو شيئاً في بعض الأحيان فيحسن بي أن أعرف أنه من الأعصاب ليس إلا، فأرحها حين تتعب تعد كما كانت فإنها متينة. وأكبر الظن أن هذه ليست أعصاباً وإنما هي، جنازير من الحديد، ويكفي أنها تتحملك كذلك قال. ودليل صدقه أنني لم أشك شيئاً قط مذ سمعت منه هذا، ولو كان بي شيء غير هذه الأعصاب لما نفعني كلامه. ولقد خرجت من عنده إلى صيدلية فيها ميزان فوقفت عليه فإذا بي بثيابي الشتوية لا أزن أكثر من سبعة وأربعين كيلو، فضحكت وقلت، كم ترى يكون وزني في الحمام. بغير هذه الثياب.. أو في الصيف الذي يستدعي التخفيف.. صدق الطبيب الحاذق فما هذا بجسم إلا على المجاز.. ولكن هذا البناء الواهي يحتمل النوم على الرمال وتوسد الحجارة. نعم فإنني كثيراً ما أخرج إلى الصحراء فأرتمي على رمالها ساعة وساعتين وتحت رأسي حجر صلد كبير وفي بيتي أترك الفراش الوثير إلى الكراسي الخشنة التي لا راحة لمخلوق عليها.. وأفتح النوافذ وأقعد أو أنام بين تيارات الهواء ولا أرى ذلك يضيرني. وأحسب هذا وراثة، فقد كانت أمي رحمها الله تنام وأنفها إلى النافذة المفتوحة — صيفاً وشتاء — نعم أزكم أحياناً ولكن القليل يزكم.. وساقي مهيضة ولكنني لا أتعب من المشي وإنما أتعب من الوقوف.. ولم أتخذ المدافئ قط، فإذا أوقدوا في بيتنا ناراً تركت لهم الغرفة إلى أخرى لا نار فيها.. وما لبست معطفاً إلا في أعقاب مرض وعلى سبيل الوقاية الى حين.. وإنني لأرى مناعة جسمي تزداد عاماً فعاماً وأراني كلما علت سني أحس أنني صرت أقوى وأصح بدناً وأقدر على العمل والحركة والجهد.. فلست بعجوز يافتاتي الصغيرة وإنني وحياتك لأصبى من ابني. وأن الذي في عروقي لنار سائلة لا دماء جارية، وقد أحسنت بالانصراف بعد تلك الضحكة الفضية التي ستظل في مسمعي تذكرني بك وتصبيني إلى أترابك والسلام عليك والشكر لك وإلى الملتقى «وأين مني يهرب الهارب؟».. .

ابراهيم عبد القادر المازني

١٩٣٧

هامش

توفي المازني رحمه الله بعد كتابة هذا المقال باثني عشر عاماً، في سنة ١٩٤٩،، أما ما أشار إليه في المقال من أنه، يدق على الآلة الكاتبة، فيعود إلى ما كان معروفاً عن المازني بين كل كتاب جيله من أنه لم يكن يكتب مسودات لكتبه أو مقالاته، ولم يكن يكتب بالقلم وإنما كان يكتب على الآلة مباشرة وبنفسه.





قد كان ذلك أثناء الحرب الصليبية التي ثار لهيبها في الشام نحو قرنين طويلين، وكانت جنود مصر العظيمة تحاصر مدينة انطاكية إحدى المدن التي كانت لاتزال باقية في يد الصليبيين. وكانت جيوش مصر تحارب ببسالتها المعروفة لا يعرف أحد من جنودها ما معنى الخوف بل يهوى بفرسه كالصاعقة وهو يصيح صيحة الحرب فيوقع بعدوه الفشل فيتفرق ويتبدد، ثم يشيط في رماحه وسيوفه.

وكان منظر هذه الجنود مما يروق الأعين ويبهر الأنظار. فقد كان الفرس وراكبه قطعتين من آيات الفن ومبدعات الصناعة، فالفارس في ملبسه الحربي عليه العلامة الصفراء تبرق في شعاع الشمس وفوق جسده الدروع والسلاح يحسبها الناظر إليها من عسجد مصفى وإن كانت من صافي الحديد والفولاذ، وكانت ملابسه من تحت تلك الغواشي لاتظهر منها إلا أطراف مزركشة بالذهب أو أذيال من صافي الحرير والقصب، وكان الفرس يختال تحت راكبه كأنما هو



سلاميش

يزهى بما عليه من زينة وحلية ويفاخر بمن عليه من نجد مغوار.

ودافع المحصورون في أنطاكية دفاع الأبطال، لم يتركوا الأسوار حتى لم يبق بها ركن غير مثلوم، ولم يدعوا الضرب حتى لم يبق لمجانيقهم حجر يقذفون به أو نار يلقون بها على أعدائهم. وانتصرت جنود السلطان العظيم بيبرس. ودخلت المدينة في أبهة النصر واختيال القوة. وكانوا وهم يدخلون المدينة لا ييئسون أنهم يلجون أكبر معقل بقي للصليبيين في الشام بعد أن كانوا قد بسطوا أيديهم على ذلك القطر كله.

كان قائد الجند شابا في مقتبل العمر اسمه سلاميش لو رآه أحد في غير لباس الحرب لظنه أحد أبناء الملوك المنعمين. وجه مشرق إشراق الزهرة اليانعة، وقوام ممشوق كأنه رمح رديني، وعينه تلمع كأنها ثريا بفرند سيف دمشقي. ولكنه كان عدة الحرب عليه اللأمة والدروع وفي يده الرمح وفي منطقته السيف. ودخل على رأس الجنود فوق جواده الكريم ناظراً إلى الأمام معبساً حاداً والجنود من ورائه لا يلتفت أحد منهم إلى يمين أو إلى يسار. ولا يتخلف أحد منهم عن طاعة الأمر بمقدار همسة هامس أو طرفة عين. وكانوا كلما نظروا إلى قائدهم الشاب زادت قامتهم استقامة، فإن هم بعضهم ببسمة وقفت البسمة على شفتيه حذر أن يطلع عليها إذا هو التفت.

وكان يوم دخول انطاكية يوماً مشهوداً، فكان نساء المدينة وصبيانها أسرى ينتظرون حكم الفاتح فيهم، وكان رجالها وشبابها بين مقيد في الأصفاد، وجريح في مثاوى العلاج، وقتيل طريح على جانب الأسوار أو عرض الطريق. وبلغ القائد وجيشه ميدان المدينة الأكبر وقد احتشد فيه الأسرى والضعفاء يتطلعون جميعاً إلى من في يده الحكم في مصائرهم، وخمدت الأنفاس، وهدأت الأصوات، وأومأ القائد للجيش بالوقوف حول الميدان، فوقف الجند ينظرون إلى أكوام الغنائم التي سيقسمها السلطان الأعظم بينهم وهي من كل نفيس ونادر من تحف الأمراء والأغنياء وقد وقف حولها جماعات من سبايا الحرب بين صبية وعذارى أو كهول وشبان ينظرون إلى قيودهم حانقين، أو يبكون ويندبون معولين.

وتقدم نحو سلاميش وفد من كبار المدينة وأمرائها حتى إذا ما صاروا منه على بضع خطوات ركعوا له ووقفوا يطلبون الإذن للكلام، فأذن لهم وهو معبس على عادته لا تفارقه تلك النظرة الجامدة التي في عينيه، وجعلوا يتكلمون بلسانهم وقد وقف رجل منهم يترجم مايقولون. وطلبوا إليه أن يمن عليهم بالفكاك وأن يهبهم نساءهم وذراريهم تقربا إلى الله الذي نصره بعد أن وضعت الحرب أوزارها ودانت المدينة لحكم السلطان الأعظم، وقالوا له فيما قالوا، حسبك من تقتل من شباننا وكهولنا، وما تخرب من ديارنا ومعاهدنا، فلئن كانت بنا كبرياء لقد ذلت، ولئن كانت فينا عزة لقد هانت، وكفاك من الحرب النصر فلا تضم إليه دموع المساكين، ولهيب الفراق بين الأبناء والوالدين. غير أن سلاميش بقي على تعبيسه ووجومه ولم يجب إلا بإشارة لجنوده أن يعيدوا الأسرى إلى حيث كانوا وأن يستعدوا لنقل الغنائم والأسرى إلى مخازن السلطان أو إلى خيامه، فلم يكن للوفد إلا أن ينصرف والحسرة تأكل قلوبه.

ثم أمر القائد جنوده بالمسير إلى مخيمه وسار في الطليعة يتقدمه لولا أن استوقف نظره جماعة من الجند يجرون شخصا وهو يمانع ويجاهد، فتأمل الشخص فلاح له عن بعد شخص امرأة. فوقف وأمر الجنود بالوقوف، ثم أسرع إلى مكان الجند ليرى ما هنالك فوقعت عينه على فتاة بين أذرع جنديين يدفعانها ويترددان في حملها، ولما اقترب منها رأى شابة نحيلة مشوقة فارعة، بوجهها صفرة قد غطتها حمرة، وفي عينيها حلاوة قد غشيتها صرامة، وهي تنظر إلى الجنديين مرفوعة الرأس كأنها تزهى، جامدة العينين كأنها تتحدى. وقد تمزق ثوبها وتلوث من آثار الوسخ والدماء، لا يكاد يستر من جسمها إلا ما يستر ظل أوراق الشجر من صفحة الجدول.

وقد انسدل على كتفيها غطاء من شعرها الفاحم وهو يلمع في ضوء الشمس الغاربة. فدخلت الرحمة قلبه برغمه، وتمهدت عبسته ولانت نظرته وأشار إلى جنوده بالكف عنها، ثم نزل إليها وأخذ بذراعها فأسلست له وسارت معه حتى اقترب من شيخ فقيه كان في صحبة الجيش وأمره أن يترفق بها حتى تذهب إلى خيمته. ثم عاد وقد أطرق قليلا حتى علا صهوة جواده. ثم ركض إلى حيث ترك جنوده واستعاد نظرته وعبسته. وألقى إليهم الأمر بالمسير وقضى سائر اليوم في شغل من أمر جيشه حتى أوغل الليل وعلا البدر وحان وقت العودة فآب إلى سرادقه.

وتذكر الفتاة التي كانت أعمال اليوم قد أنسته ذكراها، فأمر غلاما أن يحضرها إليه، وجلس يستعيد صورتها ويتمثلها وهي تناضل على ضعفها وتتكبر على ذلها، ولم يتمالك أن ربت الرقة إلى قلبه، ولم يستطع قهر عبرة ترددت في عينه. وغاب الغلام قليلا ثم عاد وحيدا فنظر إليه سلاميش كأنما يستفهم عما أتى به، فقال الغلام بعد التحية، إنها لا ترد بكلمة ولا ترفع إلى بصرها، فصرفه سلاميش وجلس هنيهة يفكر، ثم نهض متثاقلا وسار إلى خيمتها حتى إذا دخل ألفاها على الأرض وقد وضعت رأسها بين كفيها.

فدنا منها ووضع يده على رأسها وتبسم ابتسامة ضئيلة وقال: «يحزنني أنهم أساءوا إليك».

فانتفضت الفتاة كأنما لسعتها جمرة، ثم رفعت رأسها وقامت تنظر إليه والحقد مرتسم على محياها، ونار الغضب تضطرم في عينيها، وكانت الملابس الرثة التي أتت بها قد تبدلت وألبست حلة من الحرير الأسود جعلت وجهها المصفر وعليه آثار الدموع يبدو كالزنبقة المبللة بالندى، ودفعت يده التي مدها نحوها وقالت وفي صوتها بحة: «أبعد يدك عني أيها القاتل السفاك. أدر وجهك الكريه عني فأنت قاتل أبي وأخي، وأنت سافك دماء قومي، وأنت المعتدي على وطني. أبعد عني وأفعل بي ما شئت من عذاب أو قتل تكمل به وحشيتك وفظاعة جندك».

وكانت وهي في ثورتها هذه تقذف بنظراتها إليه كالسهام النافذة، وكان صدرها يعلو ويهبط في هياجها، وشعرها الطويل الأسحم يضطرب بعضه فوق كتفيها وبعضه على صدرها أو جوانب جسمها.

ودهش سلاميش من قولها ولم تفته فصاحة في لفظها ولا رخامة في صوتها، ولكنه لم يجب بكلمة، بل رفع حاجبيه وانثنى راجعا إلى خيمته يسير في بطء ويثور به شيء يشبه الحزن.

وأرسل إلى الشيخ الفقيه يستحضره، وأتى إليه فجعل يسأله عن المدينة وأهلها، وعن تلك الفتاة وبيتها، فلقد كان ذلك الفقيه من أهل المدينة قبل الفتح يعيش بين أهلها ويعاشرهم ويخالطهم، فعلم منه أن تلك الفتاة بنت أكبر أغنياء انطاكية، وأن أباها كان شديد الولع بتثقيفها، وأنها قرأت أدب العرب كما قرأت أدب الفرس، وكان لها أخ قتل في أثناء الحصار، ومات أبوها يوم الفتح، وكان يدعو قومه إلى المصالحة قبل أن تفتح المدينة عنوة، وأراد أن يحمل قومه على تدارك الأمر قبل انفراطه فاتهموه بالجبن، وصاحوا في وجهه، أنه آثر السلامة، فحملته الحفيظة

مع كبر سنه على الركوب فى وجه الجيش الفاتح ، ومات عند أبواب المدينة تحت سنابك الجيش الظافر .

وسمع سلاميش تلك القصة فأفلتت منه زفرة لم يستطع كتمانها ، وبات الليلة والأحلام تتخلل نومه حتى لاح الفجر ، فصحا وهو مضطرب النفس قلق البال .

ولكن أعمال اليوم لم تترك له متسعا للتفكير فى الفتاة ولا فى همومها ، وكان كلما تذكر كلماتها له نازعته نفسه الى القسوة عليها ، ثم لا يلبث أن يلين ، وتعاوده رحمته . حتى إذا انقضى اليوم وعاد فى المساء الى خيمته رأى نفسه يسير نحو مكانها ، وتقرب إليها وهو يتردد ويترفق ثم وقف الى جوارها هنيهة وقال بصوت خفيض :

« لعلك اليوم أهدأ مما كنت بالأمس » .

فلم ترفع إليه بصرها ، بل بقيت جالسة ، ورأسها بين كفيها .

والتفت الى خوان بالقرب منها ، فرأى عليه طعاما لم يمسس . فقال وهو يتكلف الهدوء والجفاء : « وهل تريدين أن تموتى جوعا ؟ » .

فلم تجب على قوله ، بل حاولت كتم نحيبها .

فقرب منها ، وحاول أن يضع يده على رأسها ليرفعه وهو محترس متلطف ، ولكنه ما كاد يلمسها حتى نفرت منه وصاحت به قائلة :

« أقول لك اتركنى » .

فلم يستطع أن يخالفها ، فأبعد يده عنها ، وتراجع ، ناظرا نحوها ، ثم تنفس نفسا طويلا وخرج وفى قلبه حزن وقلق .

وقضى ذلك اليوم موزع القلب كئيبا ، حتى لحظ أصحابه كآبته ، وعجب جنوده لجفائه ونفرته . فكان لا يأمر إلا متبرما غاضبا ، ولا يسمع إلا متجهما ساهما ، حتى عجب الناس من ذلك الغضب ، فى عقب الانتصار ، ومن ذلك الضجر لمن كان مثله مكللا بالمجد والتوفيق . وما انتهى من عمله حتى أسرع الى سرادقه ، ووقف هذه المرة مترددا وجلا ، ودخل فى رفق وخشوع الى مكان الفتاة ، فأبصرها على ما كانت عليه فى الصباح ، والخوان لا يزال الى جانبها ، قد تبدل طعامه ، ولا يزال كاملا لم تنل منه شيئاً .

ونظر إليها مليا ثم قال برفق : « أما تكلمينني ؟ إنني أرجوك أن تنظرى الى وتنطقى بما يجول فى نفسك ولو كان قاسيا » .

ثم مد يده الى رأسها ومسح عليه متلطفا — ولكنها هذه المرة لم تثر ولم تغضب . وكأن تبرات صوته قد حملت إليها ما فى فؤاده من حزن من أجلها . على أنها بقيت ساكنة ، وهى جالسة فى مكانها كئيبة .

فجلس الى جوارها يحاول محادثتها وهى لا تجيب الا بدمعة تثور بين حين وحين فى عينيها فتمسحها بمنديل ثم تعود الى وجومها وسكونها ، فقال لها ولسانه ينم عن مقدار عطفه وحزنه :

« إننى لا أريد إيلامك — لأننى لا أستطيع أن أراك متألمة — ولو كان ذهاب ألمك بابعادك عنى لفعلت . ألك أهل فى عكا أو فى مدينة أخرى من المدن فأرسلك إليهم ؟ إن السلطان لن يرد لى طلبا إذا طلبت منه شيئا » .

فلم تجبه حتى أعاد عليها القول راجيا مستعطفا — وكان أول ما قالته له أن هزت رأسها نحوه وقالت : « ليس لى أهل — قد قتلتهم جميعا » ثم شهقت بالبكاء واسترسلت فى هزة مريرة من الحزن .

ولم يملك سلاميش نفسه من أن تجيش بالحزن ولكنه تمالك بعد قليل وهدأ من جأشه وقال لها :

« إننى أرحمك فى حزنك ولكنى لا أملك دفعه . فقد كان أهلك أعدائى وكنا معا فى ميدان قتال يسعون فيه الى قتلى كما كنت أسعى الى قتلهم . وهل للشجعان مصير إلا الموت فى ميدان الحرب ؟ وهل كان أولى بأهلك أن يشهدوا مدينتهم تحطم وتسلب وهم بين هؤلاء الأسرى ؟

إنهم لو كانوا بين هؤلاء الاسرى لما ترددت فى افتدائهم من أجلك ولكنهم فى غير حاجة إلى ولا إليك . إننى رأيتك وبهرنى حسنك ، ثم رأيت حزنك فآلمنى حزنك . ثم تكشفت لى كبرياؤك فقهرت كبريائى . ولو شئت أن تبعدى الى مكان تختارينه لما رفضت لك مشيئة — وإن أحببت المقام هنا — كنت عندى ولا أقول لى حتى تقولى ذلك أنت » .

فنظرت الفتاة نحوه وقد زال من عينيها ذلك البريق القاسى الذى كان يلوح منهما كلما نظرت نحوه من قبل ، وأطالت نظرتها إليه ثم أغضت بعد أن طبعت فى خيالها صورته .

ولم يذهب سلاميش ذلك المساء الى خيمته حتى كان قد قاسمها بعض الطعام الذى قدم إليها فى ذلك اليوم ولم تنل منه قبل ذلك شيئا .

وفى ذلك المساء وفد الى سلاميش بريد السلطان يحمل إليه أمر الارتحال الى دمشق بمن معه من الجند . ويأمره فيه بتقسيم الغنائم بين أمرائه وجنوده وبتوزيع الأسلاب من أموال وسبايا . ووهبه نصيبه من ذلك كله جزاء له على بسالته واعترافا له بما كان من نضاله .

وبكر سلاميش فذهب فى الفجر الى خيمة الفتاة وهو خفيف الخطوة متهلل النفس إذ كان قد عزم على خطة أملاها عليه قلبه فرأى الفتاة راقدة على أريكة قضت عليها الليلة لم تذق للنوم طعما ، فلما وقع نظرها عليه جال على وجهها طيف ابتسامة واعتدلت فى مكانها ونظرت إليه وهو قادم نحوها . ولما حياها تحية الصباح ردت تحيته ، ثم جلس قريبا منها ولم يكن عند ذلك على عادته من اعتداده بنفسه وكبريائه بل كان فى حديثه خفيض الصوت مهتز الأنفاس .

قال لها : « قد أمرنى السلطان أن أتحرك اليوم الى دمشق بعد أن انتهى الأمر هنا » .

فلم تجبه بل نظرت نحوه ، كأنما تسأله عن مصير وطنها . ومن فيه من رهطها ، وكأنه أحس بما فى نفسها من التساؤل فقال : « وقد أراد السلطان العظيم حفظه الله أن يجعل لى حظه من هذه المدينة » فصاحت الفتاة ومدت نحوه يديها : « إذن فالمدينة فى يديك » فقال لها : « بل نصيب السلطان منها وسأجعل نصيبى من الغنيمة من فى المدينة من الأسرى تاركا للجند أموالها وتحفها » .

فصاحت الفتاة ووقفت أمامه قائلة : « وماذا تفعل بهم ؟ » .

فتبسم سلاميش نحوها وقال : « هم لك » .

فصاحت وصوتها يتهدج من الفرح : « هل تفعل ؟ » .

فقام ومد يديه نحوها وقال : « لقد أكرمنى السلطان العظيم بنصيبه وسيكون أقر عينا إذا علم أين ذهبت به » .

فمدت يديها وأمسكت بيديه الممدودتين وقالت : « ما اسمك ؟ » قال باسما : « سلاميش » فنظرت الى وجهه لحظة ثم تركت يديه وأطرقت الى الأرض فقال : « وإننى أود أن أعرف ما تحبين فأنفذه لك فإن دارك هنا لم يمسها أحد من الجنود . لقد عرفت دارك وعرفت أهلك من بعض أهل المدينة وأعدت كل ما أخذ منها الى مقره ، ولك أن ترجعى الى دارك إذا شئت عزيزة فى ظل السلطان العظيم » .

فنظرت الفتاة نحوه وترددت قليلا ثم قالت فى حياء : « وأنت ؟ » .

فقال سلاميش وهو يمانع نفسه من الاضطراب :

« سأذهب الى دمشق كما أمر مولاى » .

فسكتت الفتاة لحظة ثم مدت يديها بحرارة وقالت :

« سلاميش ! وأنا كذلك الى دمشق أسير » .

محمد فريد أبو حديد

١٩٣٧

ثرثرة أبناء الصمت



في مشهد طريف يروي فيه « جارثيا ماركيز » كيفية تولد تصوراته الأولى لقصصه ، يقول : إنها تبدأ لديه بصورة مرئية تبرز في خياله ، وتلح على ذاكرته ، فلا يملك إلا أن يشدها مثل طرف الخيط ، فتسحب وراءها مجموعة صور أخرى ، تمثل دائماً النواة الأولى لرواياته .

وعندما نقرأ المجموعة القصصية الأخيرة للأديب المصري « مجيد طوبيا » « أبناء الصمت » المنشورة في سلسلة « كتاب اليوم » بالقاهرة ، عدد مايو ١٩٨٥ ، تتجلى أمامنا هذه الرؤية في الطرف العكسي للتلقي ، إذ تترسب لدى القارئ جملة من الصور المتكررة . تمثل البذرة الأخيرة المتبقية لديه بعد استيعاب مسافاته الأدبية بكل أبعادها . بيد أنه لا يستطيع أن يقصر تذوقه عليها ، بل لعلها على وجه التحديد هي التي تستعصي على الكسر والتفتيت . ومن ثم يتعين علينا أن نمر بالطبقات المختلفة التي تفضي إليها ، محاولين تأمل مذاق الثمرة ونكهتها ، ومدى نضجها أو عطبها ، لنتعرف عليها دون حاجة إلى التحليل الكيماوي لبذرتها الداخلية ، سواء كانت واحدة أو متعددة .

مجيد طوبيا

بقلم : الدكتور صلاح فضل

الإطار العام

تتكون مجموعة « أبناء الصمت » من مقدمة عن مؤلف الكتاب وخاتمة عن كتبه وبينهما عشر قصص قصيرة تعقبها قصة طويلة هي التي تعطي للمجموعة عنوانها وتستغرق نصف المساحة الكلية للكتاب . غير أن هناك رابطاً موضوعياً متيناً يشد كلاً من القصة الأولى « منديله » والثانية « شئون عائلية » إلى الأخيرة ، إذ تدور الثلاث في فضاء واحد ، وتعبر عن تجربة حرب الاستنزاف خلال السنوات الست وانعكاساتها الفردية والاجتماعية ، بينما تقع القصص السبع الأخرى في تجويف داخلي يتراوح كما سنرى بين التنقيب والأنثروبولوجي ، واللمحات الخاطفة ، والممارسات الكتابية الموسومة ابتغاء الطليعية حيناً ، والطرافة حيناً آخر ، إلا أن للمجموعة في جملتها كياناً متماسكاً سيتضح تشكيله عندما نتبين بسرعة التوزيع الداخلي لمستوياته . وكنا نتمنى أن نعثر في صفحة تقديم المؤلف على بعض البيانات الأساسية عن حياته ومكوناتها الجوهرية ، لكننا لا زلنا نتصور في عالمنا العربي أن تاريخ الميلاد ومكانه ، والتربية التي تلقاها الكاتب ، والأعمال التي مارسها ، واللغات التي يجيدها ، والبلاد التي زارها ، أن كل ذلك وغيره مما يمكن إيجازه في سطور قليلة أقل أهمية من الجوائز التي حصل عليها ، ومازلنا نلهث وراء اعتراف الآخرين بنا فنبرز الترجمات الفعلية والمزعومة ، في محاولة للتأثير الساذج على القارئ ، فيقوم الناشر ــ متواطئاً مع الكاتب الذي لا يستنكر ذلك ــ بشن حملته الدعائية البريئة على الصفحتين الأولى والأخيرة من الكتاب ، دون حد أدنى من التصور العلمي لضرورات التعريف الموجز المنظم المتواضع بالمؤلف الذي يقدمه .

هذا بالرغم من أن مجيد طوبيا فنان متميز ، له عالمه المتبلور وأسلوبه

● مجيد طوبيا فنان متميز ، له عالمه المتبلور ، وأسلوبه الخاص ، ومكانته التي ظفر بها بجهده وإبداعه في لغته العربية

● « أبناء الصمت » تزخر بالإشارات الخصبة للعادات والتقاليد الأصيلة لدى الشعب العربي في مصر

الخاص ، ومكانته التي ظفر بها بجهده وإبداعه في لغته العربية . إلا أن عادة ابتسار البيانات الشخصية ونقص المعلومات الأساسية عن المؤلفين العرب من أسوأ ما درجنا عليه في كتبنا الأدبية ، وينبغي التنبيه لها ، لعل الناشرين لدينا يعنون بهذه التفصيلات ذات الأهمية الحاسمة في تحديد المستوى الحضاري للحركة الثقافية .

حزمة اللوازم

فإذا توغلنا بشيء من الرفق في أعمال المجموعة ، عثرنا على حزمة من اللوازم المتكررة ، التي يمكن اعتبارها في جملتها عناصر التجذير الواقعي لها ، مع قدر من التوسع في مفهوم الواقع ، ليشمل المنظور والباطن ، في قلب الماضي والحاضر . من هذه اللوازم ما يؤدي وظيفة الموقعة المكانية والزمانية في عالم مجيد طوبيا الروائي ، وهي موقعة يحرص عليها بشكل واع منتظم ومضطرد . نجد ذلك مثلاً في وصفه لمسيرة طابور الأطفال في قصة « إغماض العين » وهم يمضون خلف الجدة في جوقة غريبة منشدين أغاني « السبوع » للوليد الجميل . يقول « ساروا في محاذاة السور الشرقي ، فجاء تل المقطم من خلفهم ممتداً على الضفة الأخرى : في بطن صخوره توجد قبور موتانا .. وتساقط الملح مرة ثانية إلى النهر . استداروا إلى السور البحري فأطلوا على حقل القصب الكبير الذي لم يعد به قصب ، والذي يتحول إلى بيوت زاهية الألوان يسكنها الأثرياء وكبار الموظفين . وبعد السور البحري جاء السور الغربي ، ومن أسفله ديار الأهالي باهتة كالحة ، والشوارع ضيقة مكتظة تسير السيارات فيها بسرعة المشاة . وفي أقصى كل ذلك الشريط الحديدي يحصر المدينة بينه وبين النيل .

ثم اتجهوا إلى السور القبلي والبيوت التي تمتد في القدم ، الحي العتيق المتلاصق المتداخل ، وديار الأجداد القريبين تتساند بيوتهم ويتساقط الصف منها بتساقط أحدها .. ومن بعدها أرض الكلأ وخيام الغجر وأغنامهم ، ثم أصنام الفراعنة البعيدين . يأكل الماعز الكلأ ثم يلهو قافزاً فوق صخور المعبد » .

في هذا المشهد يركز القصاص بلون من المسح الجغرافي المستقصي للجهات الأربع الأصلية المكان في معظم رواياته ، والتغيرات التي تنتابه ، وهو يستجيب كما نرى لمواصفات مدينة صغيرة في صعيد مصر ، تقع بيوت الأحياء فيها على إحدى ضفتي النيل ، وتقع على الضفة الأخرى دائماً « قبور موتانا » التي يعبر عنها على مدار المجموعة بنفس هذه العبارة ، وتقوم من حولها أرض الكلأ وخيام الغجر وأغنامهم بكباشها وماعزها ، ثم أصنام الفراعنة ، التي تتردد أيضاً بنفس هذه العبارة ، ومن الجلي أن حساسية المؤلف لا تنفر من استخدام كلمة الأصنام الموسومة بالادانة في المعجم الاسلامي ، مما يجعل غيره من الكتاب يستخدم مكانها كلمة تماثيل أو غيرها ، أما هو فلا يجد حرجاً من تكرارها بيسر وسهولة . وتتراءى لنا هذه العناصر كلوازم ثابتة في أشكال مختلفة ، مثل الصور التي يتحدث عنها « جارثيا ماركيز » ، وربما لا أبعد في الظن إن حسبتها جزءاً حميماً من ذكريات مجيد طوبيا ترتبط لديه دائماً ببيئة صعيد مصر ، فنجد بعضها في قصة « رحيل » على الوجه التالي : « وتذكرت أمي وهي تهتف حانقة : الولد الشيطان ، غافلني مرة أخرى وذهب يلعب عند الغجر ، ثم وهي تطلب مني أن أحضره : فتوجهت جنوباً ووجدته عند المعبد القديم منكوش الشعر يتقافز مع الماعز ويحاورها بين الكلأ ، ومن حوله أصنام الفراعنة المتهدمة » .

وفي قصة « شئون عائلية » يقول : « في الأيام التي تلت ذلك انتقل مكان لعبنا إلى أرض الكلأ ، حيث كنا نتسلق صخور المعبد الفرعوني ، ونجلس فوق أعلى بقعة فيه .. وسحبنا (زميلنا) من فوق رأس الفرعون وألقينا به وسط مجموعة من ماعز الغجر ونحن نضحك » وفي « الوليف » : مضي عابراً شريط القطار مخترقاً أرض الكلأ قرب أبراج الكهرباء الشاهقة .. وعند أصنام الفراعنة رأى ماعز الغجر وكباشهم فظل يلاعبها ويحاورها حتى شبع لهوا .

كما ترد نفس هذه العناصر في إشارات أخرى متفرقة لا تخرج عن ذلك ، وترتبط دائماً بفكرة تحديد المكان التي يتمسك بها الكاتب ويقيم حولها أحداثه وتصوراته .

الشهادة التاريخية

أما الحرص على الموقعة الزمانية فهو العصب الآخر الحساس في أعمال مجيد طوبيا ، إذ أنه شديد الوعي بوظيفته التسجيلية ، ملتزم دائماً بذكر السنوات والأحداث بالأرقام والوقائع والأسماء ، وكأنه يهدف إلى كتابة تاريخ فني لعصره : يقتصر فيه على ابراز ما يواجهه هذا الجيل فحسب بأمانة فائقة ، ولعل هذا الهدف يتجسد في اختياره لعنوان مجموعته ، فهو عن جيل الأبناء الذين شبوا في العقود الأخيرة ، وكتب عليهم أن يفتحوا عيونهم في طفولتهم على حرب فلسطين ، وفي مراهقتهم على حرب السويس ، ثم تجرعوا مرارة يونيو ١٩٦٧ بكاملها ، ودفعوا ثمنها غالياً في حرب الاستنزاف حتى العبور . لقد جعلت هذه الحروب منهم جيلاً صامتاً أخرس ليس من حقه أن يوجه مصيره ، أو يرفع صوته « فوق صوت المعركة » ، ولا يلبث أن ينتهي من العبور حتى يفثأ غضبه ، ويكسر صمته ، وينهمر في ثرثرة داخلية مدوية ، ثرثرة تجعله يصر على كتابة هذه السنوات ، وتنسيه أحيانا أصول هذه الكتابة الفنية ، كما نجد لدى مؤلفنا في قصة « شئون عائلية » التي تقترب من منطقة الذكريات القومية العامة ، ولا تقوى على تكوين عالم فني روائي مستقل ، فبالرغم من أنه يريد



أن يقول لنا فيها إن الأحداث العامة قد عاناها هذا الجيل بصفة شخصية في عظمه ولحمه ، تداخلت حتي النخاع في حياته الخاصة الحميمة . وأصبحت من شئونه العائلية . وهذا حق وصدق إلى أقصى درجة ولكن التعبير الفني لا يمكن أن يتم عبر مجموعة من الفقرات التاريخية المباشرة التي تطغى على حكاية التوامين في القصة وتعتمد على ما هو معروف من وقائع . ولسنا بحاجة إلى أن نتذكر المبادئ الجمالية الواقعية نفسها في العلاقة بين العام والخاص ، وضرورة أن يتم ذلك من خلال النموذج ، سواء كان نموذجاً شخصياً في البطل . أو زمنياً في الموقف . ومن الواضح أن بنية « شئون عائلية » لم تنهض بمهمة تقديم أي نموذج حقيقي . وهذا ما حاول مجيد طوبيا تلافيه في قصته الرئيسية « أبناء الصمت » فقدم « ملجأ النجفة » على ضفة القناة كوعاء لمجموعة من الجنود المحاربين يذكرنا بشعب توفيق الحكيم في « عودة الروح » خاصة وأن « ورك الوزة » الشهير قد تحول لدى قصاصنا الحديث إلى « وزة أم صابر » بأكملها ، ولكي يعطي لهذه النماذج حياتها الخاصة وضعها في مقابل نماذج أخرى من المدينة ، تنتمي إلى مجال وثيق الصلة بالجبهة المقاتلة وهو المجال الصحفي بكل ما يدور فيه من زيف ، ومحاولات مجهضة دائما للارتفاع إلى مستوى الأحداث الجادة .

ويتداخل المستويان عندما تتولى الصحفية الشابة « نبيلة » خطيبة المحارب الشهيد « مجدي » إعادة بناء الوقائع في تحقيق صحفي تقوم به تكريماً رمزياً لذكرى خطيبها . ومن الحق أن نشهد لمجيد طوبيا بالتوفيق في تكوين نماذجه من جانب والتدرج الماهر في الكشف عن الجوانب المختلفة للأحداث وإثرائها من جانب آخر في عملية متنامية ذات إيقاع فني مضبوط . وإذا كانت بؤرة الملجأ الحربي إفادة عصرية من فكرة الكل في واحد التي تبناها توفيق الحكيم في فجر الرواية العربية الحديثة فإن صالة التحرير الصحفي والمناقشات السياسية والاجتماعية فيها وشخصية رئيس التحرير الوطني المرتد ارتزاقا ومجاراة لتيار الوظيفة التبريرية ، وشخصية الممثلة المتهالكة وسهرة الهواء الطلق عند الهرم ، كل ذلك يعد إفادة ممتازة ، باستحضار المناخ الأثير لدى نجيب محفوظ ، واستثماراً شاباً لاكتشافاته الفنية والإنسانية في أعمال عديدة ، بل ربما كان أسلوب مجيد طوبيا الروائي مديناً لنجيب محفوظ كذلك في توزيع الجمل والتراوح النشط بين السرد والنجوى واللغة القوية الرائعة التي تشف عن الحركة النفسية والمستوى الاجتماعي للشخصيات في نفس الوقت .

الإشارات الأنثروبولوجية

كذلك تتميز مجموعة « أبناء الصمت » باحتوائها على مادة انثروبولوجية غنية . تتمثل في جملة من الإشارات الخصبة للعادات والتقاليد الأصيلة لدى الشعب العربي في مصر . وهي إشارات تدخل حيويا في بنية الأعمال ، وربما تمثل محورها الرئيسي في بعض الأحيان . فالحسد مثلاً محور قصة « إغماض العين » . ومنذ السطر الأول فيها حيث يتحدث الكاتب عن « الغربال » تطالعنا هذه العناصر على الشكل التالي : « ولما كان اليوم السابع . وفيه تناثرت بلورات الملح في الهواء تحرق عين الحسود جاءوا بالغربال فوق الأرض . وفوق الغربال فرشوا حبات الفول لتسد الثقوب بين الأوتار . ومن فوق الفول نثروا حبات الذرة الصفراء . ومن فوقها القمح والأرز والشعير . وقرب الحافة الدائرية بعض الحلوى في أغلفة براقة من لون الذهب ولون الفضة » .

والتي تقوم بممارسة هذه الشعائر لدفع الحسد ناظرة مدرسة القرية . وعندما يلومها زوجها لمبالغتها في الايمان الشديد بالحسد ، مما يكاد يودي بالطفل ترد عليه قائلة : « دعك من مهنتي . هل نسيت الشوطة التي جاءت للأرانب عام أول » فالشوطة وباء يصيب الطيور الداجنة ولا سبب له في معتقدات أهل الريف المصري ـ خاصة في الصعيد الذي يقول « عام أول » ـ إلا ضربة العين الحسود . وهي ترد بوسائل يشير إليها المؤلف أيضا بالتفصيل . من إطلاق البخور المتصاعد من أطباق الجمر . ووضع فردة حذاء قديمة على باب المنزل وغير ذلك من الإجراءات الوقائية لدفع الحسد .

كما أن القصة تحتوي على عناصر أخرى من المعتقدات الشعبية سوى الحسد . منها تأثير القمر الذي يعزى ضرره لمن يدمن التعرض له . فيقول المؤلف « طلع القمر كامل الاستدارة ، بدر شديد النصوع .. فغادرت جدتي الشرفة . مؤمنة بأن إطالة القعود في طلعته تصيب الإنسان بلطشة في العقل » .

ومن الطريف أن نفس هذه الفكرة موجودة في الريف الأندلسي باسبانيا ، وكثيرا ما استخدمها « لوركا » في أشعاره بل إن اللغة الاسبانية تشتق من كلمة « Luna » بمعنى القمر وصفاً هو « Lunatico » يدل على المسرف في الخيال والوهم و « ملطوش » العقل أيضاً .

ويشير المؤلف كذلك إلى بعض التأثيرات الأخرى للقمر في قوله من نفس القصة « في الليلة التي كان القمر يستدير فيها علقت بعض سنابل القمح أعلى الباب وقالت : وهذا يجلب الرزق والخير » ومن الأفكار الشعبية التي يعرض لها مجيد طوبيا في هذه القصة أيضا فكرة « الوحم » . ويلخصها بقوله : « إن الحامل إن اشتهت شيئا ارتسم على بدن مولودها » وخرج على شكل بقعة تحتل نفس المكان الذي تلمسه الحامل من جسمها عند شعورها بهذه الرغبة ، ومن الغريب أنها فكرة مضطردة لم يعرف تفسيرها العلمي حتى الآن . ويختم المؤلف هذه القصة بتلخيص موجز لأسطورة « إيزيس » ودموعها التي تؤدي كل عام إلى فيضان النيل .

وتدور قصة أخرى وهي « الوليف » عن عقيدة شعبية بأن لكل ثعبان وليفا ، وانه لو قتل فإن وليفه يظل يتشمم الناس حتى يعثر على القاتل ولو بعد سنوات ويلدغه انتقاما منه . ويحكي المؤلف قصة صبي قتل ثعبانا بالصدفة . ثم وجدها فرصة لادعاء الشجاعة والبطولة ، وعندما هبط إلى الحارة مختالاً وجد إحدى الجارات تخطو فوق ثعبانه رائحة آتية عدة مرات ، فلما سأل أمه عن سبب ذلك أخبرته بأنها عاقر وتريد أن تلد . ثم وضعت له مجمرة البخور ليخطو فوقه . فلما استنكر ذلك بشدة ونفى رغبته في أن يلد مثل الجارة شرحت له أمه أن البخور لمنع الحسد . وأنه تضع له فيه هذه المرة حبات « الشيح » لأن رائحتها هي الكفيلة بطرد الثعابين ، ومنع الوليف من أذاه . ويلاحظ على كل هذه العناصر أنها تذوب في بنية القصة بشكل تلقائي ، فتقربها من منطق الواقع ، وتضفي عليها صبغة محلية صميمة . فتصبح لوناً من التسجيل الأمين للجانب الباطني في حياة الناس ، ووسيلة لكشف مدى تأثيره على مصائرهم .

لكن مؤلفنا لا يلبث أن يمضي في هذا الاتجاه حتى يصل إلى نوع من التجريد الانثروبولوجي في قصته « دموع » التي تحكي عن شاب كان يعيش في العصر الفرعوني حيث يعتقد الناس بأن دموع « رع » هي التي أدت إلى وجود الكائنات . ويعاني الشاب من الأسى والجوع والحرمان فتنسكب دموعه مدرارا ، فيسأل عمه الكهل الحزين لماذا لا تتخلق من دموعه هو الآخر أية كائنات ، فيجيبه بأن دموع البشر لا تصنع شيئاً ما داموا

منفردين . فإذا اجتمعوا يمكنها أن تفعل وأن تغير . إلا أن الشاب يعجز عن إدراك ما ترمي إليه كلمات عمه . ويمضي إلى شاطئ النهر المقابل لقصر الفرعون حيث يسقط منهكاً من الاعياء . وتلتقطه الأميرة الحسناء في محفتها الفاخرة وتحمله إلى القصر في شبه حلم وردي حيث يطعم ويرتوي وينعم . إلا أنها تلفظه في اليوم التالي لاعتراضه طريقها عندما تهم بالخروج إلى نزهتها اليومية . فيعود إلى موقعه على الشاطئ حيث يبتلعه التمساح المتربص به والذي يعود ، ليسترخي فوق الشاطئ ، وقد تجمعت حول عينيه بضع قطرات بدت تحت أشعة المغيب كالدموع الذهبية بينما عند أقصى غروب الأفق كان « رع » يسارع بإغماض عينيه ليعم الظلام فوق أرجاء المعمورة .

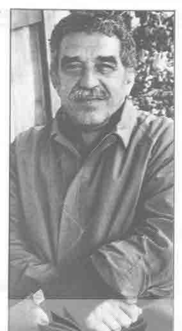
والقصة على إيجازها تحفل بالشاعرية المركزة . والبعث الطريف لبعض الملامح الشاحبة من الميثولوجيا الفرعونية ، دون أن تقوى على تكوين شيء ذي بال من الوجهة الفنية . لمحاولتها المباشرة الهجوم على مشكلتين كبيرتين . إحداهما ذات طابع اجتماعي وهي مشكلة الجوع والأخرى ميتافيزيقية تستعصي على فهم الشاب المسكين . مما يحيلها إلى تجربة تجريدية فقيرة مقحمة على سياق واقعي في جملته . عبر مغامرة خاطفة فيما قبل الزمان والتاريخ . ليس لها من دلالة أخيرة سوى التعبير عن رغبة المؤلف في تجذير انتمائه الأدبي حتى هذه العصور . مما يجعل هذه القصة تلمع وحدها في فضاء المجموعة مثل قطرة الماء التي تعكسها أشعة الغروب حول فم التمساح الكبير .



حرارة العلاقات

يتعدد المنظور الذي يرصد به مجيد طوبيا مجالاته الروائية في هذه المجموعة . إذ يستخدم أسلوب المتكلم في ست منها وضمير الغائب في خمس . وينتقل من البيئة القروية إلى المدنية . ويقترب من أعمار ومهن واهتمامات مختلفة : لكن تياراً دافئاً حنوناً يظل يسري في شرايين عالمه الروائي ينبعث دائماً من شعوره الودي العميق تجاه الآخرين : هذا الشعور المصري العربي الشرقي لا يبرحه لحظة واحدة حتى في أدق لحظات التمرد على الذات ونقد الغير . فالإنسان لديه لا يمكن أن يسعد بالوحدة والانفراد ، ولا تخالجه أدنى رغبة في إزاحة من حوله . فهم الذين يمنحونه وجوده ،إنه دائما يحتضنهم ، معذباً بنفسه وبهم ، لكنه شديد الالتحام بدنياهم . لا يتصور للحياة مذاقاً بدونهم .

وإذا كان معظم الأبطال الذين تدور حولهم قصصه من جيل المؤلف تقريباً فإن شبكة العلاقات العائلية والاجتماعية التي ينسجها حولهم تتراوح دائما في مستوياتها المختلفة بين حب الأمومة الطيب الخالص العميق كما ترى في « منديله » و « شئون عائلية » . والجزع الملهوف من فكرة فقد الابن التي تتجلى في « إغماض العين » والرعاية المحبة الودود في « الوليف » والتضامن الصادق الملهب للحماس في « أبناء الصمت » كما تبرز الأخوة كقيمة عائلية واجتماعية مؤثرة في مختلف القصص . متدرجة من الزمالة القوية في « منديله » إلى لون من التعاطف العميق في « رحيل » ، وتؤدي إلى تشكيل كيان معنوي متكامل في « أبناء الصمت » ثم تصل إلى ذروتها متجسدة في فكرة التوأمين في « شئون عائلية » ..



جارثيا ماركيز

● الشعور الودي العميق تجاه الآخرين لا يبرح الكاتب حتى في أدق لحظات التمرّد على الذات ونقد الغير

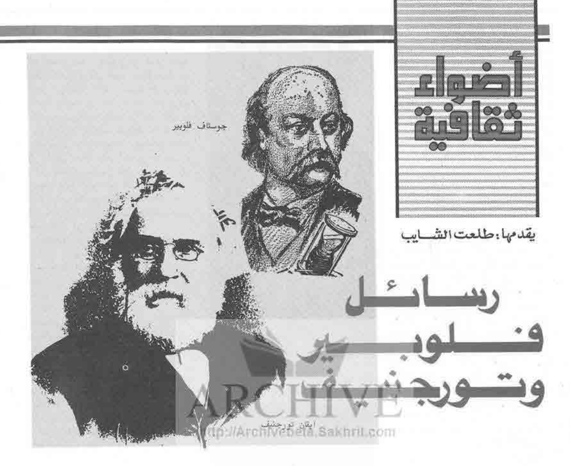
وحتى في الأعمال التي يحاول المؤلف فيها أن ينسلخ من جلده . ليلقي نظرة نقدية على مجتمعه . لا تنطفئ لديه جذوة هذه الحرارة الاجتماعية المتقدة ، ففي قصة « النظرة والابتسامة .. والعمر القصير » التي يحاول فيها نقد التحفظ في العلاقات العاطفية في مجتمعاتنا ، بمعارضته بتجربة الحب الحر السهل في إحدى البيئات الغربية ينزلق مجيد طوبيا إلى السطح . فلا يستطيع رؤية الطبقات النفسية ولا التعقيدات الاجتماعية لهذه البيئات الغريبة عنه وعن مشاعره ، ويظل أسير فكرة وهمية عن أن الناس هناك بهذه السهولة « يعيشون بحق » ، بينما لو أتيحت له فرصة التعرف الحميم على طبيعة حياتهم لكان له منها موقف آخر . وهو على أية حال لا يستطيع أن يكره خطيبته لأنها لا تطاوعه في نزقه وترد يده عنها ، بل لعلها تزيد في قلبه محبة وفي نفسه إعزازاً بما يتضح لديها من خصوبة المشاعر وعمق الممارسة المسئولة للحياة .

وفي محاولة تجريبية أخرى بعنوان « الجاحظون » يغرق مجيد طوبيا في كابوس ثقيل ، يحتد فيه تمرده على نفسه . وتستيقظ لدى بطله بعض مشاعر العداء المخفف تجاه عمله ومن يحيطون به . لكنه يظل يدور في إطار كاريكاتيري عبثي يمعن في اللامعقول . إذ يتابع جثة الغريق وهي تنتقل من نهر إلى بحر . ومن بطن حوت إلى علبة سردين حتى تنتهي الدعابة الثقيلة دون معنى متماسك أو بناء فني منتظم . فيتأكد لدينا أنها تجربة الشذوذ في عالم مؤلفنا الروائي . وأنها ربما كانت تبرز بشذوذها خطوطه الجوهرية المتسقة المفعمة بالود والحنان . وتمثل صورة فريدة من خيط الصور التي يجرها القارئ من هذه المجموعة المتميزة .

صلاح فضل

يقدمها: طلعت الشايب

رسائل فلوبير وتورجنيف



عندما التقى «جوستاف فلوبير» و«إيفان تورجنيف» للمرة الأولى في أحد الأماكن العامة التي كان يتردد عليها الكتاب في باريس عام ١٨٦٣ كانا قد أصبحا بالفعل كاتبين مشهورين يكن كل منهما للآخر إعجابا شديدا قبل أن يراه.

كان فلوبير مؤلف «مدام بوفاري» حينذاك في الحادية والأربعين من عمره، وكانت «سالامبو» قد صدرت له منذ وقت قصير. أما «تورجنيف» فكان في الرابعة والأربعين، وكانت أشهر أعماله حينذاك «آباء وأبناء».

وفي أول لقاء جمع بينهما استشعرا تقاربا فكريا جمع بينهما وإن كانا لم يبدآ مراسلاتهما بانتظام إلا بعد خمس سنوات.

وفي كتاب نشر في أمريكا في الشهر الماضي يضم رسائلهما المتبادلة تتكشف لنا جوانب كثيرة من حياة عملاقين من عمالقة الرواية في القرن التاسع عشر. وخاصة عندما يتقدم بهما العمر ويواجها متاعب الشيخوخة، وتهتز ثقتهما بأشياء كثيرة، وتتنازعهما الشكوك في الأدب وفي العصر كله.

في تلك الرسائل المتبادلة نقأ عن آراء ومشاعر ونزوات فكرية، فعلى سبيل المثال تبادلا نقد زميلهما «زولا»، ولوم الطبقات المتعلمة في روسيا وفرنسا لاعتقادهما أنها فشلت في تحقيق الاصلاح الاجتماعي.

تورجنيف.. «أو ذلك البربري اللطيف كما كان يحلو لأصدقائه أن يصفوه»، يبدو في رسائله إنسانا حكيما متزنا يتجنب بقدر الإمكان التطرف السياسي سواء كان إلى اليمين أو إلى اليسار، ويفضل أن يقوم بدور سلبي في الحياة، فيصف نفسه بأنه مجرد «ضفدعة عجوز تعيش في جحر رطب».

ونجد في رسائله نفس الجو الكئيب الذي يظلل «الحب الأول» و«آباء وأبناء». فهو يائس من مستقبل روسيا، خائب الأمل في الحب وفي الفن، كثير الشكوى من تدهور صحته، وكلها أمور جعلت رؤيته للحياة قاتمة.

كذلك كان فلوبير أيضا يميل إلى التشاؤم في أواخر الأيام، وإن كان تشاؤمه أقل فلسفة وأكثر خصوصية. كانت تحاصره المتاعب المالية والمشكلات العائلية، والقلق البالغ بخصوص عمله الأخير ـ غير المكتمل ـ «بوفارد وبيكوشت»، كما عبر عن ذلك في إحدى رسائله إلى تورجنيف في عام ١٨٧٨:

«أشعر أن هذا العبء يثقل كاهلي، ويبدو أنه لم يعد هناك نخاع في عمودي الفقري... وإن كنت أواصل كما يواصل الشوط جواد بريد عجوز».

إن رسائل فلوبير وتورجنيف المتبادلة بينهما كانت زاداً ثقافيا قدمه كل منهما للآخر طوال سنوات من الصداقة الحميمة.. كما هي زاد ثقافي لقارىء هذه الأيام.

وداعـــاً لكـــل ذلـــك

روبـــرت جريفـــز

١٨٩٥ - ١٩٨٥



صباح السابع من ديسمبر ١٩٨٥ دقت الأجراس على جزيرة مايوركا لحن أغنية حداد قديمة معلنة وفاة روبرت جريفز، الدارس الانجليزى الكلاسيكى «وأحد أربعة، هم أعظم شعراء هذا القرن» كما يقول الشاعر والناقد الانجليزى دينس إنرايت.

وروبرت جريفز كان صوتا متميزا فريدا لم يندفع وراء موجة جديدة ولم يخلف طرزا ثابتة بل كان صاحب عقل أشبه بمختبر الكيميائى تدخل إليه المادة فتخرج بحالة جديدة مختلفة.

كان جريفز (٩٠ سنة) يعيش حياة بسيطة بعيدا عن توترات المجتمع الحديث، وبمنأى عن عواصف العصر، ومنذ أن تدهورت صحته وتوقف قلمه عن الكتابة منذ عشر سنوات كان قد انطوى على نفسه فى عزلة تامة.

روبرت جريفز كاتب غزير الانتاج، متعدد الاهتمامات، ترجم عن اليونانية واللاتينية والفرنسية والألمانية والأسبانية.. وكان يدلى بدلوه فى كل شىء، من عيش الغراب والبطاطا إلى الأساطير، كما يروى عنه.

ضمن موضوعاته الأثيرة تجد «روما الامبراطورية»، «انجلترا كرومويل»، «أسبانيا الفاتحين» و«لورانس العرب».

وكشاعر لم يحاول جريفز أن يوجد لنفسه مكانا بين جماعات الشعراء الجدد الذين ظهروا فى العشرينات والثلاثينات، ولكنه فى سنة ١٩٥٠ وما تلاها من سنوات كان يرى كثيرٌ من النقاد والشعراء والقراء فى أعماله بديلاً لإليوت وأودن.

ولد جريفز فى ٢٤ يوليو ١٨٩٥، ووالده هو الفريد بيرسيفال - شاعر ايرلندى - وأمه ابنة أستاذ ألمانى وتربطها قرابة مباشرة بليوبولد فون رانك المؤرخ الألمانى الشهير.

وعندما نشبت الحرب فى أوروبا قطع جريفز دراسته وتطوع للخدمة العسكرية، وخدم كضابط فى نفس الفوج الذى تصادف أن كان به الشاعر سيجفريد ساسون، والذى شجعه على كتابة الشعر، وقبل أن تضع الحرب أوزارها كان قد أصدر ثلاثة مجلدات.

عاش ويلات الحرب كقائد فصيلة وكقائد سرية على الخطوط الأمامية ورغم شفائه من جراحه إلا أن الرعب ظل يطارده لمدة عشر سنوات بعدها.. «كانت الكوابيس تقض مضجعه، والقنابل تنفجر على فراشه، والجثث والأشباح تملأ الشوارع».

غيرت تجربة الحرب المروعة نظرته إلى العالم، وأصبح يشارك فى الرأى هؤلاء الذين يؤمنون بأنهم ينتمون إلى «جيل باعه الجنرالات وأصحاب الثروة».

تخرج جريفز من كلية سان جون - اكسفورد عام ١٩٢٦ وعين أستاذا للأدب الانجليزى بجامعة القاهرة، التى كانت قد أنشئت حديثا وكان هذا هو العمل الرسمى الأول والأخير له، إذ قرر أن يعود إلى انجلترا فى ١٩٢٧، وعكف لمدة شهرين - ١٨ ساعة يوميا - على كتابة قصة حياة صديقه ت. اى. لورانس T. E. Lawrence المعروفة باسم «لورانس والعرب» والتى كان يباع منها ١٠,٠٠٠ نسخة أسبوعيا فى نهاية العام، وقد حققت له هذه السيرة ثروة لم تحققها أشعاره رغم الترحيب الشديد والاستقبال الجيد الذى كانت تحظى به.

بعد زواجه الثانى فى ١٩٢٩ وقبل أن ينتقل إلى منفاه الاختيارى على جزيرة مايوركا بالبحر الأبيض والتى عاش فيها حتى مات - باستثناء سنوات الحرب الأهلية الأسبانية والحرب العالمية الثانية - كان قد انتهى من كتابة سيرته الذاتية والتى نشرت فى نفس العام (١٩٢٩) بعنوان «وداعا لكل ذلك».

وقد ظل هذا العمل محتفظا بقيمته الأدبية الكلاسيكية لمدة ٥٦ سنة. ومن أشهر أعمال جريفز «أنا كلوديوس» - ١٩٣٤ - وتكملته «كلوديوس» وقد لقيا استحسانا كبيرا كإبراز جيد وجديد وصياغة فريدة للعصور الرومانية بعد أن استطاع فيهما أن يبعث الحياة فى مجموعة قديمة من الشخصيات.

ومن أشهر أعماله التى أثارت جدلا كبيرا فى الأوساط الدينية فى الغرب، كتابه عن المسيح - عليه السلام - (١٩٤٧) وقال فيه إن المسيح لم يمت على الصليب.

وفى ١٩٤٨ أصدر رواية كان موضوعها كما يقول: «تكريس الشعراء أنفسهم للنساء الحقيقيات مهما كان شكلهن»... وفيها يعلن جريفز أن الشعر الحقيقى كله يحتق بجانب من حياتهن.

لمدة ثلاثة عقود من الزمان ظل جريفز شاعر حب وعشق، فأصبحت قصائده أكثر همسا وأكثر بهجة بمرور السنين.. وطوال حياته على الجزيرة كان يزور انجلترا من وقت لآخر ليحاضر فى كمبردج عن الشعر (١٩٥٤) ويفتح النار على كل المحدثين.. بيتس، إليوت، أودن، د. هـ. لورانس، ويحاضر فى أكسفورد (١٩٦١ - ١٩٦٦) وليتسلم ميدالية الملكة الذهبية للشعر (١٩٦٨) وليزور كلية سان جون التى درس فيها وتخرج منها فى أيام الشباب الأول.

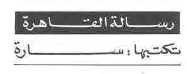
وجريفز كان يرى نفسه شاعرا أولا وأخيرا، فإذا كانت الكتابة هى قدره الذى لا فكاك منه (١٣٠ مجلدا على مدى أكثر من نصف قرن) فإن كل كتاباته النثرية لم تكن سوى «كلاب يربيها ويبيعها لينفق منها على قطته المدللة.. الشعر...!».

«تقول جريدة «صنداى تايمز» (Sunday Times) العدد الصادر فى ٨/١٢/٨٥ إن الرئيس الراحل جمال عبد الناصر كان من بين طلاب جريفز فى جامعة القاهرة.

الدوحة

تواصل فتح الحوار حول:

أزمة المسرح العربي



● شهادتان جديدتان من : سميحة أيوب وعبدالله غيث

● مسرحية "التربيع والتدوير" لعزالدين المدني من تونس تثير ضجّة فنيّة واسعة عند عرضها بالقاهرة

● علي سالم يقوم بإخراج مسرحيته الجديدة "الكلاب وصلت المطار" فماذا كانت نتيجة التجربة ؟!

● مسرحيتان لهما طعم متميز جدًّا "الهلالية" ليسري الجندي و"هنا عرايس بتترص" لصلاح عبدالسيد


سميحة أيوب


عبد الله غيث

نشرت الدوحة في عدد ديسمبر ١٩٨٥ وعدد يناير ١٩٨٦ الحلقتين الأولى والثانية من هذا التحقيق الواسع عن أزمة المسرح العربي ، كما تبدو هذه الأزمة في مواقع الساحة المسرحية العربية في مصر .. وهذه هي الحلقة الثالثة من هذا التحقيق الفني الواسع ، وفي هذه الحلقة نستمع الى شهادة الفنانة الكبيرة سميحة أيوب مديرة المسرح القومي ، والفنان الكبير عبد الله غيث .. وفي العدد القادم ننشر الحلقة الأخيرة من هذا التحقيق .

المحطة الأولى :

« أكلكم ضيق ، شرابكم ضيق ، مرتبكم ضيق ، تفكيركم ضيق ، مطمحكم ضيق ، أفقكم ضيق ، عدلكم ضيق ، موتكم ضيق » .

« هذه هي شكوى العبد الفقير إلى ربه تعالى أحمد بن عبد الوهاب للخليفة الواثق بالله العباسي ، أيده الله ، يرفعها بعين باكية دامية هتانة ، وبفؤاد مفجوع مهموم ، يقطر لوعة وأسى وحسرة وأسفا إلى رب العالمين العادل المنصف ، الحكم الحكيم الرحمن الرحيم ، ويرفعها كذلك إلى مجلس المظالم وقضاته السادة النجباء الجلة الفضلاء ، كتب دفاع الشاكي ونحيبه عزالدين المدني العربي الأصل من تونس الخضراء ليلاطم ويقاوم ويعارض رسالة مولانا الأديب سيال الحبر « أبو عثمان عمرو بن محجوب » المعروف بالجاحظ في القرن الثالث للهجرة في هجاء أحمد بن عبد الوهاب » .

هذه هي الصرخة المغموسة بأحزاننا جميعاً التي دوت في أرجاء قاعة « صلاح عبد الصبور » بمسرح الطليعة في مصر ودوت من قبل في مهرجان قرطاج في تونس ، صرخة تقف على حافة الجنون ونهاية العقل ، ويقف معها كما أشار محمد عثمان « أحمد بن عبد الوهاب يتأجج بالغضب ويضطرم صدره بنيران الحقد المخيف .. « التربيع والتدوير » مرثية طويلة شديدة الحزن للإنسان الذي يضيع نفسه ولا يكسب العالم ، ولذا يصبح كل ما يمثله الجاحظ قذى في أعينهم لأن ضميرهم الملتهب الذي يجب التخلص منه وتمزيقه حتى تستريح نفوسهم الخربة ، ولقد نجح سمير العصفوري ــ المخرج ــ في إحالة هذه المرثية الطويلة إلى عرض مسرحي متكامل من خلال استخدام بعض المؤثرات الصوتية وديكور متناهي البساطة ، وتعديلات قليلة في النص ، وإضافة قصيرة في المقدمة ، وحركة نسجت بذكاء محسوب ، فأعطى لهذه القطعة الأدبية حياة كاملة ، ونجح مع الفنان « أحمد ماهر » في السيطرة على إيقاع العمل ، وأكد الفنان « أحمد ماهر » خلال الـ ٧٥ دقيقة التي استغرقها تقديم هذه المونودراما تمكنه من الشخصية وفهمه لجزئياتها » .

لقد شهد كل من رأى العرض بتميزه وتفرده وبنجاح الثلاثي سمير العصفوري وأحمد ماهر ومهندس الديكور مصطفى الشرقاوي الذي استطاع بديكوره البسيط والمعبر والشديد الذكاء أن ينقلنا حال دخولنا القاعة إلى جو المسرحية الخاص ، والأهم أنه لم يتجاوز رؤية المخرج والمؤلف ، بل شكل معهما اتحاداً فكرياً وفنياً يحتمل ويحوي الإضافة الثرية لتحديد الرؤية وإيضاحها وتقديمها بلمسة فنية راقية وكما كانت قدرات الفنان أحمد ماهر المميزة مفاجأة متجددة للروائي والكاتب الصحفي محمد جلال كما أشار في افتتاحية مجلة الإذاعة والتليفزيون ، كانت كذلك أيضاً مفاجأة للكاتب الصحفي مفيد فوزي والذي قال : « وللعصفوري المحلق دائماً . بطل واحد يمثل مونودراما على مدى ساعة ونصف كأنه يعزف على جيتار ويمس قلبك ، ويسكن بأشجانه داخل الضلوع ، هذا هو أحمد ماهر ممثلاً ، هذا هو القنوع بأقل من مائة متفرج لكنه شديد الثراء بالإحساس ، لقد وقف بعض الحاضرين يصفقون له ، ومنهم أنا بحماس بالغ ، فكان ينحني وهو غائب لأنه لم يستطع أن يخرج بعد من إهاب الشخصية ، لقد فرحت بالثنائي العصفوري وأحمد ماهر مثلما فرحت بكرم النجار وسناء جميل وأحمد زكي » .

المحطة الثانية :

مسرحية « الكلاب وصلت المطار » والتي قال عنها كاتبها ــ في حوار نشر في العدد الأسبق من الدوحة ــ بأنها ستكون ثورة حقيقية في المسرح العربي .. عند مشاهدتي للعرض لم أفاجأ بالمقاعد الخالية ، وقد برر لي « علي سالم » ندرة المتفرجين بأن الظروف أجبرته على اختيار موعد ومكان غير مناسبين للعرض ، وأن قيمة هذه المسرحية لن تعرف إلا بعد مرور فترة من الزمن (!) وفي رأيي الخاص أن المسرحية لا تحمل أي ملمح من ملامح الثورة ، وإن كان يحسب لمؤلفها إصراره وتحديه على أن يخرج هذا العمل « النظيف » بوجوه شابة وسط مناخ مسرحي غير سليم ، وأن يكون هو المنتج والمخرج والممثل أيام « الزنقة » وفي اعتقادي أن خطأ علي سالم الجسيم أنه أحاط المسرحية بهالة ضخمة من خلال تصريحاته للصحف والمجلات جعلتنا نتوقع ونطمح في أن نرى عملاً فذاً ونادراً ، ولذلك كانت خيبتنا بقدر توقعاتنا الكبيرة التي خلقها وضخمها بتصريحاته ، والمسرحية كما قالت عنها عبلة الرويني : « مغامرة لا يستند فيها علي سالم إلا على إبداعه فقط كمؤلف مسرحي » وقد أخطأ علي سالم بإصراره على دور المخرج حيث لم يسمح لأي عنصر فني آخر أن ينافس النص ويطاول قامة المؤلف فيه ، فسقط منه الإيقاع وفقد العرض حيويته ، وتعامل بشكل مباشر مع مفردات اللغة دون تجسيدات بصرية ، ونسي تماماً الإضاءة ، وتعامل مع ديكورات هزيلة وملابس وإكسسوارات فقيرة ، ثم اختار مجموعة من الممثلين معظمهم يقف للمرة الأولى على خشبة المسرح فظل النص ــ برغم اجتهاداتهم ــ أكثر بريقاً منهم » .

المحطـــة الثالثـــة :

مسرحية « الهلالية » ليسري الجندي الحائز على جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٨١ ، وهذه المسرحية المميزة تعتبر امتدادا لمسرحياته المستوحاة من التراث الشعبي وهو في محاولاته لتأصيل شكل مسرحي عربي استطاع أن يحتل مكاناً هاماً بين كتاب المسرح المصري والعربي المهتمين باستلهام التراث ، وقد قام المؤلف كما كتب سامي خشبة « بالمزج بين ما هو تاريخي وموروث في السيرة الأصلية وبين ماهو معاصر ، وقد ركز على معنى مأساة الصراعات الداخلية للأمة ، ونتائجها الفادحة بالنسبة لمستقبلها ، وشبع هذا الجانب بالخطوط الدرامية الأصلية التي تبدأ من موقف كل شخصية فتتشابك مصائر الأبطال مع مصير الجماعة ، وخفف المؤلف من التوتر المأساوي وتجنب الخطب الطنانة عن طريق العنصر الفكاهي وهو في نفس الوقت عنصر التعليق الساخر » أخرج المسرحية الفنان القدير عبد الرحمن الشافعي ، والذي أعترف ــ وهذا أول عرض أشهده له ــ أن أسلوبه في إخراج العرض كان مفاجأة لي بما حواه من ثراء في الإحساس وتدفق فني راق ينبض بالحياة ، مفاجأة لم أتوقعها بعد خيبات متكررة في

أزمة المسرح العربي

عروض مسرحية كثيرة ، وعبد الرحمن الشافعي كما قال عنه علاء دواره « المتخصص الأول في المسرح الشعبي أو السامر الشعبي » وهو يحاول أن يعقد قراناً بين النص والراوي الشعبي الأصلي ويرد السيرة إلى أصولها ، لذلك ذهب إلى صعيد مصر وأحضر رواة السيرة الأصليين ومجموعة شعراء الربابة حيث يصبحون القاسم المشترك الهام في أداء العرض لتأكيد تأصيل السيرة الشعبية . وبالتأكيد كانت « الهلالية » المسرحية الأولى التي شعرت فيها بمعنى الإستمتاع الحقيقي بالمسرح ، لذلك لم يدهشني امتلاء المقاعد في مسرح السامر ، كان المخرج بطلاً صفقنا له بحرارة كما صفقنا للمؤلف ، وكما صفقنا أيضاً بحرارة لمجموعة الممثلين الجديرين بإعجابنا وتقديرنا ، ابراهيم عبد الرازق ، عزيزة راشد ، محمد الطوخي ، جمال قاسم ، فاروق عطية ، مصطفى القط ، وآخرين استحقوا تصفيقنا الحار .

المحطة الرابعة :

مسرحية « هنا عرايس بتترص » والتي أغراني صديق بمشاهدتها بقوله : « إنها أشبه بقطعة الدانتيلا المشغولة بنعومة وفن » ، ولقد كانت كذلك بالفعل دون أدنى مبالغة ، مسرحية تخاطب عقلك وعينيك وأذنك ، تحتويك بنعومة ، وتدينك بنعومة ، وتعاتبك بنعومة ، وتستحثك بنعومة ، وتنتزعك من طمأنينتك بنعومة .

« هنا عرايس بتترص » صرخة هامسة ، لا تلجأ للضجيج ولا إلى رفع الشعارات ، وهي أيضاً نموذج راق للبطولة المسرحية الجماعية ، التي تمثلت في نص المسرحية المميز ، وفي إخراج جلال توفيق المتقن والمعبر ، وفي الديكورات البسيطة والموحية التي نفذها مجدي رزق بالاضافة إلى أشعار كمال عمار وموسيقى وألحان عبد العظيم عويضة واستعراضات مجدي رزق ، والبطولة كانت لأحمد عبد الوارث ومديحة كامل وسامي العدل ، والمسرحية كما كتب خيري رمضان « صرخة واعية في زمن غاب الوعي فيه ، وصرخة احتجاج ضد تغلغل القوى العظمى في مصير الدول النامية ، فهي لا تمنح بدون مقابل ــ كما تقول المسرحية ــ فإنها تحول هذه الدول إلى عرائس تحركها كما تريد ، وصلاح عبد السيد هو العراف الذي جاء ليخبرنا بما سيحدث ويحذرنا منه ، والمسرحية تحمل رفضاً لفكرة السفر للخارج وعواقبها الجسيمة سواء في الانحلال الأسري أو الفكري ، كما أنها تحذر من الانفتاح الاستهلاكي الذي سيستهلك كل القيم والمبادىء » .

و.. يبقى أن أقول إن موقف كاتبها صلاح عبد السيد وإصراره على مقاومة كل عوامل الإحباط لكي تخرج هذه المسرحية إلى النور بعد عامين من العراقيل موقف يستحق التقدير والاحترام .

و....

ينتهي تجوالنا .

لِنُصْغِ إلى آراء نجوم المسرح المصري حول ما سمي بأزمة المسرح المصري وإلى شهادات فنانيه .



سميحة أيوب :

● أغزر وأهم سنوات حياتي المسرحية هي السنوات الممتدة من ١٩٦٢ إلى ١٩٦٨

● التمثيل بالنسبة للجيل الجديد أصبح سلعة يشتريها من يدفع أكثر

« بعيداً عن البدايات التاريخية فإن البداية الحقيقية المتوهجة للمسرح المصري كانت في الستينات ، وهي بداية أصيلة مرتبطة ارتباطاً مباشراً بأصالة وإنجازات ثورة ٢٣ يوليو ، وبالمناخ الثقافي والفني والسياسي الذي ساد في تلك الفترة ، ويكفي للدلالة على مدى مساندة الثورة للحركة المسرحية منح الممثل ولأول مرة وساماً تقديراً لجهوده ، وبكل فخر أستطيع أن أقول إنني أعتبر نفسي إبنة لمسرح الثورة ، وأستطيع أن أقول أيضاً أنني لو ظهرت في مرحلة أخرى غير مرحلة الثورة ما وجدت سميحة أيوب بكل تاريخها المسرحي ، ومرحلة الستينات هي أغزر وأهم سنوات حياتي المسرحية وبالتحديد منذ عام ١٩٦٢ إلى عام ١٩٦٨ .

« كل ذلك الوهج والثراء الذي صاحب الحركة المسرحية في الستينات تعرض للأفول بعد النكسة ، وهذا أمر طبيعي ، ولكننا لا نستطيع أن ننكر ظهور مسرحيات مميزة عبرت عن تلك المرحلة القاتمة في حياتنا مثل مسرحيتي « سبع سواقي » و« المسامير » لسعد الدين وهبة .

● الكاتب المسرحي مظلوم لأن غياب الممثلين المبدعين عن الساحة يدفعه إلى تقديم تنازلات مستمرة

● تليفزيونات العالم العربي تمتص طاقات الممثلين الموهوبين

● مسرحية "لعبة الزمن" هي صورة طبق الأصل من مسرحية تيمور "كليوباترا في خان الخليلي"

● بداية الصحوة المسرحية في مصر مسرحيتان هما: "الوزير العاشق" لفاروق جويدة .. و"منين أجيب ناس" لنجيب سرور

• أزمة المسرح المصري تنحصر في الوضع الاقتصادي للممثل .. لقد تحول التمثيل اليوم على يد الجيل الجديد إلى سلعة ، ولم يعد يحتفظ بجلال وقيمة العمل المسرحي إلا شوامخ المسرح وهم قلائل ، والذين مازالوا يمارسونه بعشق وهواية وإيمان ، أما الجيل الجديد فالتمثيل بالنسبة له سلعة ، حلوة ، يمنحها لمن يدفع أكثر ، وهذا ليس إدانة لهم بقدر ما هو إدانة لظروفهم الاقتصادية ، نحن جيل يختلف عنهم اختلافاً كبيراً في ظروفنا وأساتذتنا وتربيتنا المسرحية وفي المناخ الذي نشأنا ونمونا من خلاله .

• الكاتب المسرحي مظلوم لأن غياب الممثلين المبدعين عن الساحة يدفعه إلى تقديم تنازلات مستمرة حتى يظهر العرض بممثلين أقل كفاءة ، والنتيجة سقوط العمل ، حياتنا المسرحية ثرية بالمخرج والمؤلف المميزين ، ولكن الأزمة هي في غياب الممثل الذي تمتص طاقته تليفزيونات العالم العربي ، ولكنني واثقة من عودتهم لأن حمى المسلسلات بدأت تخفت ، وسوف يعودون إلينا وسيزدهر المسرح من جديد .

• اختيار المكان الذي تعرض عليه المسرحية عامل أساسي في نجاحها أو فشلها ، فلو عرضت «الوزير العاشق» في المسرح العائم لكان مصيرها الفشل لأن جمهور هذا المسرح جاء ليتفرج ويتسلى ، وهناك مسرحيون يمتازون «بقرون إستشعار» وهناك مسرحيون يتحصر إحساسهم فقط بعملهم الفني دون الإحاطة بالظروف المحيطة به ، وأنا أعتبر نفسي من النوع الأول ، أعرف بدقة شديدة متى وأين يجب أن تعرض المسرحية .

• قبل تقديم «الوزير العاشق» كنت ضمن من يتهمون الجمهور بفساد ذوقه ، وقد وافقت على تقديم هذه المسرحية لإراحة ضميري الفني ، ولكي لا يقال إننا تركنا الساحة للغث والرخيص ، وقد قلت لعبد الله غيث إن «الوزير العاشق» ستعرض فقط لثلاث ليال ، وكانت المفاجأة ذلك الإقبال الجماهيري الذي كذب ظننا والذي أدركنا خلاله أن جمهورنا «مازال بخير» .

• «الوزير العاشق» كلمة ملتهبة وصادقة وصلت للناس لأنها لمست جرحاً في نفوسهم ، صحيح أنها ليست مسرحية متكاملة بالمعنى الدرامي ، ولكن لي رأيي الخاص الذي يخالف رأي المثقفين في الشروط الدرامية التي يجب أن تتوفر في العمل المسرحي ، فهناك مسرحيات توفرت فيها كل شروط العمل المسرحي الناجح ولكنها فشلت لأنها عجزت عن الوصول للناس ، في لحظة من اللحظات وفي سنة من السنوات نحن بحاجة إلى عمل مسرحي مباشر بعيد عن التكلف والرموز ، يستند على الكلمة الحارة الصادقة التي تصدم الناس وتستفزهم وتدفعهم للتفكير وهذا ماحدث في «الوزير العاشق» ... فلتكن المسرحية كما قال البعض مجرد خطابة أو حتى مقالة . لكن الأهم أنها وصلت لكل الناس .

• لم أحاول كمديرة للمسرح القومي تحجيم أي كاتب ولامحاربة أي مسرحية ، لأن نجاح أي مسرحية يعني نجاحي كمديرة مسرح ، وشهرة أي كاتب مسرحي لاتجبرني على قبول عمل أنا غير مقتنعة به ، وأنا لست «الحاكم بأمري» فهناك لجنة قراءة هي التي تقرر ، ونتناقش لاختيار الأصلح ، كوني مديرة مسرح هذه أمانة ، وأنا عندي فلوس حكومة ، وجمهور يجب أن أحرص عليهما .

• مسرحية نعمان عاشور «لعبة الزمن» لاتصلح للعرض في هذه المرحلة ، قد تصلح مستقبلاً ، كما أنني وجدتها تكاد تكون تقريباً صورة طبق الأصل من مسرحية «كليوباترا في خان الخليلي» لمحمود تيمور ، ولست أنا التي رفضت تقديمها فقط ، بل إن جميع المسارح رفضتها ، وقد قدمت في الكويت وفشلت كما كتبت الصحف هناك .

• كمديرة مسرح لاأواجه أية مشاكل ، أستطيع العمل في حدود إمكانياتي ، ولكن أكبر وأقصى مشاكلي مع الممثل الذي يتخلف أو يرفض العمل ، أنا لم أفكر في إتخاذ أي إجراء قانوني ضد الممثلين ، ولكن بكل أسف سوف أضطر لذلك إبتداء من هذا الموسم والذي سوف أفتتحه بمسرحية «مجنون ليلى» تليها «لعبة السلطان» للدكتور فوزي فهمي وبعدها «رجل في القلعة» لأبي العلا السلاموني ، ولكن ميزانيتي حالياً تغطى نفقات مسرحية واحدة .

• أستطيع أن أقول بأنني «وأعوذ بالله من أنا» قدمت جيلا جديدا من الكتاب المسرحيين الجديدين مثل د . فوزي فهمي ، د . سمير سرحان ، لينين الرملي ، يسري الجندي ، منصور مكاوي ، وسوف أقدم أبو العلا السلاموني ، ومن المخرجين قدمت توفيق عبد اللطيف ، فهمي الخولي ، شاكر عبد اللطيف ، عبد الغفار عودة ، وقد لامني بعض أساتذتي الزملاء على حماسي وتقديمي لهم ، واتهموني بأنني أخوض مغامرة خاسرة ، ولكنني كنت مدركة وواعية بأن هؤلاء الكتاب ، والمخرجين يتميزون بموهبة حقيقية ، وحس فني عال ... بالنسبة للممثلين فلدينا جيل جديد عظيم ، وهناك عدد كبير منهم لم يحظ بعد بفرص كافية للشهرة واللمعان ، أما أميز المسرحيات التي قدمت خلال السنوات الخمس الأخيرة فهي «الوزير العاشق» «ومنين أجيب ناس» وهما بداية الصحوة المسرحية ، أما بالنسبة لمسرحية «عرابي» التي كتبها عبد الرحمن الشرقاوي فأنا لا أستطيع الحكم عليها لأنني لم أشاهدها بسبب وجودي خارج القاهرة أثناء عرضها ، ولكني سمعت أن بطلها أحمد ماهر والمجموعة التي قدمت العمل كانوا متفوقين في أدائهم ، وسمعت أن الإخراج كان ضعيفاً .

• أهم قرارات يجب أن يتم اتخاذها لإنقاذ المسرح تقديم ميزانية تسمح لي بإرضاء الممثل والمؤلف لكي لايهربا مني إلى إغراءات التلفزيون ، وتنفيذ القرار الصادر منذ عشر سنوات بإنشاء بيوت مسرحية مستقلة ماديا وفنيا وإداريا .

أزمـة المسـرح العربـي



عبـدالله غيـث :

● ليكن مسرحنا واقعيـاً حتى لو كان مباشراً

● النصوص المسرحية هايفة .. والسينما أكثر هيافة

● التليفزيون يختلف .. فقد قدمت فيه "ابن تيمية" و"موسى بن نصير" و"طارق بن زياد".. وغيرها من الأدوار العظيمة

● أصابني الإحباط والاكتئاب بعد إلغاء مسرحية "الحسين" فاتجهت للمسرح التجاري !

● أنور وجدي كان من الممكن أن يظهر في عصر فاروق ، أما أنا فلم يكن بالإمكان أن أظهر إلا في عصر عبد الناصر ، حيث أصبح وجهي مقبولاً عند جماهير الفن الجديدة

● مسرح الستينات مرتبط بشخصية الزعيم العظيم عبد الناصر الذي فجر الكبرياء العربي ، وبفضله تغيرت مفاهيم كثيرة ، ولولا شخصية البطل عبد الناصر ماظهرت شخصية البطل عبدالله غيث في المسرح والسينما والتلفزيون ، لأن مفهوم البطل نفسه قد تغير ، قبل عبد الناصر كانت صورة البطل محددة بـ « الواد الحليوه » الشيك الحبوب « كأنور وجدي مثلا . لأنه كان على رأس القائمة » واحد اسمه فاروق ، إنسان لايشبهنا في شيء ، لذلك كان البطل أيضاً من نفس النوع وعلى نفس الصورة ، وبظهور عبد الناصر تغيرت صورة البطل ، أصبح فلاحاً ابن فلاح ، لونه لون التربة ، فظهر جيل عبدالله غيث ، وفي ظل ٢٣ يوليو ، في ظل ذلك الكبرياء العربي العظيم ازدهر المسرح ووقفنا أبطالاً شامخين على خشبته ، وعندما غاب البطل وخفتت الروح الوطنية ، انطفأ كل شيء في حياتنا .

● بمعنى آخر فإن ازدهار الفنون مرتبط ارتباطاً وثيقاً بفترة الألق السياسي والاقتصادي وبالذات في مرحلة الانتفاضات الوطنية العظيمة ، فكل انتفاضة تخلق كوادرها الفنية ، ثورة ١٩١٩ أفرزت لنا عملاق الموسيقى سيد درويش وأم كلثوم وعبدالوهاب ويوسف وهبي وزكي طليمات وعلى صعيد آخر أفرزت لنا طه حسين وتوفيق الحكيم وزكي مبارك وهذا ماصنعته ثورة ٢٣ يوليو أيضاً حينما خلقت جيلا جديدا من العظماء في مختلف المجالات .

● البدايات المسرحية العظيمة تخلق جيلا مسرحيا عظيما ، كان من حظي أنني وقفت على خشبة المسرح ولأول مرة كممثل محترف عام ٥٦ في مسرحية « دنشواي الحمراء » أثناء العدوان الثلاثي حيث كنا نقدم مسرحيات وطنية في حفلات نهارية تشحذ الروح القومية ، لقد فتح باب المسرح القومي مجاناً للجمهور . وكانت تلك بداية المسرح القومي ولا أعني به المسرح القاهري ولكن المسرح العربي النضالي .

● في الستينات كنا نقدم في الإسكندرية موسماً مسرحياً يستمر

ثلاثين ليلة ، كل ليلة مسرحية جديدة ، كانت جميع الأجيال تعمل جنباً إلى جنب ، هذا لم يعد يحدث الآن .

• السبعينات كانت فترة التمزق العربي ، ترهلت الحياة السياسية فترهلت الحياة الفنية ، في تلك المرحلة كنا نبحث عن نصوص تعبر عن همومنا وقضايانا المتشعبة فلم نجد ، فلجأنا إلى المسرح العالمي المترجم ، وأنا لست ضد اللجوء إليه ، لأنه هو المسرح الحقيقي ، مسرح أساتذتنا الذين يجب أن نتعلم منهم ونقدمهم بين الحين والآخر ، ولذلك ظهرت مسرحية « فيدرا » عام ٧٦ . وكانت مسرحية عظيمة لاقت نجاحاً عظيماً لأن الجمهور كان متعطشاً لعمل جاد بعد أن إكتسح اللون المسف الرخيص كل المجالات الفنية ، ومن يومها توقفت عن تقديم أي عمل مسرحي على الرغم من تشوقي للوقوف على خشبة المسرح ، لقد رفضت كل النصوص التي قدمت إليّ لأنها كانت نصوصاً هزيلة .

• حتى جاء عام ٨٤ عندما قدم لي « فاروق جويده » مسرحيته الأولى « الوزير العاشق » ووجدتها كلمة جريئة جداً ، صرخة احتجاج عنيفة ضد الواقع العربي المتردي ، لم أهتم إذا كانت المسرحية تخضع للقواعد الدرامية أم لا ، ماهمني هو ما أحسسته فيها من صدق وقوة . أنا لم أكن أمثل فيها ، ولم أخضع أدائي لقواعد الأداء الدرامي ولكني كنت أصرخ موجوعاً . لقد اعتبرت نفسي في هذه المسرحية مقاتلا بالكلمة إلى جانب من يقاتلون بالبندقية

• لا أدري ماذا حدث لكتابنا الكبار . هذا مايحيرني . هل انتهوا ككتاب ؟ ألفريد فرج أعظم من كتب للمسرح يعيش في لندن « ماعرفش بيعمل إيه » ولكن قطعاً وهو على أرض غريبة لن يكتب وإن كتب فلن يكون صادقاً لأنه بعيد عن مشاكلنا « اللي إيده في المية مش زي اللي إيده في النار » و.. يوسف إدريس توقف ، ومسرحيات سعد الدين وهبه الأخيرة ليست بمستوى مسرحياته الأولى . أين سعد الدين وهبه صاحب المحروسة وسكة السلامة وكوبرى الناموس التي حقق فيها المعادلة الصعبة في الفن بالجمع بين جماهيرية العمل والفن الجاد ، ولطفي الخولي في الستينات كتب « قهوه مصر » و « القضية » لكن « هو دلوقتي فين » وميخائيل رومان مات ، ونجيب سرور مات . قحط . قحط كامل في النصوص . هذه هي الأزمة الحقيقية .

• عام ٧١ قدمت أعظم أدواري سواء في المسرح أو السينما أو التلفزيون شخصية البطل في ملحمة الشرقاوي الشهيرة الحسين ثائراً وشهيداً ، لقد بلغت درجة عشقي لهذه الشخصية أنني كنت على إستعداد للإعتزال بعد تقديمها ، لقد تفرغت لسيد الشهداء وإمام الملتزمين سبعة شهور لدرجة أنني أفلست واضطررت لبيع عربتي وعشت بثمنها ، ولكن الأزهر فاجأنا باعتراضه على تقديم المسرحية ، ولكي لاتضيع جهودنا سدى تحايلنا بذكاء وفتحنا الأبواب للجمهور بدعوى إجراء بروفات ولمدة شهر كامل وكان الواقفون من الجمهور أكثر من الجالسين ، بعدها أصبت بحالة اكتئاب وتخبط مما دفعني للاشتراك في مسرحية « هلس » في القطاع الخاص في الاسكندرية ، كانت محاولة للهروب من الاحساس بالإحباط الذي حاصرني كنت أغني وأرقص ولمدة ثلاثين ليلة ، لقد قلت لنفسي بما أن كل محاولة منا لتقديم عمل عظيم وجاد تصادر ، فلا مانع أن نهلس زي غيرنا .

ملحوظة إعتراضية :

قال لي الكاتب الكبير عبد الرحمن الشرقاوي إن المسرحية سترى النور قريباً بعد أن وافق الأزهر على تقديمها .

• الأزمة أيضاً أزمة حرية ، وأعتقد أننا في مرحلة الثمانينات بدأنا نحس بانفراجة حقيقية وهذا ليس مجاملة لأي نظام ولا لأي حاكم ، لكنها حقيقة ويجب الاعتراف بها ، ودليلي على ذلك تقديم مسرحيات كانت مصادرة مثل « الوزير العاشق » « ومنين أجيب ناس » .

• نحن بحاجة لمسرح خاص يهز هذا الكيان الهامد والتردي الاجتماعي ، لسنا بحاجة لمسرح ذهني ولا لتطبيق مذاهب المدارس المسرحية الحديثة ، التي تبحث عن متفرج مدلل لايعاني . ليكن مسرحنا مسرحا واقعيا « وإن شاء الله يكون حتى مباشر » .

• التلفزيون هو النافذة الوحيدة التي أستطيع أن أقدم من خلالها فنا أرضى عنه . أقول ذلك عن تجربة شخصية . فالنصوص المسرحية « مايفه » وما يعرض عليّ في السينما « أكثر هيافه » أما التلفزيون فقد قدمت فيه ابن تيمية ، موسى ابن نصير ، طارق بن زياد ، وغيرها من الأدوار العظيمة .

• بالنسبة للجيل الجديد فهناك من الكتاب يسري الجندي وأبو العلا السلاموني ، ومن المخرجين منير مراد وفهمي الخولى وتوفيق عبد اللطيف ، أما بالنسبة لجيل الممثلين . فهناك جيل عظيم يثبت أن هذه الأرض قادرة على العطاء بسخاء وعظمة منهم مثلاً أحمد ماهر « وأحمد من السكة بتاعتنا » ومحمود مسعود وإبراهيم يسري وغيرهم كثير .

• الأمل في تحقيق فكرة البيوت المسرحية بحيث يكون لكل فرقة مجموعتها الادارية والفنية والتي يديرها مكتب فني يتكون من الفنانين أنفسهم وتكون له الصلاحيات المادية والفنية بعيداً عن الروتين الحكومي ، وأن تكون الرقابة من داخل البيت المسرحي ، وهذا لايعني أنني أطالب بإلغاء الرقابة ، ولكن لابد أن تكون من داخل البيت ممثلة في عناصر تنضم إليه من الكتاب والأدباء ، ومع ذلك يجب أن أعترف أن يد الرقابة قد ارتفعت عنا مؤخرا إلى حد كبير .

سـارة

في العدد القادم شهادات : فؤاد دوارة ، فاروق عبدالقادر ، محسنة توفيق ، أحمد ماهر ، سامي خشبة .



قمة الجمال في الخط العربي

بقلم: الدكتور حسن عبد المجيد المعايرجي

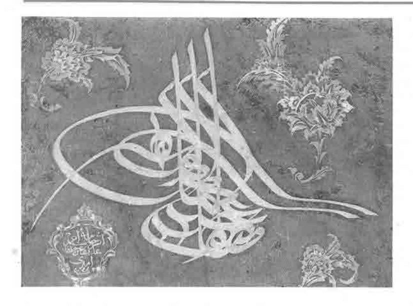
الطغراء، ذلك الشكل التجريدي، والذي أعتبر قمة جمالية من جماليات الخط العربي، لا يتقنه إلا خطاط قاصد. وكان الطغرائي يعتبر واحدا من أصحاب المناصب الستة الرفيعة في البلاط العثماني.



طغراء محمد الثاني



طغراء بايزيد الثاني



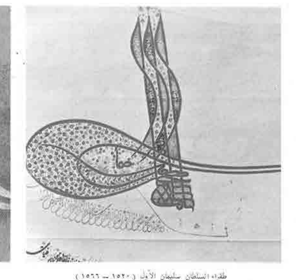
طغراء السلطان مصطفى الرابع
(١٨٠٧ – ١٨٠٨)

إن أصل كلمة طغراء غير معروف على وجه التحديد ، ويبدو أنها ليست من أصل تركي وقد تكون مشتقة . كما ذكر محمود بن حسين الكشغري في ديوان لغات الترك ، من كلمة طغراغ أو من كلمة طغراي ، وكاتب الطغراء يسمى طغرائي . وذكر « زنكر » الألماني في قاموسه « تركي – عربي – فارسي » أن الكلمة قد تكون تحريفا لكلمة ترغاى التركية (الشرقية) بمعنى « الواقف » أو « المرفوع » أو المنتصب » . وقد تكون تحريفا لكلمة طغرل بمعنى صقر ، أو طائر أسطوري كان يقدسه سلاطين الأوغوز ، والطغراء ظل جناح هذا الطائر .

وورد في الموسوعة الاسلامية ذكر كلمة « طوغ » أو « طغ » بمعنى شعر الخيل ، وعند التتار هي الشارة من شعر ذيل الحصان . فقد كانت الجيوش ترفع خصلة من ذيل الحصان على عصا منتصبة في المقدمة ، كما أنها تطلق على خصلة الشعر التى تشبك في دبوس مرصع وترشق في عمامة « الخاقان » .

وهذه الطوغ التى تثبت على العمائم فوق الرؤوس هي شارة عز ، وتدل على المكانة الرفيعة . ولعل المقولة العامية « على رأسه ريشة » ، والتى تستعمل للدلالة على التعالي ، لها علاقة بالطوغ المثبتة على عمائم السلاطين والخاقانات والأمراء .

وقد تكون الطغراء كتوقيع سلطاني مكتوبة على الوثائق ، نظيراً للطوغ كشعار سلطاني مرفوع على العمائم . وكلمة طغراء تساوى النيشان الفارسية ، أو التوقيع العربية . وهي



طغراء السلطان سليمان الأول (١٥٢٠ – ١٥٦٦)

طغراء السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ – ١٨٠٧)

الطغراء

قمة الجمال في الخط العربي

التوقيع السلطاني الذى يصعب تقليده ، ويعبر عنها العثمانيون بأنها توقيع رفيع همايون ، أو نيشان شريف عالى الشأن سلطانى وطغرائى غرائى صميم مكان خاقانى أو علامة شريفة .

وقد أورد العلماء والمؤرخون والمشتغلون بهذا الموضوع من الآراء ما هو أقرب الى الأساطير منها بالتاريخ المحقق ، فمن قائل بأنها تشبه بصمة يد أحد السلاطين بحيث بدت أصابعه الثلاثة الوسطى متلاصقة ، بينما انفرج الابهام والخنصر بعيدا فيما يشبه شكل الطغراء ، ومن قائل انها تشبه الصقر .

ولعل أقدم طغراء عرفت حتى الآن هى طغراء أورخان غازى (١٣٢٤ — ١٣٦٠ م) ، وهو ثانى سلاطين الدولة العثمانية . وظلت الطغراء تكتب للسلاطين الى نهاية عام ١٩٢٢ .

فكان لكل سلطان طغراؤه الخاصة التى يوقع بها على الفرمانات والمعاهدات والرسائل والبراءات والأوامر السلطانية ، كما كانت ترسم على بوابات القصور ودور الحكومة ، واستعملت على الأعلام وعلى النقود والمسكوكات والطوابع والسجلات والسفن الحربية والمدافع التى كانت تصب فى ترسانة الدولة .

وقد استعمل السلاجقة فى خراسان وسلاطين المماليك فى مصر الطغراء فى أغراض مشابهة .

كيف بدأت كتابة الطغراء ؟ ومن هو أول طغرائى رسمها ؟ وما هى المؤثرات التى دفعته لاختيار هذا الشكل ؟ كلها أسئلة لا يستطيع المحققون الاجابة عليها إلا ظنا واجتهاداً .

فأقدم الطغراءات كان لها شكل بدائى تطور مع الزمن ، ودخلها كثير من التهذيب والتحوير والاتقان حتى بلغت قرب نهاية حكم سلاطين آل عثمان قمة فى الاتقان والجمال وتحددت ملامحها النهائية . وأصبح ذلك الشكل التجريدى قمة جمالية من جماليات الخط العربى ، لها فنانون فى الخط يتقنون كتابتها ، فلا يتعلم هذا الفن إلا قاصد . ومن أتقنها وأصبح طغرائيا فقد أعد نفسه لمنصب خطير فى الدولة فى ذلك الحين .

فوظيفة الطغرائى هى واحدة من المناصب الستة الرفيعة فى البلاط العثمانى . فالفرمانات والبراءات والمعاهدات وغيرها من الأوراق الرسمية الهامة تدقق من قبل الدفتردار ورئيس الكتاب ثم تعرض على الصدر الأعظم الذى يقوم بدراستها . فإذا أجازها وأشر عليها بكلمة « صح » ، اختصارا لكلمة « صحيح » ، أرسلها الى الطغرائى أو النيشانجى الذى يقوم بتدقيقها . فاذا اطمأن لموافقتها للقوانين والمعاهدات السارية يقوم برسم الطغراء عليها بشكلها الذى وافق عليه السلطان عند اعتلائه العرش وفى المكان المحدد لها ، وهو أعلى النص . ولايكتفى الطغرائى برسم الطغراء السلطانية ، بل كان يزينها بالأزهار والتذهيب والنقوش لتبدو فى أبهى رونق .

والطغرائيون أعضاء فى الديوان السلطانى كالصدر الأعظم والوزراء وقاضى عسكر ، ثم أصبح لهم مساعدون يدعون « طغراكش » ، وكانت وظيفتهم تشبه ما يسمى هذه الأيام بحامل أختام الملك .

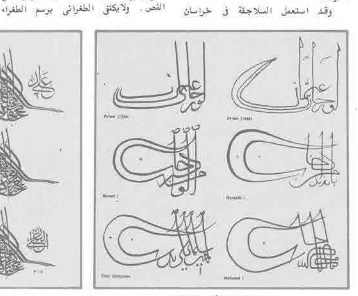
وبعد أن فقدت هذه الوظيفة أهميتها فى نهاية القرن الثامن عشر ، احتل الخطاطون مكان الطغرائيين واقتصرت وظيفتهم على رسم الطغراء فقط .

شكل الطغراء :

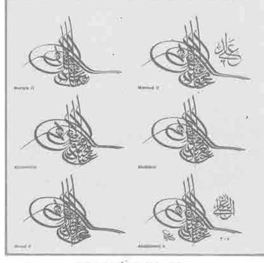
واذا نظرنا الى الطغراء فى صورتها المتطورة نجدها تتكون من أربعة أجزاء رئيسية وهى : —

أ — السَرْأة : وهى كرسى الطغراء أو الجزء السفلى منها والذى يبدأ منه النص الأصلى ، ولها شكل كمثرى ، وكانت فى المراحل الأولى أقرب للاستطالة ، ثم أخذت تضيق من أعلا فى عهد السلطان سليم الثانى ، واقترب شكلها من المثلث ثم استدارت قاعدة السرأة حتى استقرت على شكلها الحالى ، كما فى طغراء السلطان عبد الحميد خان بن عبد المجيد . والنص يكتب متراكبا فى رشاقة وتداخل غير مخل من أسفل الى أعلى وأحيانا تكتب الأسماء متشابكة أو على سطر واحد .

ب — بيضة الطغراء : وتطلق على القوسين



نموذج لطغراوات أوائل السلاطين



نموذج لطغراوات أواخر السلاطين

الناتجين غالبا عن كتابة حرفي النون في كلمتي « خان » و « بن ». والقوس الخارجي يسمى البيضة الخارجية ، والقوس الداخلي يسمى البيضة الداخلية . وتقع بيضة الطغراء في الجهة اليسرى ، ولها استدارة رائعة تتناسب مع السرأة في اتزان جميل .

وبعد أن أضيف لاسم السلطان كلمة « مظفر » ، مد حرف الراء بشكل يقطع قوسي البيضة فزاد من ابراز الجمال الانسيابي لهما . كما يكتب في وسطها كلمة « دائما » وتسمى (دايمه) وهي دعاء للسلطان بأن يكون مظفرا دائما .

جـ ـ الطوغ : أو الطغ ، ويطلق على الخطوط الناتجة عن مد حروف الألف أو اللام أو الطاء أو الظاء في أعلى الطغراء والتي منها اشتق الاسم . وأحيانا نجد أن الطوغات لا تمثل أي حرف وانما هي عبارة عن خطوط مكملة لشكل الطغراء . ويتدلى من كل طوغ مايشبه الأعلام التي تخفق في الهواء وتسمى الواحدة « زلفة » .

وفي الطغراء ثلاثة طوغات وثلاث زلف ، وان كان لبعض الطغراوات المبكرة أكثر من ثلاثة طوغات .

والطوغات الثلاثة متوازية وتميل ميلا خفيفا الى جهة اليمين وكأنها بيارق محمولة تخفق منها زلف من شعر الخيل في مقدمة الجيش .

د ـ قول : ويطلق هذا الاسم على ذراع الطغراء الأيمن الذي يمتد بشكل خطين متوازيين مع انحناءة لطيفة تكمل الصورة الموسيقية لهذا التجريد الرائع .

وعلى جانب الطغراء الأيمن والمقابل للبيضة شعر الخطاطون بأن هناك فراغا فشغلوه بألقاب خاصة بالسلطان ، فكتبوا كلمات مثل الغازي أو رشاد أو عدلي . وتسمى هذه الكلمات « مخلص » ، وكانت تشغل في الصور المبكرة برسم بعض الأزهار .

وكان للأمراء من أبناء السلاطين طغراوات خاصة بهم ، يستعملونها في أثناء أعمالهم في ادارة الألوية في داخل الامبراطورية . وغالبا ما كان يستمر الأمير في استعمال طغرائه بعد تولي السلطنة واعتلاء العرش . أما الوزراء فقد كانت لهم طغراوات خاصة تسمى « بنجه » . ويمكن تمييزها عن طغراء السلطان بأن البيضة ذات قوس واحد ، وأن مكانها لا يكون في أعلى الخطاب أو الوثيقة بل على الهوامش الجانبية .

وعلى امتداد ستة قرون تجمعت مئات بل ألوف من الوثائق والمعاهدات والفرمانات محفوظة في المتاحف والمكتبات ودور الوثائق ، وعند دراستها ظهرت أهمية الطغراوات كوسيلة للتعرف على العهود المختلفة والتواريخ التقريبية للوثائق غير المؤرخة أو التي فقدت بعض أجزائها .

فبمعرفة اسم السلطان أو الوزير أو الصدر الأعظم من قراءة طغرائه أمكن تحديد العهد الذي كتبت فيه ، وأصبح من الممكن وضع الوثيقة في مكانها التاريخي الصحيح . وأصبح تحليل الطغراء وقراءتها ضرورة للمؤرخين والباحثين في العصور العثمانية (انظر الشكل) .

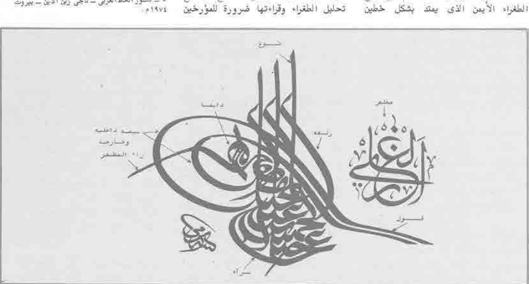
وأحيانا كانت تظهر صعوبات لتشابه أسماء السلاطين الذين بلغ عددهم ستة وثلاثين سلطانا ولكنهم يحملون خمسة عشر اسما مختلفا فقط .

ومن أشهر من كتب الطغراء مصطفى الراقم واسماعيل حقي وسامي أفندي وحامد أيتاش ومحمد زهدي والخطاط المعاصر حسن شلبي . وبعد أن كان هذا الفن قاصرا على كتابة الطغراوات للسلاطين كتب الخطاطون بعض الآيات القرآنية الكريمة بنفس الطريقة ، لما وجدوا فيها من جمال ، فكانت نماذج رائعة للخط الجميل الذي زاد جمالا بما فيه من تحد وبراعة في تداخل النص وتراكمه في رشاقة تتراوح بين الصراحة والغموض .

حسن عبدالمجيد المعايرجي
جامعة قطر

هامش

1 — Die Grossherrliche Tughra - von Franz Babinger, Leipzig - Istanbul 1975.
2 — Tarih Deyimleri ve Terimleri Vol. 3, P. 525-529.
3 — Osmanli Padishah Tugralari - Suha Umur, Istanbul 1980.
وقد ترجم مختصرا له إلى العربية السيد تحسين عمر طه من مركز الأبحاث للتاريخ والثقافة والفنون الاسلامية باستانبول .
٤ ـ روح الخط العربي ـ كامل البابا ـ بيروت ١٩٨٣ م .
٥ ـ مصور الخط العربي ـ ناجي زين الدين ـ بيروت ١٩٧٤ م .



طغراء تحمل اسم السلطان عبدالحميد خان بن عبد المجيد ، كتبها الخطاط سامي ، مؤرخة سنة ١٣٢٣ هـ . ويمكن ملاحظة أجزاء الطغراء المختلفة على الرسم

بقلم : جمـــال قطـــب

ســارة .. الفنّ والأسطورة

طالما استعرضنا سويا على هذه الصفحات كثيرا من روائع الفن العالمى من إبداع أساطين الفن العظام .. وكثيرا ماحظيت اللوحة بشهرة غامرة طغت على شخصية الفنان ومكانته فى التاريخ .. وعلى سبيل المثال فإن لوحات : الجيوكوندا ، والجيرنيكا ، ومارى انطوانيت ، ومدام دى بمبادور ، ومدام ريكاميه وغيرها . قد ذاعت حتى لانكاد أن نذكر أو نتذكر اسم مبدعها . وذلك لأهمية موضوع هذه اللوحات عالميا . أو لأن التاريخ قد ركز على الشخصية التى رسمها الفنان مستلهما تلك المكانة المرموقة الجديرة بأن تكون موضع التسجيل والابداع الرفيع .

ومن هذه الشخصيات الفذة التى استلهمها الفنانون فى أعمالهم . سارة برنار ، نجمة المسرح العالمى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . كانت ظاهرة فذة فى عالم التمثيل والإلقاء والثقافة والأناقة والجمال والمغامرات . ومن أسعده الحظ وعاش عصرها ، أو استمتع بأدائها المسرحى ولو مرة واحدة . أوشهد موكبها عند الاستقبال أو الترحال فى أي عاصمة من العواصم التى كانت تفتح لها ذراعيها بالترحيب والتكريم . أو من أتيحت له الفرصة وكتب دراسة واعية عن شخصيتها أو نقد أعمالها .. كان يقول دائما عن إيمان بما يقول : إنها ولدت قبل عصرها بمئات السنين ! ولاغرو أن كان مسرحها (مسرح روزين برنار) ــ وهذا اسمها ــ أو سارة برنار ــ وهو الاسم الذى اشتهرت به ــ أكثر مسارح فرنسا بل وأوروبا كلها . جرأة وتطورا وأخذا بأسباب المستقبلية والتقدم . ولذلك عرف عصرها فى التاريخ بالعصر الذهبى للمسرح العالمى !

كانت سارة برنار أشهر نجوم المسرح الفرنسى على الاطلاق .. وقصتها طويلة . طويلة مثيرة .. حتى أصبحت ملء الأسماع والأبصار على مدى نصف قرن تربعت خلاله على عرش الأضواء والتألق . ولم تكتف بأمجادها الأوروبية آنذاك . بل رحلت عبر المحيطات الى الدنيا الجديدة ــ الى الأمريكتين ــ مبتدعة أسلوبا مسرحيا جديدا يجمع بين الشاعرية والإثارة .. كما سحرت ألباب الناس بطريقتها الرائعة فى إلقاء الشعر والمأثورات الأدبية العالمية بصوتها الموسيقى الشجي الدافىء !

وتبارت الأقلام في وصف فاتنة الجماهير : قلب مستعر يذيب جليد القارة المتجمدة ــ كأنها علم خفاق وقد تحولت جموع الناس الى جيش يلتف حوله يحيونه ويمجدونه ــ ببغاء جميل الألوان فاق الأوصاف في قفص ذهبي صيغت أسلاكه من خطوط الطول والعرض من حول الكرة الأرضية ــ إذا سارت خفقت القلوب على وقع أقدامها وهى تتهادى فى مشية لولبية حالمة تثير الحواس الخمس عند الرجال والنساء على السواء ــ يداها قد خلقتا لتحتضنا قلوب البشر وتستقبلا ملايين المعجبين في أنحاء المعمورة ــ وجه معبر ساحر متكبر وعينان واسعتان نافذتان فى لون البحر ولكنهما تحتويان على أسرار أعمق من كل البحار ! هذه هى سارة برنار !

كانت إذا رحلت في إحدى جولاتها الفنية الى أحد الموانىء . استقبلها الناس رجالا ونساء بالزهور والرياحين والهتاف وصنعوا لها مناديلهم المطرزة بساطا تسير عليه حتى تستقل عربتها المذهبة التى تصنع خصيصا لها . وتتحول المدينة المضيفة إلى مهرجانات رسمية وشعبية لتكريم (المعجزة) كما كان يطلق عليها !

عندما همت سارة بالانحناء أمام قيصر الروس عندما دعاها إلى قصره ذات مساء . منعها القيصر قائلا : « لا ياسيدتي .. هذا واجب عليّ وأنا أحظى بلقاء سارة برنار » ! وهكذا كان يفعل الملوك والقياصرة وهى فى ضيافتهم الخاصة محاطة بالاعجاب والتقدير .

وكان مشاهير الأدباء والشعراء والفنانين . يتبارون فى التقرب إليها ونظم القصائد ورسم اللوحات من أجلها . وممن شغفوا بها حبًا وهياما أديب فرنسا الأشهر (بيير لوى) وشاعر انجلترا الكبير (أوسكار وايلد) . أما (فيكتور هوجو) فكان أن كتب لها مسرحيته الشهيرة (روى بلاس) التى كانت حديث العالم وقتها . وقد رحلت الى كثير من دول العالم برفقة (هوجو) بناء على طلب شعوب تلك الدول ..

ومن هؤلاء الذين اقترن اسمهم باسم هذه الفاتنة الأسطورية . رسّامنا الفرنسى (ليباج) واسمه الكامل : جول باستيين ليباج . فقد رسم لها عدة لوحات لصورتها الشخصية في أوضاع مختلفة .. لكن أشهرها جميعا هى تلك اللوحة الرائعة التى يراها قراؤنا على الصفحة المقابلة . وقد كتب الفنان فى أعلى الصورة : الى سارة برنار ــ جول باستيين ليباج ــ ١٨٧٩ .

وما أكثر ما أذيع عنهما من قصص وروايات رواها من عاشوا فى عصرها .. ولكن مثل هذه الروايات قد أذيعت عن العشرات والمئات من الشخصيات المرموقة فى عصر سارة .. ولم تقتصر على المفكرين والفنانين فقط . بل وعن الملوك والحكام والقادة العسكريين وغيرهم من رجالات المجتمع الأوروبى والأمريكى الكبار ..

وقد نشر مؤخرا في باريس مُجلد يحوى أسماء كبيرة للعشرات من هؤلاء . من بينها : الفونس الثالث عشر ملك أسبانيا . وفرانسوا جوزيف امبراطور النمسا ونابليون الثالث امبراطور فرنسا . وفردينان فوشيه قائد جيوش الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى . وغيرهم كثيرون .

وحلت نهاية تلك الرحلة المثيرة .. ورحلت سارة برنار عن عالمنا فى مثل هذا الشهر من ثلاثة وستين عاما . فقد ماتت فى ٢٦ من مارس عام ١٩٢٣ وودعتها فرنسا عن بكرة أبيها كما تودع عظماء التاريخ ..


A SARAH BERNHARDT
JULES BASTIEN=LEPAGE 1879

ولدت ابنة خالتي الثالثة في فجر يوم من آخر أيام الشهر الأخير من شتاء قارس لم تشهد المنطقة مثله منذ نصف قرن ، وكان الوقود شحيحا والثلج غزيرا حاصر المدينة وكأنه وقع في غرامها فأتلفها تعبا وجوعا وخوفا . وكانت الصغيرة هزيلة لم تملأ يد القابلة بالبركة كما ادعت . وقيل إن رئتي الوليدة لم تتفتحا للهواء الا بصعوبة . وقد سماها والدها بعد تفكير طويل (شتاء) ، ليس تيمناً بفصل تأتي الأمطار فيه خيرا ، بل إبعادا لعين الحاسد الذى سيقول لنفسه دون ريب : « كيف عاشت هذه المخلوقة في زمن البرد والفقر » !.

وظلت سيرة شتاء في مجالس العائلة يتناولها الكبار عندما يأتي ذكر الشؤم أو النحس ، حتى اقترنت بهما . كان زوج خالتي الموظف في ديوان المحافظة قد اقتيد الى السجن في نهاية العام الأول لولادة شتاء ، وخرج منه في بداية العام الرابع كسيحاً لايقوى على المشي دون عكازات ، وبالرغم من ثبوت براءته فإنه فقد وظيفته . وظلت أجهزة الأمن لاتطمئن الى صمته الذي لازمه بعد ذلك . وفي عامها الثاني أصيب أخوها الوحيد والذى يكبرها بسبع سنوات بالجدري فأكلت البثور وجهه ونهشت عينه اليسرى . وعندما بلغت شتاء عامها السادس انتشرت مجاعة في المدينة بسبب أحوال الحرب والجفاف فاختفى القمح في أقبية التجار والأغنياء ، فسمعت لأول مرة عجوزا تقول :

« بعض البنات نحس على أهلهم وبلادهم » .

وبالرغم من أنني ولدت في العام نفسه الذى ولدت فيه ابنة خالتي ، فقد استطعت أن أفهم قول العجوز المتجهمة بأنه لايعني الصبيان أمثالي . ولكني لم أشعر بالفخر.

وإذ يتفتح جسدها الناحل أنوثة مبكرة ، يصبح جمالها لعنة بعد أن ابتدأت بوادر الصراع عليها من رجال جعلوا يتقربون من زوج خالتي الذى قبع خلف كوة صغيرة في كوخ يبيع فيه الدخان والحلوى للصغار والجرائد والمجلات القديمة التي كان يسلي نفسه بقراءتها ، وكان لايرد طلبا لواحد من الطالبين يد شتاء فيردد مجيبا على التقرب بصوت حيادى :

« الخير فيما اختاره الله » فيظن السامع أن الدعاء هو الموافقة . ولكن الخاتمة لم تكن خيراً ، بل حملت مأساة لاتنسى . فقد قام مالك الشاحنات البرية الذى أقسم على الزواج من شتاء بأي ثمن ، بدهس تاجر النوفوتيه الذى اشتهر بصبغ شعره الأبيض بالحناء ، وكان قد حلف بأولاده الستة في السوق وأمام جمع من البشر ، بأنه سيتزوج من الصبية ولو ضحىّ بثروته كلها من أجل عيون أجمل البنات في كل الدنيا .

لقد حاول (زعيم البوزينغ) كما كان يحلو لمالك الشاحنات أن يسمي نفسه منذ أن سيطر على الطرق البرية في معظم أرجاء البلاد فكانت له مهابة وشكل القاطرة والمقطورة ، حاول أن يُبعد الخطاب المتكاثرين عن ابنة خالتي التي لم تعلم بعد أهمية جمالها الغريب ، والذى يمكن وصفه وفقا لأقوال نسوة العائلة والحي على أنه من صنع ابليس نفسه ، وهو في الحقيقة هبة من الله . ويبدو ، كما سيقال بعد ذلك ، ان زعيم البوزينغ قد وضع لائحة بأسماء المتنافسين ، والذين لم يكن أحدهم لينقص عمره عن الأربعين ، وهو سن النضج والرجولة كما يذكر دوما . فكان اسم تاجر النوفوتيه الكبير على رأس القائمة . وقد انتظرت المنافس الأول شاحنة عند رأس الشارع حيث داره يعود اليها مساء كل يوم ، وما ان هم الرجل بدخول الدار حتى تدحرجت السيارة الثقيلة فسوت جسده المكتنز بالأسفلت وهربت بعد ذلك بسرعة مجنونة ، فلم يستطع أحد أن يلتقط رقمها أو يجرؤ على تقديم أي وصف لها ، فقيدت الحادثة ضد مجهول ، ولكن القضية سرعان ماباتت معروفة لدى من له علاقة ، فشتاء الجميلة هي سبب اللعنة التي أصابت أهلها ، وهي الدافع الى جنون الرجال . ويبدو أن ملك الشاحنات أخافه الاستمرار في تنفيذ مخططه ، ثم انه تناسى طموحه في ضم الصبية الى حريمه إذ تغيب شتاء نهائيا عن الدار والحي ، فلا يبقى منها سوى ذكريات غائمة في الأذهان ، وحسرة في قلب من أحبها حقا .

كانت ابنة خالتي متفوقة في دراستها ، ولكن المديرة التي وقعت في غرامها فقربتها منها ، كانت تحس بالضيق كلما رأت علاماتها العالية أو الكاملة في الامتحانات والوظائف ، فتظن أن المعلمات يردن مشاركتها في حب الصبية . وهكذا لم تعد المديرة العانس بقادرة على الفصل بين حبها الجامح لشتاء وخوفها عليها من الأخريات ، فاختلط الحب بالكره وتمازج الحنان بالقسوة ، فما عادت المسكينة تعرف حقيقة موقعها من المديرة أو في الصف اذ تزعمت حملة الكراهية ضدها تلميذة شقراء لكنها غبية الملامح ، وجعلت تشهر بفقر شتاء واختلقت أكاذيب لاحدود لها عن سلوكها . فكانت شتاء التي تعلمت الصبر والدهشة تعود الى الدار كل يوم لايميز الحزن في وجهها من الوداعة ، وتجلس الى الدمية التي صنعتها من الخرق البالية عمة لها لتغرس في جسد اللعبة دبابيس كان لكل واحد منها غرض في ابعاد الشر والحسد عن شتاء . لم يكن للدمية وجه واضح ولكنه على مايبدو كان قادرا على فهم أحزان شتاء الصامتة .

وبالرغم من أن الصبية باتت الابنة الوحيدة لأبويها بعد زواج أختيها وإختفاء أخيها في سفر بعيد لكسب الرزق والابتعاد عن العيون التي لم تنقطع عن التحديق في وجهه المجدور ، بالرغم من ذلك فقد ملأت شتاء دار أهلها حياة وخيرا ، فهي التي ما إن تنتهي من دروسها حتى تقوم الى المطبخ تعد الطعام أوتنظف الغرف وصحن الدار أو تساعد والدها العاجز في استخدام العكازين برفق تلمع له عيناه فيتمتم بالدعاء لها ان يحميها من الذئاب . فتتساءل شتاء عن الذئاب التي



لاتعرف عنها شيئا الا من خلال الكتب المدرسية أو الروايات التي أغرمت بها منذ أن تعلمت القراءة والكتابة في سن مبكرة . ويكون جواب زوج خالتي كعادته مبهما وحياديا فكأنما السجن علمه أن يلزم الحذر في كل مايقول ويفعل .

وكان أخي الاكبر ، والذى تحول فجأة من شاب مستهتر يدخن السجائر ويلاحق الفتيات في المدينة الجديدة ، ويخيف شباب الحارة بسكينه التي صنعها بنفسه من عظام ديك رومي احتفلنا بالتهامه في واحد من الأعياد القليلة التي عرفنا فيها السعادة . أخي الذى تحول فجأة الى طالب مجد يقرر أن يعيد دراسة البكالوريا لكي يدخل الجامعة ويكون رجلا محترما ، كان هو المتضرر الآخر من غياب شتاء الذى لم نحسب له من قبل أى حساب .

كانت أولى بوادر اهتمام أخي بابنة خالته ، قد ظهرت يوم زارتنا بعد غياب ، ولعبت مع البنات في صحن الدار ، وتطايرت ضفيرتها كذيل فرس حرة . فتفتحت يومها أزهار الفل وتجمعت العصافير على أغصان شجرة النارنج وتدفق الماء من أطراف البركة التي كانت خاملة منذ زمن . وأصيب أخي بحالة من الوجوم استمرت ثلاثة أيام بلياليها ، وسمعته في الظلام يتقلب على الفراش المجاور ويردد في نومه « شتاء .. ياشتاء » .

فكتمت السر عن الجميع خوف أن يبطش بي ، كما وأني أخفيت عن نفسي في البداية ذلك الانجذاب المبهم الى ابنة خالتي ، فلم أعد أفكر بها الا وأنا نائم فتظهر لي دوما من خلف شلال من الماء المتدفق ، فتبتسم في وجهي وتمد لي ذراعيها فأركض نحوها لاهثا ، واذ بالحلم ينتهي دون رحمة ، فاستيقظ تحرقني الرغبة المبهمة ويربطني الخوف من أن يقرأ أحد صفحة أو سطرا من حلمي الذى لم يتغير أو يتبدل طوال فترة الصبا .

أما أخي فقد هتف ذات مرة في وجه أمي التي كانت منكبة على الطشت تعارك الغسيل : « أريد أن أخطب » !

فقالت له وهي تفرك بيديها شرشفا زادته الرقع سماكة :

« من يخطب يعني أنه يريد أن يتزوج » فقال بشراسة وهو يدق بلاط الحوش المنخور بقدمه :

« هذا صحيح . من يخطب يعني أنه يريد أن يتزوج » .

ثم قال برقة مفاجئة وقد سقطت عيناه على شجرة الياسمين :

« ابنة خالتي » .

« ابنة خالتك ! من تقصد ؟ » .

« ابنة خالتي شتاء » .

آنذاك نفضت أمي عن ساعديها ماء الصابون ، ثم رفعت عينيها نحو أخي تتأمله وكأنها لم تفهم بعد قصده ، وكان هو بقامته الطويلة التي كنت أحسده عليها ، قد بدا كفارس أو مقاتل ينتظر الرد على تحديه . هتفت أمي فجأة :

« هي ابنة أختي ، من لحمي ودمي . ولكنها تحس على أهلها باولادي » .

فصرخ أخي بعنف العشرين الذى يتجمع في عروق رقبته ، فارتجفت لصوته حبال الثوم والقديد : « لن أسمح بعد اليوم لكلمة سوء أن تقال عن شتاء » .

فعادت أمي الى الغسيل وهي تتمتم : « أو تحبها أكثر مني ! » .

فأفلتت من أخي اعترافاته التي شعرت بالضيق الهائل منها وان كنت لم أجرؤ على فعل شيء : « أحبها وسأظل أحبها . وأريدها ، ولن تكون لغيري ، والويل لمن يقف في طريقي » .

في امتحانات (الكفاءة) العامة ، كانت شتاء الأولى على طلاب وطالبات المدينة ، وكانت أصغر الجميع سنا ، فوسوست جارة ـ لم ينجح ابنها ـ في أذهان أهل الحي أن الفتاة لم تنجح الا لفتنتها التي لم يقاومها رجال الامتحان ومساوؤه ، كما أن الصحافة المحلية لم تنشر صورة شتاء كعادتها في تكريم الأوائل . إذ لم تعثر على عنوان دارها الكائنة في حي مهمل من المدينة القديمة .

وكانت الأولى دون ريب بين الصبايا في الجمال ، بل كنا نقطع بذلك الأمر أنا وأخي ، هو جهرا وأنا بالسر . ولانسمح بالحديث عن جمال أنثى بعد شتاء ، ولكن نجاح الصبية الذى حقق تقدما لم يسبق لأحد من قبل أن سجل مثله ، كان هو الوبال على الحب المعلن والمكبوت .

اختفت شتاء فجأة . وكان أول من شعر بغيابها هو أخي الذى حفزه نجاحه غير المتوقع في امتحانات (البكالوريا) الى زيارة بيت خالته بشجاعة ، وفي نيته أن يعلن عن حبه بعد أن صار مؤهلا لطلب يدها ، ضاربا بذلك عرض الحائط كل تحذيرات أمه والعائلة ومتحديا كل من يفكر في الحصول عليها .

في المرة الأولى ، لم يجرؤ أخي على الاستفسار عن وجود شتاء ، بل ظل يحادث خالته عن ذكريات الطفولة وطموحات المستقبل . وفي الثانية ، تساءل إن كانت شتاء في الدار ، فلم يلق تصريحا يوضح أى أمر . ولكنه في المرة الثالثة أخرج من عبه الهدية التي كانت صندوقا صغيرا من العظم صنعه لشتاء كي تضع فيه الحلي والهدايا الثمينة التي ستأتيها في المستقبل ، وقال بإصرار : « أريد أن أعطيه لشتاء ، وأريدها أن تستلمه هي بيدها » .

فقالت خالتي بجفاء لم يتوقعه :

« مسافرة » .

بعد فترة طويلة عرفت الحقيقة . فشتاء سافرت الى بلاد بعيدة ، أعلن عنها بعد فترة أخرى على أنها أمريكا . جاء خال أمها المهاجر الذى حضر بعد غياب طال ثلاثين سنة ليتفقد الأهل والأقارب ، ففوجيء بتلك القريبة الصبية التي لها من الجمال ما لم تقع له عين على مثله ، والتي فيها من الذكاء مالا يشبه ذكاء شاهده في بلاده القديمة أو الجديدة ، فهتف من فرح ودهشة وهو الذى لم يرزق من قبل ولدا من زوجته الأميركية التي ستفتنها شتاء أيضا . قال المهاجر :

« أريدها بنتا لي وسأعطيها الفرصة للعلم والثروة » .

ثم أضاف كما صرحت بذلك خالتي بعد سنوات :

« أنتم هنا لاتستطيعون تقدير ثروة عظيمة كشتاء . تفرطون بالكنوز فكيف الحال مع صبية كهذه ! » .

وقال زوج خالتي العاجز الذى لم يأسف على غياب ابنته :

« ستجد شتاء من يقدر الجوهرة التي فيها ، وكما قال خال زوجتي فنحن نقتل أجمل مالدينا بأيدينا » .

ومل أخي الانتظار ، وبعد تخرجه من الجامعة تزوج من أرملة قريبة لنا خلف لها زوجها دارا ودكانا فجعل أخي يعمل فيه بنفسه بعد يأس من وظيفة . وبقيت أنا أفكر بلا انقطاع في شتاء التي انقطعت أخبارها عنا بعد وفاة أبويها . وكنت أحلم أحيانا بأني سأشاهدها ذات مرة في فيلم أو مسلسل أمريكي على شاشة التلفزيون ، تعمل طبيبة أو مغنية مشهورة أو زوجة رجل أعمال مرشح لمنصب سياسي . وكنت لا أمل من التدقيق في الشاشة حتى أدمنت مشاهدة التليفزيون ، ولكنني لم أستطع مرة أن أعثر على امرأة تظهر في حكاية أميركية تفوق جمال شتاء بأي حال من الأحوال . ومع كل ذلك الهوس الذى مازال يركبني ، فان أحدا لم يطلع بعد على السر الذى أخفيته في أعماقي ، حرصي على جوهرة ثمينة ، طوال السنين كلها ..

الفنانة صفيّة..

تعيش لفنّها كل الوقت



الانسان هو العنصر الأساسي في جميع أعمالها : إنها تصوره في واقعه وخلال حياته اليومية . معبرة عن همومه وأحلامه ونظرته للأمور . بأسلوب واقعي موضوعي يحمل نبض البيئة وحياة البسطاء بأسلوب البسطاء أنفسهم في الرسم

بقلم : صبحي الشاروني

يرتبط اسم الفنانة صفية (صفية حلمي حسين) بأتيليه حلوان الذي أسسته مع المثال هجرس عام ١٩٦٥ ..

كان لقاؤها مع الفنان محمد حسين هجرس عام ١٩٦٣ في وكالة الغوري بحي الأزهر . وأصبح مرسمهما مكانا يقصده العديد من المثقفين الشباب من بينهم الشاعران سيد حجاب وعبدالرحمن الأبنودي اللذان كانا كلما أتم أحدهما قصيدة أسرع ليقرأها عليهما أولاً قبل أن يدفعها لاحدى دور النشر.

في تلك الفترة بدأ اهتمامهما المشترك بفن الخزف ، واتخذ هذا الاهتمام شكلاً مثيراً ، إذ اتفقا على تخصيص يوم من أيام الأسبوع يقيمان فيه (حفلة خزف) . فكانا يشتركان في عمل تماثيل وأوان خزفية طوال ذلك اليوم .. لكنها كانت تظل من الطين دون تسوية لعدم وجود أفران للخزف في وكالة الغوري في ذلك الوقت . وقد قامت بشراء فرن صغير لكنه لم يكن صالحاً لتسوية الفخار.

وعندما عرض عليهما الفنان الراحل محمد شفيق استئجار منزل بضاحية حلوان أسرعا إليه . وأنفقا عامين وبضعة آلاف من



طبق من الخزف .. للفنانة صفية .. فيه تبسيط للخطوط يعطي احساسا بالقوة ..

الجنيهات لترميمه وبدأ العمل به عام ١٩٦٥ وهو المعروف حاليابإسم باسم (أتيليه حلوان لهجرس وصفية) .

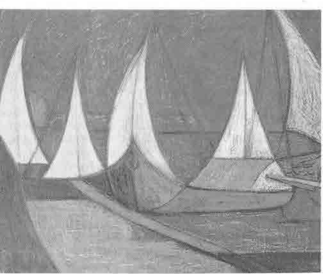
كانت الفكرة من اقامة أتيليه حلوان هي توفير مكان يستطيع أن يتجمع فيه الرسامون والموسيقيون والشعراء والكتاب والنقاد حيث يجدون مناخا يتصف بحرية المناقشة وعرض الانتاج الفني للتشاور حوله قبل تقديمه للجمهور..

أما عن انتاج أتيليه حلوان فكانت صفية تتجه الى فن الخزف ، بينما هجرس ينحت تماثيله الخشبية .. في البداية حاولت إنتاج أوان خزفية للاستخدام اليومي كالأطباق والمزهريات والأكواب ، مع العناية باخراجها في تصميم جميل يعبر عن وظيفته الاستعمالية وليس باعتبارها أشكالاً جميلة فقط وتزيينية ، كما هي الحال عند معظم الخزافين المصريين .

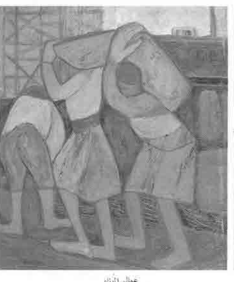
لكن هذه الأهداف تغيرت وهاجر هجرس الى الخارج وبقيت الفنانة صفية لتدير أتيليه حلوان حيث تنتج أعمالها الخزفية . بينما تقوم برسم لوحاتها في مرسمها بوكالة الغوري . ولنبدأ القصة من أولها..

● كانت في صغرها تحبّ الموسيقى وتحلم بالسفر والترحال وتتمنى لو عملت في تنسيق الحدائق

● أعمالها مقابل "تشكيلي" للشعر والموسيقى، وتعبير مؤثّر عن المشاعر الإنسانيّة



مراكب





عمال البناء

الفنـانـة صفيـة..

تعيش لفنها كل الوقت

النجارة أو تنسيق الحدائق

ولدت عام ١٩٢٣ بالقاهرة ونشأت في أسرة تضم اثني عشر فردا. كان والدها حقوقيا ويعمل رئيساً للادارة الأوربية في مجلس الوزراء. حكى لأبنائه أن جده كان يمتلك سبعة آلاف فدان. لكنه ضيعها بتهوره وتطاوله على الخديوي الذي أمر بمصادرة أطيانه.. وكان الوالد يحمد الله أنه لم يرث هذه الأموال الحرام، مؤكداً أنه ليس هناك من يستطيع استخلاص سبعة آلاف فدان بالطرق المشروعة.

ذات يوم عام ١٩٤٢ عندما تولت وزارة مصطفى النحاس مقاليد الحكم في مصر أحس الوالد بأنه ظلم بتخطيه وعدم ترقيته إلى منصب سكرتير عام مجلس الوزراء.. فاستقال ببساطة ليعمل مترجماً في السفارة الفرنسية بالقاهرة.

صفية هي رقم (خمسة) بين الأبناء العشرة الذين يكونون مع الأب والأم أفراد الأسرة.. وقد تعلم الجميع حتى أنهوا دراستهم الجامعية.. فالجو العائلي يقدس العلم ويحرض الأبناء على تعلم كل الأشياء وعلى رأسها اللغات والقراءة والسفر.. والأم تجيد التحدث بالانجليزية والفرنسية الى جانب العربية.

من بين أخوتها من شغف بالعلوم، فكان يواظب على شراء مجلة الهوايات (هوبي)، وهي تعرض الأشغال اليدوية والصناعات المنزلية وتعلم النشء العديد من المهارات، فكانت (صفية) تتابع هذه المجلة بشغف حتى ترسبت في أعماقها خبرات وجهت أحلامها وهي طفلة أن تعمل في النجارة أو تنسيق الحدائق!

القاموس يقيد الحركة

ومن ذكريات الفنانة أن والدها كان يقيدها وقت الظهيرة ليتيح لبقية أفراد الأسرة أن يناموا في هدوء. كان يستخدم أسلوباً غريباً لقيد حركتها دون أن يؤذيها، بل كانت تستمتع بهذه الفترة. فكان يضعها في كرسي كبير (شيزلونج) ويضع على ساقيها كتاباً ضخماً فلا تستطيع أن تغادر مكانها بسبب ضخامة ذلك الكتاب.. ولم يكن هذا الكتاب الضخم سوى قاموس (لاروس) الفرنسي، فكانت تقضي هذا الوقت في تقليب هذا القاموس والفرجة على الصور والرسوم التي به.. كانت هذه هي البداية التي وجهتها إلى حب القراءة، فقد كان أهل البيت يدمنون القراءة. وكانت صفية تقلد الكبار وتواصل النظر في الكتب وتقليبها قبل أن تفهم كلماتها..

وعلى سبيل المثال عندما كان عمرها عشر سنوات قرأت عن نظرية النسبية، وإن لم تفهمها في ذلك السن.

صحيح أنها كانت تحصل على أرقام عالية في مادة الرسم، لكنها لم تتصور أنها ستكون رسامة.. كل ما في الأمر أنها كانت تحب الموسيقى وتحلم بالسفر والترحال وتتمنى لو عملت في تنسيق الحدائق.

الدراسة

إلتحقت بالقسم الحر في كلية الفنون الجميلة بالقاهرة عام ١٩٥١ وأنهت دراستها به عام ١٩٥٧، وفي خلال تلك الفترة التحقت ببعض المراسم الخاصة، في البداية ترددت على مرسم الفنان الأرمني الأصل (جرابديان) لمدة عامين ٥٣، ٥٤ وكان مرسمه في حي شبرا.. ثم التحقت بمرسم الفنان حامد عبدالله الذي كان مقاماً في بيت الفنانة تحية حليم ــ زوجته في ذلك الوقت ــ لمدة العامين التاليين ١٩٥٥ ــ ١٩٥٦: وبعد سفره الى أوربا مهاجراً استمرت تتردد على الفنانة تحية حليم حيث كانت مع انجي افلاطون وغيرها من فناني وفنانات هذا الجيل.

في كلية الفنون الجميلة قام الفنان (بيكار) في البداية بالاشراف عليها، وهي تذكر دروسه لها وتوجيهاته بإعجاب شديد، حيث كان يتركها وزملاءها يرسمون طوال الاسبوع، ثم يعقد حلقة مناقشة لأعمالهم كل يوم خميس، وكانت هذه الطريقة تدفعهم إلى العمل باجتهاد شديد حتى تظهر نتيجة جهدهم في اجتماع آخر الاسبوع.

كما التحقت فترة بمعهد معلمات الفنون حيث درست على يدي الفنانة الايطالية المولد (ايما كالي عياد) زوجة الفنان الرائد الراحل (راغب عياد) وكان وقتها يعمل مديراً لمتحف الفن الحديث بالقاهرة. وقد تولى الاشراف على القسم الحر بعد استقالة بيكار وتفرغه للصحافة.

الفنان الراحل (عبدالعزيز درويش) ثم (حسني البناني) توليا العمل بالقسم الحر بعد إحالة راغب عياد إلى المعاش.. الأول علمها كيف تهتم بالمكتبة وتستفيد بالكلمة المكتوبة عن الفن. والثاني علمها رسم المناظر الخلوية.

كما استفادت من الفنان حامد عبدالله عندما وجهها إلى معرفة المدارس الفنية المختلفة وشجعها على ممارسة الأسلوب الذي يناسبها.. وكان هذا الأمر موضع خلاف بين أساتذتها في قسم الدراسات الحرة بكلية الفنون الجميلة وأستاذها حامد عبدالله.. وقد نتج عن هذا الخلاف عدم حصولها على جائزة مرسم الفنون الجميلة بالأقصر، فتركت كلية الفنون الجميلة وبدأت تتفرغ تماماً لحياتها الفنية.

وكانت تريد أن تستعيد ثقتها بفنها فتقدمت لمعرض صالون القاهرة عام ١٩٥٧ ببعض لوحاتها، ففازت بجائزة التصوير الثانية عن بعض الأعمال التي تقدمت بها للحصول على جائزة مرسم الأقصر في كلية الفنون الجميلة.. وقد أعادت هذه الجائزة ثقة الفنانة بنفسها وبأسلوبها. وبدأت تستعد لإقامة المعرض الأول لأعمالها.

وهكذا تفرغت الفنانة صفية للفن من البداية باعتبارها فتاة وغير مطالبة بأن تعمل طبقاً لتقاليد تلك الفترة.. وقد حصلت على شهادة الثقافة عام ١٩٤٢ واكتفت بهذا القدر من الدراسة المنظمة.

سافرت إلى جميع أنحاء مصر سواء لمناظرها الخلابة أو لآثارها.. وهي تهتم بقضاء شهر كل عام بين آثار البر الغربي لمدينة الأقصر.. كانت تعيش حياة رخية لم تحس بضغوط الحاجة الاقتصادية.. كانت تلعب التنس وتشتري ما تشاء ولم تعرف قيمة النقود إلا في وقت متأخر.

إستأجرت مرسماً في شارع شريف باشا كان يشغله الفنان ممدوح عمار ثم سافر في بعثة إلى الخارج فحلت الفنانة مكانه.. وكان المبنى أشبه ببيت للفنانين حيث كان يسكنه موسيقيون ورسامون من بينهم منير عامر الصحفي وآخرين.

وتذكر الفنانة أنها التقت ذات يوم بالفنان سعيد الصدر رائد فن الخزف المصري المعاصر في حدائق الأورمان بكلية الفنون التطبيقية. وكان ذلك قبل عشرين عاماً من بداية ممارستها لفن الخزف. وقد تركت هذه المقابلة رواسب في أعماقها دفعتها إلى حب هذا الفن والتفوق فيه.

وتعرفت على الفنان صلاح طاهر الذي شجعها لتقيم المعرض الأول لأعمالها في متحف الفن الحديث بمقره القديم.. ولم يلبث أن شجعها وعاونها في الحصول على مرسم خاص في مبنى وكالة الغوري بحي الأزهر عام ١٩٦٢.. وهو من المراسم التابعة لوزارة الثقافة في المباني الأثرية.

وأقامت معرضها الثاني الكبير عام ١٩٦٥ في صحن وكالة الغوري وكان يضم ٧٥ لوحة تصوير زيتي واكليريك وألوان مائية مع لوحات تصوير جداري (فرسك) بالإضافة إلى أعمالها في فن الجرافيك.

بعد هذا المعرض أقامت الفنانة معارض مشتركة مع فنانين آخرين وواظبت على الاشتراك في المعارض الجماعية، ثم توقفت عن هذه المشاركة عندما وجدت تقديراً خارجياً لفنها وإهمالاً محلياً لأعمالها.

ذات يوم قصدتها إحدى صديقاتها تطلب منها معلومات عن فن الخزف بعد أن رفض



إنـاء مزخـرف برسوم محفورة وأخـرى مفرغة على الغطـاء ـ مـن الفخـار الزلـطي الأسـود

بعض الخزافين المصريين الذين لجأت إليهم مساعدتها باعتبار أن هذا الفن يتضمن أسرار لا يمكن إباحتها .. فأحضرت كتاباً أجنبياً وقامت بترجمته في شكل مذكرات ومعادلات واحتفظت بنسخة من الترجمة وقدمت الأخرى لزميلتها .

لقد بدأت الفنانة بفرن يعمل بالوقود الخشبي واستعانت بعمال الفخار من مصانع مصر القديمة .. ولكن عندما ارتفعت أسعار الخشب وأسعار العمالة اتجهت إلى الأفران الكهربائية وتعمقت في أبحاث الألوان الخزفية .

وقد تصادف في ذلك الوقت عند انشاء اتيليه حلوان أن الفنان كمال عبيد كان يصنع أفراناً لتسوية الخزف لمن يطلبها .. وفعلاً قدم لهما فرناً ومعه ورقتين حول أهم شروط تسوية الخزف وطريقة عمل الطلاءات الزجاجية . وبدأ العمل . بالطبع صادفتهما بعض المتاعب وقام البعض باستغلال جهلهما بمصادر الخامات لكنهما بعد فترة تعرفا على تلك المسالك وأصبح في امكانهما عمل انتاج غزير . ثم تبينا أن ظروفهما لا تسمح بالانتاج التجاري فاقتصرا على الانتاج الفني .

وتحت إلحاح فكرة الانتاج الغزير تعرف الفنان هجرس عام ١٩٦٧ على محمد خليل مندور (الخزاف المعروف حاليا) وكان يعمل في مصانع الفخار بمصر القديمة ، وكان عمره وقتها ١٢ عاماً ، أقنعه بالعمل في اتيليه حلوان ليشكل الأواني على دولاب الفخار الدوار بعد أن كانت مهمته هي تشكيل (أصص الزرع) . فقد أتاح له العمل في اتيليه حلوان التجويد والدقة بدلاً من السرعة والانتاج الكمي .

في هذا المكان حصل محمد ثم أخوه خليل على التعليم المدرسي على أيدي مدرسين خصوصيين بين فترات العمل ابتداء من القراءة والكتابة إلى اللغات وغيرها من العلوم التي يحصل عليها تلاميذ المدارس فقد كانت ابنة الفنان هجرس تكبره بسنوات قليلة ، فتدرج معها في الدراسة حتى مستوى الثانوية العامة .

أما خطة الفنانة صفية فكانت تهدف إلى دراسة الخزف القبطي والاسلامي والشعبي ، ثم استنباط أشكال معاصرة من هذه الدراسة ، فكانت تقوم بزيارات منتظمة إلى متحف الفن القبطي بمصر القديمة ومتحف الفن الاسلامي بباب الخلق ، وكانت ترسم أشكال الخزف والأواني المتحفية . وعندما تعود إلى حلوان كانت تطلب من محمد مندور تشكيلها على دولاب الخزف الدوار ثم تقوم هي بتلوينها ، وانتهت هذه المرحلة باتجاهها إلى ابتداع أعمالها الخزفية بعد أن هضمت هذه الخبرات . لكن الفنان هجرس أعتقل عام ١٩٦٩ ، وأصبح عليها أن تواصل العمل في مرسم حلوان بمفردها ، لكن هذا لم يستمر طويلا .

وسافرت صفية عام ١٩٧٠ إلى استكهولم ثم باريس وزارت تشيكوسلوفاكيا ثم النمسا ثم ايطاليا . وفي استكهولم شاركت في المعرض الدولي للحفر الذي أقيم سنة ١٩٧٠ حيث عرضت ٥ لوحات ، وأقبلت الجاليريهات الخاصة على احتجاز بقية أعمالها . وعندما انتقلت إلى باريس لم يكن معها إلا عدد محدود من لوحات الألوان المائية لا تكفي لإقامة معرض رغم عرض المركز الثقافي المصري بباريس عليها إقامة معرض لأعمالها في قاعة المركز بشارع (سان ميشيل) . وتوفى عبدالناصر في تلك الفترة فأكملت جولتها وعادت إلى مصر لتعيد الحياة إلى اتيليه حلوان وتواصل انتاج أعمالها الخزفية مع محمد خليل مندور حتى عاد محمد هجرس من غربته .

الرحلة إلى لندن وبرلين

في عام ١٩٧٤ سافر فنانو مرسم حلوان الثلاثة هجرس وصفية ومحمد مندور لمدة أسبوع بالأقصر ، وفي البر الغربي إلتقيا بأحد المستشرقين الألمان .. وقد دعته الفنانة لزيارة مرسمها في وكالة الغوري بعد انتهاء جولته في الأقصر وأسوان .. وقد زار مرسم صفية في وكالة الغوري ثم اتيليه حلوان ، وبعد عودته إلى برلين الغربية أرسل إلى صفية وهجرس دعوة للعرض في برلين الغربية .. في تلك الفترة وجه المجلس البريطاني إليهما الدعوة للسفر والاقامة في انجلترا ، فسافرا إلى لندن أولاً عام ١٩٧٦ حيث التقيا (ببرنارد ليتش) أستاذ الخزف العالمي وعدد من الرسامين المعاصرين بالاضافة إلى لقائهما مع المثال الانجليزي العالمي ، هنري مور .

بعد زيارتهما لبريطانيا التي استغرقت شهرين سافرا إلى برلين حيث أقاما معرضهما في الأكاديمية البروتستانتية ، وأقيم المعرض في قاعة إحدى الكنائس ذات الطراز المعاصر .

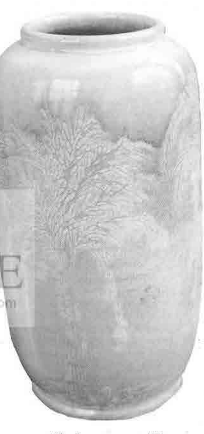
وبعد عودتهما عام ١٩٧٦ من هذه الجولة الناجحة أحس هجرس بالاضطهاد الشديد من إدارة الفنون الجميلة التي قطعت راتبه ، فسافر إلى العراق عام ١٩٧٧ ثم انتقل إلى لبنان ليعمل بتدريس الخزف لأبناء اللاجئين الفلسطينيين في المخيمات . واستمرت صفية وحدها في مرسم حلوان تنتج أعمالاً خزفية يومين كل أسبوع ، وترسم لوحاتها في وكالة

الفنـــانـــة صفيـــة..

تعيش لفنها كل الوقت

أمومة

السقا (حامل الماء)



نخيل مرسوم بالطلاءات الزجاجية على إناء من الخزف

الغوري . أما محمد خليل مندور فقد استقل عام ١٩٨١ عندما أقام مرسمه الخاص في مدينة الفخار بحي مصر القديمة ..

وفي عام ١٩٨٥ سافرت الفنانة صفية الى فنلندا لتقيم معرضاً لأعمالها في فن الخزف بالاضافة الى انتاجها في فنون التصوير الزيتي والجرافيك بدعوة من إحدى قاعات العرض . وقد أمضت بصحبة هذا المعرض شهرا توجهت بعده الى بولندا لتعرض مجموعة لأعمالها في فن الجرافيك بدعوة من هيئة الفنون في وارسو وبعد أن أمضت شهرا بصحبة هذا المعرض سافرت الى ألمانيا حيث أمضت شهرا آخر عادت بعده الى القاهرة لتواصل حياتها كفنانة متفرغة بين مرسمها في وكالة الغوري بحي الأزهر واتيليه الخزف بضاحية حلوان .

مميزات فنها

الإنسان هو العنصر الأساسي في جميع أعمال الفنانة ، إنها تصور الانسان في واقعه وخلال حياته اليومية . معبرة عن همومه وأحلامه ونظرته للأمور بأسلوب واقعي موضوعي يحمل نبض البيئة المحلية والروح المصرية .. معبرة عن النقاء وعن حياة البسطاء بأسلوب البسطاء أنفسهم في الرسم ، فهي تتبع أسلوبا فطريا يستمد جذوره من المرحلة القديمة في أعمال الفنان حامد عبدالله قبل هجرته من مصر في منتصف الخمسينات .

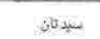
وتتميز الفنانة بمهارات عالية من مختلف فروع الرسم ابتداء من الصورة الشخصية الى تصوير الجماهير في حركتها أو الموسيقيين خلال عزفهم على الآلات البسيطة ، وتعبر عن هذا في بضعة خطوط أحسنت اختيار أماكنها .. وتتميز ألوانها بالنضج حيث تستخدم لونا سائدا في كل لوحة وتقيم تكوينا متماسك البنيان .

وهي تعشق استخدام الخامات المختلفة التي تتنقل بينها ، من ألوان الرسم الحائطي الجيرية الى الألوان المائية أو الطباشيرية . ثم الرسم على الأواني والأطباق الفخارية والخزفية ، بالاضافة الى اللوحات الزيتية . وعندما تستخدم أي خامة من هذه الخامات فإنها تراعي خصائصها وتخضعها لأسلوبها المتميز في الرسم .

وقد وصف الناقد مختار العطار أعمالها بأنها مقابل تشكيلي للشعر والموسيقى .. وقد



سيدتان



المئذنة

كانت تعبر عن مضمون اجتماعي واضح في أعمالها الأولى خلال الخمسينات ثم اتجهت إلى التعبير عن المشاعر الانسانية خلال انطلاقها في العمل الفني بحرية.

ولا يخفى على المشاهد مدى عمق خبرتها وثقافتها التي اكتسبتها من قراءاتها المتشعبة في الفنون والآداب منذ صغرها، لهذا تتميز أعمالها بالحيوية والحس الدرامي رغم بساطة الأداء لكن بقوة تعبير بليغة.

إنها تعيش مع الكادحين من عامة الناس بوجدانية. فهم موضوع أعمالها، تلمس مشاكلهم وتعبر عن حياتهم برمزية في الألوان وتنوع في الملامس.. وهي لا تخضع في رسمها لقواعد علم المنظور. ومع هذا تكتسب عناصرها مظهرا واقعيا يؤكد مضمون المعاناة والصلابة والصبر والجلد.. إنها تحترم سطح اللوحة وتوزع عناصرها على هذا السطح دون إيهام بالعمق، خطوطها بسيطة وألوانها محددة لكنها موضوعة بمهارة ودراية.. وتتميز لوحاتها بدسامة وثراء في السطح يجعلها بليغة التعبير ومؤثرة عاطفيا فيستمتع المتلقي باستقباله لشكل العمل الفني ثم المضمون الانساني. دون أن يصرفه عن ذلك الانشغال بمهارة المحاكاة.

وتقول الفنانة: (لماذا أقيد نفسي بنقل ومحاكاة الواقع؟ إنني أحاول الوصول إلى

رسم محفور للريف على إناء من الخزف

أقوى شكل تعبيري يحقق استخراج المعاني من العناصر بطريقة أفضل من تقليد الواقع.. وذلك لتحقيق الشكل المعبر، فأنا ألجأ أحيانا إلى التحوير، لكن هذا لا يحدث إلا عند الضرورة. وليس التحوير من أجل التحوير أبدا..)

في أعمالها الأولى تبسيط للخطوط يعطي إحساسا بالقوة وكانت تكسو لوحاتها مسحة من القتامة.. وفي تلك الفترة حاولت ذات مرة أن ترسم لوحة مبتهجة الألوان (لعروسة المولد)، لكنها لم تلبث أن أحست بغربتها أمام تلك اللوحة فأعادت رسمها في لوحة قاتمة الظلال.

والفنانة ترجع ميلها في تلك المرحلة لهذا النوع التراجيدي من الرسم إلى الموضوعات التي كانت تتناولها وهي الحياة القاسية للفلاح المصري والعمال وغيرهم من الفئات الكادحة.. وهي تقول إنها أحست بهم وأدركت أن الفن ليس تعبيرا ذاتيا وحسب لكن الموضوع والعناصر المرسومة لها تأثيرها أيضا على الرسام.

وفي عام ١٩٦١ انتقلت صفية بموضوعاتها من الشغيلة إلى الموسيقيين، وواظبت على حضور حفلات أوركسترا القاهرة السيمفونية، ورسمت عازفيها واحدا بعد الآخر، وقد تغير الموضوع ولكن الأسلوب استمر كما كان من قبل. فقط ابتهجت مجموعتها اللونية شيئا فشيئا. واتجهت إلى التخلي عن الألوان القاتمة، وتوقفت عن استخدام الألوان الزيتية لبضعة سنوات لتجرب الألوان المائية والحبر الشيني وألوان الباستيل... كل الخامات ما عدا الألوان الزيتية في محاولة لاكتشاف أسلوبها الخاص، واختفت الجوانب التراجيدية وظهرت في أعمالها بعض المناظر الطبيعية..

صبحي الشاروني

العلم هو المستقبل

تقديم : لبنى الريدي

الهاتف المرئي قادم



سيشهد الاتصال الهاتفي ثورة جديدة في المستقبل القريب ، فلقد بدأت شركات الالكترونيات اليابانية والأمريكية في انتاج الهاتف المرئي أو « الفوتوفون » وهو عبارة عن وحدة مكتبية تقوم بضغط الصورة وتحويلها الى اشارات رقمية بحيث يمكن نقلها بسهولة عبر خطوط الهاتف العادية .

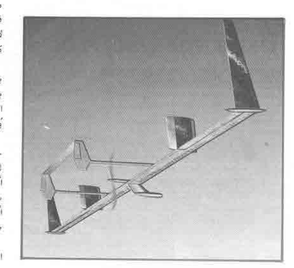
وهناك نوعان من الهاتف المرئي ، النوع الأول يكتفي بنقل صور ثابتة ، وهو عبارة عن هاتف عادي متصل بشاشة تلفزيونية وكاميرا فيديو بحيث يوجه المتحدث الكاميرا الى الشيء أو المستند أو الشخص المراد ارسال صورته ، ثم يضغط على زر خاص في لوحة أزرار الهاتف فتبدأ الدوائر الالكترونية داخل الوحدة المتصلة بالهاتف بضغط المعلومات المرئية المرسلة حتى يمكن ارسالها خلال خط هاتفي واحد .

ولايستغرق نقل الصورة سوى خمس ثوان ، إلا أن الحديث ينقطع للسماح ببث المعلومات المرئية خلال الخط نفسه . وتتميز الصور المرسلة بدرجة عالية من النقاء والوضوح وإن كانت غير ملونة . كما يستطيع هذا الجهاز اختزان حوالى ٢٠ صورة لارسالها في وقت لاحق . وبإمكان صاحب هذا الهاتف المرئي الاتصال بأي جهاز مماثل في أي مكان في العالم . أما ارسال الصورة المتحركة فهي عملية أكثر تعقيدا إذ يتعين استخدام جهاز خاص لتحويل الاشارات الكهرومغناطيسية المعبرة عن الصورة المتحركة الى اشارات رقمية لاتشغل حيزا من الأثير ، ويمكن ارسالها عبر خطوط الهاتف .

وأكثر هذه الأجهزة تطورا يتكون من هاتف وكاميرا فيديو وشاشتين ملونتين مساحة كل منهما سبع بوصات كما تتصل به كاميرا ثابتة مثبتة رأسيا على حامل لنقل الصور والمستندات الثابتة .

ويستطيع المتحدث مشاهدة الصورة المرسلة على الشاشة السفلية قبل ارسالها في حين يستقبل الرد من الطرف الآخر على الشاشة العلوية ولكن يعيب هذا الهاتف المرئي الملون أن صورته غير واضحة فهي تبدو كصور رواد الفضاء المرسلة من الفضاء الخارجي .

الطيران الشمسي



تستطيع هذه الطائرة الشمسية الجديدة التحليق بدون طيار على ارتفاع عشرين ألف متر لمدة عام كامل دون أن تحتاج للهبوط من أجل التزود بالوقود ، فالخلايا الشمسية تغطي مساحة ألف متر مربع من سطحها لتمدها بالطاقة اللازمة لطيرانها .

تقوم هذه الخلايا بتحويل الطاقة الشمسية الى كهرباء لتشغيل محرك كهربي قوته ١٥ حصانا مصنوع من السمريوم ـ وهو عنصر فلزي نادر ـ والكوبالت . ويتولى المحرك تدوير مروحة سرعتها لاتتعدى ١٥٠ لفة في الدقيقة وهو مايكفي لتصل سرعة الطائرة الى مائة كيلومتر في الساعة .

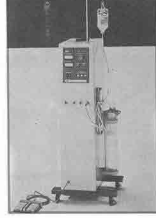
أما الطاقة الكهربية الزائدة فتستخدم لشحن بطارية مائية تقوم بتحويل الماء الموجود بها الى غازي الهيدروجين والأوكسجين . ولكن بعد غروب الشمس وانقطاع الطاقة الكهربية ينعكس التفاعل فيتحد الغازان ليكونا ماء مرة أخرى ، وتنطلق الطاقة الكهربية المخزونة وتتولى تشغيل المحرك .

وبما أن الطيران الشمسي على ارتفاع عال ولمدة طويلة يتطلب طائرة خفيفة الوزن ، بنيت هذه الطائرة من مادة خشبية مركبة ، خفيفة للغاية . فبالرغم من أن المسافة بين طرفي جناحيها تصل الى مائة متر ، أي ضعف هذه المسافة في الطائرة « البوينج ـ ٧٤٧ » ، فإنها لاتزن سوى ٩٠٠ كيلوجرام إذ يتعين أن تكون نسبة وزن الطائرة لمساحة أجنحتها عند الاقلاع أصغر مايمكن ، مما يعطي قوة دفع قصوى بأقل طاقة ممكنة .

ويتوقع المهندسون المتحمسون للطاقة الشمسية أن تكون لهذه الطائرة استخدامات متعددة في مجال مراقبة الحدود والسواحل .

المشرط الصوتي





جهاز توليد الموجات فوق الصوتية والمشرط الصوتي ومضخة الشفط

بدأ استخدام أول مشرط جراحي يعمل بالموجات فوق الصوتية ، فهو يفتت الأنسجة الخبيثة والأورام ثم يشفطها كما يسكب مادة معقمة على مكان الجراحة قبل وبعد عملية التفتيت والشفط.

ويتكون هذا المشرط الجديد من مجس جراحي مصنوع من سبيكة من التيتان يتذبذب طوليا بسرعة عشرات الترددات في الثانية الواحدة ، ولا تزيد سعة كل ذبذبة عن ٢٥٠ مم . أما عملية شفط الأنسجة المفتتة فتتم بواسطة مضخة متصلة بالمجس ، وتتجمع هذه الأنسجة في إناء معقم في نهاية أنبوب المضخة .

ويتميز هذا المشرط الصوتي بمرونة استعماله ، إذ يمكن تعديل تردده طبقا لكثافة الأنسجة المطلوب التخلص منها (عضلات ـ أعصاب ـ أوعية دموية ـ أورام أو حتى عظام) كما يتفوق هذا المشرط الذي يعمل بالموجات فوق الصوتية على المشرط الضوئي الذي يعمل بأشعة الليزر ، فهو يحافظ على الأوتار والأعصاب والغدد الليمفاوية والأوعية الدموية الموجودة في المنطقة المجاورة لمكان الجراحة ، في حين يتسبب شعاع الليزر ـ مهما كانت دقته ـ في حرق الأنسجة المحيطة بمنطقة الجراحة .

ويمثل المشرط الصوتي قفزة في مجال الجراحة الدقيقة ، فمن أهم استخداماته جراحة المخ والأعصاب لاستئصال الأورام التي يصعب الوصول اليها بالوسائل الجراحية التقليدية ، وجراحة الجهاز الهضمي والكبد ، كما سيستخدم المشرط الصوتي قريبا في جراحة العظام .

نجاح أول عملية زرع للجينات

الخلايا المكونة لخلايا الدم الحمراء والكروموسوم الذي تقع عليه الجينة الشاذة

كانت عملية زرع جينة في مكانها الصحيح على الكروموسوم المحدد في نواة الخلية حلما صعب المنال الى أن تمكن باحثان أمريكيان من تحقيقه بهدف معالجة بعض أنواع الأنيميا الوراثية الخطيرة.

وتعتبر هذه التجربة أول خطوة حقيقية نحو العلاج الجيني ـ أي على مستوى الجينات ـ للأمراض الوراثية .

وترجع صعوبة هذه العملية الى أنه يتعين تحديد مكان الجينة الشاذة المسببة للمرض من بين مئات الآلاف من الجينات التي تحتويها نواة الخلية ، ثم التعرف على مكونات هذه الجينة وتركيبها حتى يمكن باستخدام تقنيات الهندسة الوراثية تكوين الجينة السليمة . وبعد ذلك تأتي المهمة الصعبة ، وهي زرع الجينة السليمة في نواة الخلية المناسبة وفي المكان الصحيح والتأكد من أنها سوف تقوم بدورها على الوجه الأكمل . وتعد هذه المرحلة أصعب المراحل جميعا .

ولقد تناولت التجربة الأمريكية عملية زرع الجينة السليمة التي تتحكم في تكوين إحدى بروتينات خلايا الدم الحمراء والمسئولة عن نقل الأوكسجين في الدم وهي « البيتاجلوبين » . وتمكن الفريق الأمريكي من زرع هذه الجينة في مكانها الصحيح من أنوية خلايا حيوانات ثديية .

ويستعد الباحثون للقيام بعملية الزرع على مرضى حقيقيين لاعادة خلايا الدم الحمراء إلى وظيفتها وذلك باستبدال الجينة الشاذة بنسخة صحيحة منها .

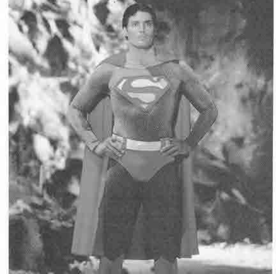
سيتم أخذ عينة من النخاع العظمي للمريض ، تحتوي على الخلايا المكونة لخلايا الدم الحمراء ، وبمعالجة هذه الخلايا بتقنيات متطورة في وجود النسخ السليمة للجينات الشاذة ستحل الجينات الطبيعية محل جينات البيتاجلوبين المصابة وبعد ذلك سيجري اختيار الخلايا التي قبلت الجينات الجديدة ، وهي مهمة ليست بالسهلة اذا عرفنا أن هناك أقل من خلية لكل مليون خلية تنقل الجينة الجديدة . ثم تعمل مزرعة من هذه الخلايا المعدلة للحصول على عدد كبير منها ويتم حقنها في وريد المريض حيث تتوجه الى نخاعه العظمي وهو مصنع تكوين الخلايا الحمراء ، ولكن بعد أن يكون قد تم معالجة هذا النخاع بالاشعاعات أو بالوسائل الكيميائية لتدمير الخلايا الشاذة المكونة للخلايا الحمراء المسببة للمرض .

واذا سارت الأمور كما هو مخطط لها ، فإن النخاع سيبدأ في تكوين خلايا حمراء طبيعية ومن ثم يشفى المريض .

تسعون عاما من السينما ٩٠

بقلم: رؤوف توفيق

على اليمين ملصق «بوستر» لفيلم كوميدى للثنائى لوريل وهاردى .. واللقطة الأخرى لسوبرمان الجديد الذى يمثله كريستوفر ريف







«روجر مور» فى دور جيمس بوند الذى لايخذل أبدا

تسعون عاما مضت على ظهور اختراع السينما ومازالت السينما أكثر الفنون إثارة للخيال والاهتمام . واذا كان العالم ، وسط أحداثه الحالية المتلاحقة ، قد تذكر ذلك اليوم منذ تسعين عاما ــ ٢٨ ديسمبر عام ١٨٩٥ ــ عندما نجح الأخوان «لوميير» فى إقامة أول عرض سينمائى فى مقهى «لوجران» بشارع «الكابيسين» بباريس .. فإن العالم يتذكر هذا اليوم ، ليؤرخ به رحلة مئات الألوف من الفنانين والفنيين ، الذين شاركوا فى تطوير ونشر هذا الفن واستمراره ، رغم كل التحديات والمنافسات .

ذلك .. لأنه كانت هناك أكثر من فترة ، أعلن خلالها بعض صناع السينما عن يأسهم من الاستمرار ، وإفلاس الاستوديوهات ، وإغلاق دور العرض أو تقلص عددها ..

ولكن رغم هذا .. فإن فن السينما لم يتوقف .. بل كانت هذه الظروف دافعاً قويا لمزيد من التحدى والابداع !

والدليل على هذا .. عدد الأفلام المنتجة سنويا .. وكمية الأموال التى تنفق فى صناعة السينما .. وعدد الصفحات التى تكتب يوميا بكل اللغات عن السينما .. وعدد ساعات الارسال التليفزيونى التى تغطى بالأفلام السينمائية .. وعدد الكليات والمعاهد المتخصصة فى فن السينما .. وعدد المهرجانات السينمائية التى تقام سنويا فى عواصم متعددة من العالم .

وكأنَّ فن السينما يحمل بداخله مقومات المناعة ضد الشيخوخة والعجز !

وليس هناك من سر سوى أن العشاق الحقيقيين لهذا الفن .. متيقظون دائما لكل المتغيرات التى تحيط بهم .. مدركون لتقلب أذواق الجماهير ومتطلباتهم .. مستعدون للتجديد وتقديم البدائل الفنية ، أى أنهم فى حالة استعداد وتأهب مستمر ، خصوصا بعد غزو وانتشار التليفزيون ، وتعدد قنواته .. وكذلك انتشار أجهزة الفيديو كاسيت داخل المنازل .

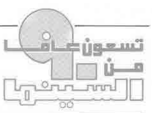


شارلى شابلن .. الفيلسوف الضاحك



جاك نكلسون فى لقطة من فيلم «شروق»





لماذا كانت السنوات الأولى .. أكثر ثراءً فى الفن ؟

ولا شك أن السنوات الخمسين الأولى من عمر السينما .. كانت أكثر ثراءً فى الفن ، عن السنوات اللاحقة لها .

فهذه السنوات الأولى ، شهدت مايمكن أن نسميه مرحلة تأسيس الفن .. بما فى هذه المرحلة من وضع القواعد الأساسية ، والدخول فى تجارب واختبارات حادة ، تماما .. كمرحلة تربية الطفل .. وتدريبه على النطق والحركة .. وتلقينه القيم والعادات ، وتهذيب سلوكه وتصرفاته .. وفى نفس الوقت حمايته من الاضطرابات النفسية ، والانحرافات .. وتطعيمه ضد الأمراض .

كذلك كانت بداية السينما .. منذ تلك الليلة التى أعلن فيها الأخوان « لوميير » نجاح تجربة عرض الشرائط القصيرة التى صوراها بكاميرا .. هى فى نفس الوقت تصلح كآلة عرض .

ففى تلك الليلة ، كان يجلس ضمن المتفرجين « جورج ميليس » الذى تقدم من الأخوين « لوميير » يطلب منهما شراء آلة سينمائية ، كالتى شاهدها .. ولكنهما رفضا .. استنادا الى تعليمات والدهما ، بأن هذه الآلة (السينما توغراف) اختراع علمى ، وليس له أى صفة تجارية .

فما كان من المتفرج « جورج ميليس » الا أن اعتكف فى منزله ، يحاول أن يصنع آلة سينمائية مشابهة . وبعد أقل من عام ، استطاع أن ينجح فى محاولته . وبدأ يصور بعض الشرائط السينمائية ، ويبيعها للتجار فى أسواق باريس ليعرضوها فى المقاهى . ثم أسس شركة سماها « ستار فيلم » واستعان لأول مرة بممثلى المسرح ، وصمم بنفسه الديكورات واعلانات الفيلم . وقادته الصدفة أثناء تعطل ماكينة التصوير . لأن يكتشف بداية الطريق لصنع الحيل السينمائية واستخدامها فى الأفلام !

وهكذا سجل تاريخ السينما .. اسم « جورج ميليس » كأول رائد سينمائى يقدم أفلاما لها قصة (قضية درايفوس) .. أو مستوحاة من أسطورة (سندريللا) .. أو يشطح به الخيال والجرأة ليقدم تصورا لرحلة الى القمر ، فى فيلم يحمل نفس العنوان !

وكان هذا الفيلم سبب شهرته التى طارت الى أمريكا .. حيث قامت ثلاث شركات أمريكية باعادة طبع هذا الفيلم ــ دون أن يدفعوا له أى مقابل ــ فقد كانت حقوق النشر غير معروفة فى ذلك الوقت .. وهكذا انتقلت آلاف النسخ داخل أمريكا وأوربا .. وخسر « ميليس » كل أمواله التى أنفقها فى صنع الفيلم .. وكسبت الشركات الأمريكية العائد كله .

ومنذ ذلك التاريخ .. بدأ فن السينما يدخل مرحلة التجارة .. ويتعرض لظروف السوق ، وأذواق المشاهدين ، وقانون العرض والطلب !

لحظة تأمل .. للمحاولات الأولى فى السينما

ومع النهم الشديد لاغراء هذا الفن الجديد الذى وجد طريقه بين الجمهور .. بدأت محاولات الفنانين فى التعبير بالسينما .. حتى توجت هذه المحاولات بفيلم « مولد أمة » ــ عام ١٩١٥ ــ الذى أخرجه « د . و . جريفيث » الأمريكى الجنسية ، الايرلندى الأصل .

« ليزا منيلى » فى لقطة من فيلم : « نيويورك .. نيويورك » ثم لقطة أخرى لجين كيلى ، ومحاولة للعودة الى الأفلام الموسيقية القديمة





وقد كان هذا الفيلم الصامت .. هو أول بشير لقوة السينما وسحرها الخاص .. والبداية الحقيقية للسينما الأمريكية .

واستقبل فيلم « مولد أمة » بحفاوة جماهيرية .. وفي العام التالي ـ ١٩١٦ ـ قدم « جريفيث » فيلمه الضخم « التعصب » .. وظهرت في هذا الفيلم براعة المخرج في سرد أربع قصص من عصور مختلفة في التاريخ .. بدءا من القرن السادس قبل الميلاد .. وحتى الاضرابات الأمريكية في عام ١٩١١ .

واستخدم « جريفيث » أعدادا هائلة من الممثلين والكومبارس ـ وصل عددهم في مشهد واحد الى ستة عشر ألفا من الكومبارس ـ وبنى ديكورات ضخمة ، وتكلف الفيلم وقتها مليونين من الدولارات ..

ورغم الاقبال الجماهيري على الفيلم .. الا أنه لم يتمكن من تغطية نفقاته .. وخسر الفيلم حوالي المليون دولار ..

ولكن هذا الفيلم ، ومن قبل فيلم « مولد أمة » ، سجل اسم « جريفيث » كعملاق الفيلم الصامت ، وأبي الفن السينمائي .. ومازالت أفلام هذا المخرج تدرس حتى الآن في معاهد السينما العالمية .. كأساس للغة السينمائية .

ونطقت السينما

ثم يدخل شارلي شابلن الى السينما .. ليحدث هذ الدوي الذي مازال مؤثرا وعبقريا حتى هذه اللحظة .

وسجل المؤرخ السينمائي « جورج سادول » في قائمة روائع السينما العالمية .. أنه في الفترة من ١٩١٦ الى ١٩٢٠ قدم « شابلن » سبعة أفلام تعتبر كلها من أهم الأفلام في تاريخ السينما .. هذا بخلاف باقي مجموعة أفلام شارلي شابلن ، سواء التي أخرجها للسينما الصامتة .. أو السينما الناطقة ..

وفي تلك الفترة الأولى من عمر السينما .. تفتحت زهور كثيرة في حديقة الفن السينمائي .. ولمعت تجارب في السينما السويدية والألمانية والفرنسية والروسية .

ومع نهاية الحرب العالمية الأولى .. أكدت هوليود قدرتها على الانتشار في الأسواق الخارجية .. وبدأت تضارب للاستحواذ على كل موهبة سينمائية ، مهما كان موقعها على الخريطة .. لتدعم بها انتاجها ، ولتؤكد أنها قلعة السينما في العالم .

وانتعش سوق السينما .. وبدأ الفن والصناعة يتقدمان بخطى واسعة وسريعة .. وكان ميلاد أول فيلم ناطق « مغني الجاز » الذي عرض بأمريكا في ٦ أكتوبر ١٩٢٧ .. بمثابة دخول عصر جديد للسينما ، شهد تجارب هامة ، ومنافسات خطيرة بين تقدم الصناعة وقوة رأس المال في أمريكا .. وبين سينمائيين موهوبين يتحدون الامكانيات في كل من فرنسا والمانيا وانجلترا والاتحاد السوفيتي ..

حتى ظهرت المدرسة الواقعية في السينما الايطالية في أعقاب الحرب العالمية الثانية .



جين فوندا وجيمس برودجن في لقطة من فيلم « أعراض صينية »

المخرج « رومان بولانسكي » مع المصور السويدي العبقري « سيفن نكفيست » .. وأمامهما الممثلة الفرنسية « ايزابيل أدجاني » .. في لقطة قبل التصوير من فيلم : « المستأجر »



• جون واين، الذى اشتهر بأدواره فى أفلام الحرب..



ملصق من أفلام الجريمة.. من تاريخ السينما

لقطة من فيلم «أماديوس» للمخرج ميلوش فورمان تظهر الموسيقار العبقرى موزار



لتعلن عن التحول الخطير فى الفكر واللغة السينمائية.

كيف كانوا يفكرون؟

وهكذا نرى أن السنوات الخمسين الأولى من عمر السينما كانت سنوات خصبة، غنية بتجاربها وأن هذا الجيل من الرواد.. اقتحم المجهـول.. وأضاء الطـريق.. وأرسى العلامات.. لتصبح المهمة أكثر يسرا بالنسبة للأجيال التالية من السينمائيين.. سواء بالاضافة أو التعديل.

والآن.. ونحن نقلب صفحات تاريخ السينما.. يجدر بنا أن نتوقف قليلا.. عند هؤلاء الذين أثروا الفن السينمائى.. لنعرف كيف كانوا يفكرون..

فيلسوف السينما وصعلوكها الضاحك «شارلى شابلن» له مقولة شهيرة يكشف بها عن فكره السينمائى.. يقول:

«إننى لاأضحك المتفرجين على نماذج انسانية فقيرة أو مطحونة.. ذلك لأننى أعرف أن تسعة أعشار الناس من الفقراء.. ولهذا أضحك جمهورى بأن أسقط الآيس كريم فى عنق سيدة ثرية سمينة.. وأجعل رجل الأعمال المتكبر يتزحلق على قشرة موز.. ولكن لاأضع شخصا فقيرا فى نفس الموقف»!

المخرج الايطالى «روسيلليني» مؤسس تيار الواقعية الجديدة فى السينما الايطالية.. رفع شعارا يقول:

«قبل كل شىء.. علينا أن نعرف الناس كما هم».

ولمزيد من الايضاح.. ضرب روسيلليني مثالا بقوله: «يكفى أن تخرج إلى الطريق.. وتقف فى أى مكان.. وتلاحظ مايدور بعيون يقظة.. لكى تخرج فيلما حقيقيا».

وحتـى يبدو الأمر محددا.. شديد الوضوح.. قال روسيلليني: «إن مايثير انتباهى فى هذا العالم هو الانسان.. وتلك المغامرة الوحيدة لكل منا فى الحياة.. فكل كائن بشرى يتميز بشىء خاص.. مع أن الجميع يبدون متشابهين!

«والواقعية الجديدة عبارة عن تتبع كائن بشـرى، بحب، فى كل تحـركـاته واكتشافاته.. وانا لاأسمح لنفسى بأن أصدر حكما على شخصياتى.. إننى أكتفى فقط بمراقبتهم ورصد أفعالهم.. والاقتراب من هذا الشىء الثقيل الذى يرزحون تحته»!

واهتم «روسيلليني» بالشارع الايطالى الفقير المزدحم.. وخلق من هذا الشارع بعض أفلامه..

وهكذا اكتسبت السينما الايطالية هذا المذاق الخاص والمتميز.. عندما خرجت من أسر جدران الاستوديوهات لتبحث عن الواقع الحى الملموس.. فمهما كان هذا الواقع مؤلما ومليئا بالتناقضات.. الا أنه الواقع الانسانى الصادق.

أخرج روسيلليني فيلم «روما مدينة مفتوحة» سنة ١٩٤٥.. ثم أخرج المخرج الايطالى «فيسكونتى» فيلم «الأرض تهتز» سنة ٤٨.. ثم قدم المخرج «فيتوريو دى سيكا» فيلم «سارق الدراجات» أيضا فى سنة ٤٨.

وبهذه الأفلام الثلاثة.. خرجت شهادة الميلاد للسينما الواقعية الايطالية التى غيرت مسار السينما فى العالم كله.

الانسان العادى.. هو البطل

واذا توقفنا هنا قليلا.. وقارنا بين ماقاله «شارلى شـابلن» فى تلخيص فلسفتـه السينمائية.. وما قاله «روسيلليني» فى قيادته لمدرسة الواقعية الجديدة.. نرى أن الخط الأساسى الذى يجمع بينهما هو الاهتمام بالانسان العادى، الذى قد تراه فى الطريق العام، والذى قد يبدو ــ للوهلة الأولى ــ أنه لايميزه شىء عن الآخرين.. ولكن الاقتراب منه والتعرف عليه يفتح لنا أبواب المعرفة والفهم والتآلف.. وهو مايجعل المتفرج مرتبطا بفيلم، مندمجا مع شخصياته وأحداثه.

فالانسان.. هو المادة الحقيقية للفيلم.

وقد عبر كثير من المخرجين ــ من مختلف أنحاء العالم ــ حول هذا المفهوم البسيط، والذى قد يتوه عن عمد أو تجاهل.. أو جريا



اسكتش لفنان الديكور «منسيس» مرسوم بالألوان المائية لمشهد في فيلم «لص بغداد»



ملصق من الأفلام الموسيقية ــ من تاريخ السينما



فريق مغامرات الفضاء في عودة جيداي ... ولقطة أخرى لمسدس في يد «كلينت ايستوود»



وراء جماليات شكلية أو اختراعات اليكترونية لزغللة عيون المشاهدين.

وخلال كل مراحل تطور السينما .. كان هناك من يخرج للتنبيه على هذه البديهية الغائبة ..

الانسان .. هو المادة الحقيقية للفيلم.

مثلا .. المخرج الفرنسي «رينيه كلير» الذى بدأ يخرج للسينما من منتصف العشرينات .. كان له رأى يقول : «إن الاحساس بالتعاطف والتآلف الانساني الذى ينشأ بين المتفرج وبطل الفيلم .. يتمدد حتى ينقطع ، حينما يصبح هذا البطل في عالم مافوق الواقع .. فالمتفرج في حاجة دائما الى الاعتقاد بأن مايراه قد حدث فعلا أو يمكن حدوثه له».

ونقفز عبر السنوات .. لنصل الى منتصف الخمسينات .. ونتوقف أمام البيان الذى أصدره المخرج الانجليزى «لندسى أندرسون» ، والذى يعتبر من السينمائيين الغاضبين الذين أسسوا حركة السينما الحرة في انجلترا ، وله دراسات سينمائية متعددة ، وشغل لفترة منصب مدير معهد الفيلم البريطاني ..

يقول بيان المخرج «لندسى أندرسون» الذى وضع له عنوانا : «الى الخارج .. والى الأمام» .. وقد ظهر هذا البيان عام ١٩٥٧ :

«إن عدد الأفلام البريطانية التى حاولت أن تدور أحداثها في وسط شعبي ، لم يتجاوز أصابع اليد الواحدة .. وعلى هذا يمكن القول بأن السينما البريطانية لم تعالج الموضوعات الشعبية . ومن السخف الشديد أن تحترم سينما تتجاهل ثلاثة أرباع سكان البلاد ..

ولكن الأسوأ من هذا .. أن هذا الجزء الضئيل من المجتمع (يقصد البورجوازية) نجح في فرض رؤيته المشوهة على جمهور كبير نتيجة تحكمه في صناعة السينما .. ولهذا كانت هذه السينما كاذبة .. لأنها تعيش على وهم غير حقيقى بأن بريطانيا العظمى بلد بدون مشاكل .. ومازالت هي الامبراطورية التى لاتغرب عنها الشمس»!

والمخرج الايطالى «فيتوريو دى سيكا» له عبارة يركز فيها خلاصة تجربته في السينما .. قال فيها :

«أستطيع أن أؤكد استنادا الى خبرتي الطويلة .. أن الجمهور يتقبل أى موضوع طالما أن الموضوع انسانى وأصيل .. فنحن نروي على الشاشة قصصا انسانية .. أو قصصا عن الانسان .. فاذا كان هذا الانسان مجردا من انسانيته ، فإن الجمهور ينصرف عن مثل هذا العمل» .

ما الذى يسجله التاريخ ؟

لقد اختفى معظم هؤلاء المخرجين .. ماتوا .. ولكن رؤيتهم لفن السينما بقيت .. لتتردد في كل المعاهد المتخصصة .. والكتب الفنية .. وشهادات المؤرخين.

وجرت أحداث كثيرة ومثيرة في عالم السينما ..

اخترعوا الشاشة العريضة (السكوب) .. واخترعوا الشاشة الدائرية .. واخترعوا أفلاما مجسمة .. وأفلاما لها رائحة (!!) .. و .. و ..

ولكن بقيت الحقيقة البديهية : ان الفن الذى لايقوم على الواقع ، ومشاكل الانسان المصيرية .. هو فن باطل !

«لقد قاوم الكثير من الفنانين ، سيطرة الصناعة وضغوط رؤوس الأموال على فن السينما .. نجحت محاولاتهم أحيانا .. وفشلت في أحيان أخرى .. والمعركة مازالت مستمرة وتشتد ضراوة ..

والشىء المؤكد .. أن تاريخ السينما سيتذكر دائما هؤلاء الفنانين ، وأفلامهم الرائعة التى تناولت قضايا الانسانية .. أما تلك الأفلام التى تعتمد على اثارة غرائز الخوف والرعب والجنس .. والأفلام التى تختلق الكوارث والأشباح .. فهى كلها مجرد بالونات ملونة سرعان ماتذروها الرياح ولايتبقى منها شىء .. لا في الوجدان .. ولا في التاريخ !

رؤوف توفيق



القصير بين الطوال

حضر الدكتور « أوليفر وندل هولمز » ذات مرة اجتماعاً كان كل أعضائه من طوال القامة فكان هو الوحيد بينهم القصير القامة ..

ومال عليه صديق خبيث يقول :

ـ كيف تشعر بقصرك بينهم ؟

فأجاب الدكتور :

ـ كما يشعر الجنيه الذهبي بصغره بين « الشلنات »

وكما هو معروف فإن الشلن أكبر حجماً من الجنيه الذهب ...

جـواب

التقى الحسين بن علي رضى الله عنه بالفرزدق وهو في طريقه إلى الكوفة فسأله عن الناس : أمعه أم مع يزيد ؟ فقال الفرزدق :

« قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أمية ، والقضاء ينزل من السماء والله يفعل مايشاء ! » .

سمعها مرتين

القاضي : ـ هل سمعت صوت الرصاصة ؟

الشاهد : ـ نعم .. سمعتها مرتين ، الأولى عندما مرّت بجواري والثانية عندما أسرعت جرياً ومررت بها .

أحسن بأحسن

مدح شاعر أحد الأغنياء بقصيدة فأمر الغني ببردعة حمار ولجام أخذهما الشاعر على كتفه وانصرف الى السوق فسأله الناس عما يحمل ، فأجاب : لقد مدحت فلاناً بقصيدة من أحسن شعرى فخلع على خلعة من أحسن ملابسه .

عواد المريض

مرض أحد حكماء العرب ولكنه أمر بألا يؤذن لأحد من زواره بالدخول عليه فلما شق أنكر عليه أصحابه ذلك فقال :

عوادي ثلاثة : صديق وعدو وثالث ليس بعدو ولا صديق ، أما الصديق فإنه يتألم لرؤيتي مريضاً وهذا مالا أرضاه له ، وأما العدو فإنه يشمت بي وهذا مالا أرضاه لنفسي . وأما الثالث فلا حاجة به ولا بي لزيارته !

إعجاب وكراهية

أصيب الشاعر « ادوارد توماس » إصابة بليغة في الحرب الماضية أقعدته عن كسب عيشه فكتب إلى اثنين من الأدباء يستنجد بهما . ورد عليه الأول برسالة طويلة يمجد فيها شعره ويشيد بأدبه .. واكتفى بذلك . أما الآخر ، وكان جورج برنارد شو ، فقد أرسل إليه يقول :

« عزيزي توماس .. إنني أكره شعرك ولم استسغه قط في حياتي وقد أرفقت بهذا الخطاب حوالة بمائتي جنيه » ...

سهر الليالي

سئل إفلاطون كيف بلغ مكانه من الحكمة والعلم فأجاب : أفنيت من الزيت أكثر مما أفنيت من الشراب .

عار .. وعار

اشتدت المنافسة بين أنخرسيس الفيلسوف الصقلي وبين أحد حكماء اليونان . فعيره اليوناني بقعته بأنه صقلية فرد الفيلسوف قائلا : إذا كان عارى هو جنسي .. فإنك أنت عار جنسك !

تداوى بدمه

تعرف « مايكل روناستا » من مدريد بأسبانيا ، البالغ من العمر ٣٨ عاماً في إحدى الحفلات على الأرملة الحسناء « ليزامال روس » البالغة من العمر ٢٨ عاماً ...

وفي اليوم الثاني وحينما تم اللقاء بينهما على موعد طلبت « ليزا » من « مايكل » أن يذهبا إلى أحد بنوك الدم ويهديا كمية من دمهما إليه . تعجب « مايكل » من الطلب ولكنه وافق عليه .

وبعد أيام وبينما كان ذاهباً في مهمة إلى باريس اصطدمت سيارته قبل الخروج من مدريد ، وأصيب بجراح ونقل بسرعة إلى المستشفى ولكنه فقد في الطريق كمية من دمه ، وقد تبين للأطباء في المستشفى أن فئة دمه نادرة ولا يوجد منها لديهم ، وبعد الاتصال بعدد من بنوك الدم استطاعوا العثور على الدم الذى يحتاجون إليه وأرسلت اليهم الكمية التى لم تكن سوى ماتبرع به قبل مدة ، وأنقذ من موت محتوم .

سـؤال وجـواب

ماهى نوتردام ؟

نوتردام (كلمة فرنسية معناها « سيدتنا » ، ويقصدون بها العذراء مريم) وهي أثر هام في باريس ، وضعت أحجار أساساته في سنة ١١٦٣ ، بجزيرة المدينة Ile de la cité الواقعة في نهر السين .

ويشتهر هذا الأثر بجمال بنائه الذى استغرق حوالى ١٥٠ سنة ليكتمل . وقد بني على الطراز القوطي ، وتدعم حوائطه المزخرفة في بذخ ، قوائم جميلة .

توّج هنرى السادس ملكاً لفرنسا في نوتردام ، في سنة ١٤٣١ . ولما تزوجت الملكة مارى الأسكتلندية ولى عهد فرنسا ، عقد القران في نوتردام أيضاً .. واستعمل الكاتب الروائي الشهير فيكتور هوجو ، نوتردام منظراً لروايته « نوتردام دى بارى » (سنة ١٨٣١) . وهي الرواية التى اشتهرت باسم « أحدب نوتردام » ، وأخيراً حولت الى فيلم سينمائي ، مثل فيه شارل لاوتون ، شخصية كازيمودو ذلك الأحدب الأصم الأعور ، الذى كان يعيش في نوتردام .

من اخترع أول سيارة ؟

يمكنك أن تتبع تاريخ السيارة الى الوراء ، إذا طاب لك ذلك ، إلى

العربة البخارية ، التى صنعها فى سنة ١٧٧٠ رجل فرنسى اسمه نيقولا كونيوه .

والسيارة ، كما نعرفها الآن ، كانت من عمل رجلين ألمانيين ، لم يعرف أحدهما الآخر واسماهما ديملر ، وبنز... أنتج بنز ، فى سنة ١٨٨١ عربة تسير بوقود من الكحول . وفى سنة ١٨٨٥ أنتج ديملر عربة أفضل من السابقة ، استعملتها فى سنة ١٨٨٧ مؤسسة فرنسية لتجر عربات شكلها الأساسى يشبه كثيراً سياراتنا الحديثة .

وعلى هذا ، سرعان ماحلت السيارة التى تسير بالبترول ، محل العربة البخارية .. كانت أصغر منها حجماً ، وأجمل شكلا ، وأسهل قيادة ، وأكثر أمناً .. وقد صدر قانون فى بريطانيا ، سنة ١٨٦٥ ، يحدد سرعة السيارات بأربعة أميال فى الساعة ، ويصر على أن يسير أمام السيارة رجل يحمل راية حمراء .. فووفق على هذا القانون ، بسبب معارضة السكة الحديدية ، وشركات عربات السفر « الأمنيبوس » للعربة البخارية ، وكذلك بسبب ذعر الناس من العربات التى تحدث أصواتا ... واستؤنف هذا القانون فى سنة ١٨٩٦ .. ومع ذلك فقد ثبط هذا القانون من عزيمة المخترعين الذين يعملون فى اختراع السيارة .

سرعان ماحُسّن شكل السيارة ، وخصوصاً فى فرنسا ، فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر .. بعد ذلك ، فى سنة ١٩٠١ ، بدأ ا . أولدز Olds طريقة خط التجميع لصنع السيارات فى الولايات المتحدة . كانت السيارات تتحرك داخل المصنع فوق عربة . وكل عامل ، بدوره ، يُركّب جزءاً منها . كل واحد يصنع قطعة معينة .. فعمل هذا النظام على رخص انتاج السيارات .. وفى ١٩٠٩ ، أخذ هنرى ت . فورد هذه الفكرة ، وقرر إنتاج سيارات أرخص بعمل نموذج واحد ليس غير ، من السيارات .. وفى سنة ١٩١٣ ، انتقل من العربة حاملة السيارة ، إلى السير المتحرك ، الذى جعل الانتاج أسرع وأرخص وبذا مهد الطريق لإنتاج سيارات العائلات الرخيصة ، التى تراها اليوم فى الشوارع .

ما معنى فبراير ؟

جعل يوليوس قيصر فبراير ، الشهر الثانى من السنة ، بعد أن كان الشهر الثانى عشر ، وحتى عصر قيصر ، كان فبراير ثلاثين يوماً . فأخذ قيصر يوماً منه ، وأضافه على شهر يوليو المسمى باسمه ، وبعده جاء أوغسطس ، وأخذ يوماً آخر من فبراير ، وأضافه على شهر أغسطس المسمى باسمه . وبذا صار فبراير ٢٨ يوما فقط .. إلا أن فبراير يحظى بيوم آخر كل أربع سنين ــ كل سنة كبيسة ــ للمحافظة على التقويم متمشياً مع فصول السنة .

أتى اسم فبراير من اللفظ اللاتينى Febraarius بمعنى « يطهر » فقد كان قدماء الرومان يحتفلون سنوياً بعيد التطهير استعداداً للعام القادم . فالتصق هذا الاسم بهذا الشهر حتى بعد نقله من الشهر الثانى عشر إلى الشهر الثانى من التقويم .



قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : « أين من سعى واجتهد وجمع وعدد وزخرف ونجد وبنى وشيد » .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « لا تسأل عما لم يكن ، فإن فيما قد كان شغلاً عما لم يكن » .

عن ابن عباس : « لا تمار سفيها ولا حليماً فإن السفيه يؤذيك . والحليم يقليك » .

قال ابو الوفاء البوزجانى : « إن غلبك غيرك فى الكلام فلا يغلبك أحد فى السكوت » .

قال أبو الريحان البيرونى : « السنن الصالحة علامات الخير والحق » .

قال أكثم بن صيفى : « كل سؤال وإن قل ، أكثر من كل نوال وإن جل » .

قال بزرجمهر : « سوسوا أحرار الناس بمحض المودة والعامة بالرغبة والرهبة والأسافل بالمخافة » .

قال أبو الفرج بن الطيب : « الشجاع يختار حسن الذكر على البقاء ، والجبان يختار البقاء على حسن الذكر » .

قال يعقوب بن اسحاق الكندى : « اعتزل الشر ، فإن الشر للشر خُلق » .

قال أبو الدرداء : « الشرف كف الأذى وبذل الندى » .

قال ناصر الهرمزدى : « الشرير يباهى بالشر ، والخير يستحيى من الخير ، فما أبعد أحدهما عن الآخر » .

قال الفضل بن سهل : « من أحب الازدياد من النعم فليشكر ، ومن أحب المنزلة فليكف ومن أحب بقاء وعزه فليسقط دالته ومكره » .

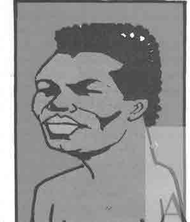
قال لقمان يعظ ابنه : « يابنى شاور من جرب الأمور ، فإنه يعطيك من رأيه ماحصله بالجهد والمال ، وأنت تأخذه بالمجان » .

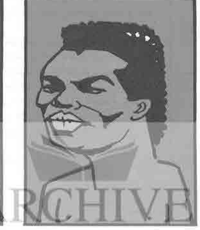
قال صدقة السامرى : « صبر العفيف ظريف » .

عن ابن مسعود : « ما الدخان على النار بأدل من الصاحب على الصاحب » .

استراحة الدوحة

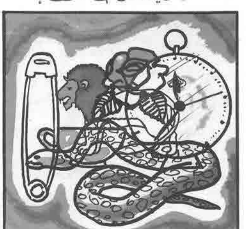
أصل وصورة





• بين أصل وصورة هذا الرسم الكاريكاتيرى لبطل الملاكمة السابق محمد على كلاى الذى ظل متربعا على عرش البطولة لسنوات عديدة، هناك سبعة اختلافات طفيفة .. حاول التعرف عليها لتحصل على جائزة

لأقوياء الملاحظة فقط!



• أمامك رسوم لستة أشياء متداخلة .. تعرّف عليها وارسل لنا الحل لتحصل على جائزة.

دوري الكاريكاتير





• اقتحم أحد اللاعبين أرض الملعب كالصاروخ، وسجل هدفا قويا فى مرمى الخصم .. هل تستطيع أن تحدد من هو صاحب هذا الهدف ورقم فانلته ؟

لعبة الظلال



• مازال هذا اللاعب يحاول العثور على ظله الحقيقي .. حاول أن تساعده فى حل مشكلته لتحصل على جائزة

هات أجمل تعليق



• تأمل هذا الرسم الكاريكاتيرى جيدا ، وحاول أن تجد تعليقا خفيف الظل لتفوز بجائزة

المثل يقول



• حاول أن تكتب لنا المثل الشعبى العربى الذى يعبر عنه هذا الرسم الكاريكاتيرى ، فى انتظارك جائزة .

لوحة لم تتم



• هذه اللوحة التى لم تتم لأديب عربى كبير نجد دائما فى أدبه متعة وعمقاً وأصالة .. أكمل اللوحة ، وتعرف على شخصية الأديب الكبير لتحصل على جائزة

صوت

بقلم: مريم آل سعد

ضوء أم حريق؟

في الخليج محاولات أدبية راقية تتأجج بالجدية والطموح وتشق طريقها بصلابة وثبات نحو التميز والابداع - وهناك أيضاً محاولات وارهاصات جديرة بالتبرعم والنمو ولكنها أجهضت قبل الأوان وما زالت تحت وطأة الاحتضار البطيء المتراوح بين الرغبة في الخروج الى السطح وبين السطحية في طرح وتناول المواضيع والقضايا ، ذلك أن البعض يعتقد بأن مجرد نشره لعدة محاولات في الصحف أو قدرته على طبع كتاب أو ديوان أو رواية معناه أنه قد عمّد نفسه بماء الذهب في قائمة الكتاب والمبدعين ، وأنه قد أنهى معركته مع الاجادة والابداع ، وأنه قد صنع تاريخه الأدبي ولا يلتفت – بعد ذلك – الى القيمة الفنية والفكرية للنتاج أو الى مدى مايضيفه الى الحياة الثقافية ، أو على مردوده في الوسط الاجتماعي والثقافي المعاصر ، أو مدى مايحمله من هم أو فكر أو قضية أو أي ملمح آخر غير رغبة الكاتب الشخصية في نشر مخطوطاته الوجدانية التي قد لايعني أحداً غيره الاطلاع عليها وإن صبها على شكل قصائد أو قصص – الخ !

هذه الرغبة بين التطلع الى الابداع وبين التهالك على النشر لاتصنع موهوباً متواضعاً بل تحوله الى مسخ راغب في الانتشار على حساب موهبة محدودة الاطلاع أصابها الاهتراء والتمزق من كثرة المراهنة عليها .. وتخسر – بذلك – الحياة الثقافية في محيطه عنصراً لو أنه عمل بصمت وقناعة على بناء عصبه الثقافي وحاول باجتهاد صياغة منهج مميز لخرجت محاولات جديرة بالاحترام ، ولاستطاع أن يحمي اسمه من الانحدار والتسويف وربما استطاع يوماً أن يخرج بنتاج له قيمته الفنية ، ولكنه بالتأكيد – في كل الحالات – سيحتفظ دائماً باسمه نقياً لم تلطخه مقاولات حب الانتشار وعشق الظهور اللا متناهي .

وربما أن جدة الحياة الثقافية في الخليج وتفتحها المفاجىء على ثقافات وتيارات متعددة ، وقلة الاسهامات الخليجية الحديثة في كثير من المجالات ولدّ على السطح الكثير من الأدعياء وأثر على مسيرة الكثيرين من الموهوبين الذين تأثروا بالأجواء الموجودة التي توزع ألقاباً كثيرة لشخصيات خاوية الا من المركز الوظيفي المرموق ، والذي يعتقد البعض بأنه يكفي ليقلد الشخص امارة الشعر أو مملكة القصة أو عرش المقالة .. ! مما أوحى للكثيرين بأن مجرد طرح ماديه هو نصر في حد ذاته ، ومأثرة لم يسبقه اليها أحد ، وريادة يسجلها التاريخ باسمه في المستقبل .. !

وتؤيد هؤلاء المتسرعين جوقة من المنشدين الهاتفين بمسوغ ودون مسوغ وبالأغلب ارضاء لمصالحهم الشخصية ، فتكاد تغرق في بحر الغرور والتسرع مواهب قد يكتب لها النجاح لو تأنت ودرست وصبرت وهذبت معظم ما أنتجته .. !

والمدهش أنه بين تراكم الكثير من المطبوعات الهجينة تخرج محاولات ناضجة مرهفة متأججة لكتاب خليجيين كأنهم قد جاؤوا في الزمن الخطأ .. وكأنهم مولودون قبل الأوان . فنراهم متوهجين أحاديين كالسيف القاطع تحبطهم الغربة وسط هذا القطيع المتناسل من أواسط الموهوبين .

إن تعجل الشهرة والاستسلام لمدّ الغرور الجارف سيلغي دور الكثيرين من الواعدين الذين سينتهون قبل أن يبذلوا ولو اليسير مما اعتقدوا أنهم قدموه .. !